الهام منصور

أنا هي أنتِ

رواية



الفصل الأول

- ١ -

هدأت عاصفة المدافع بعد إعلان وقف إطلاق النار وتحوّل الليل إلى ظلام يسكنه الحذر. خرج الناس من مخابئهم، انسحبت ليال من بين الجيران المكوّمين على أدراج البناية وعادت إلى بيتها. كان الوقت باكراً نسبياً فحاولت أن تقرأ قليلاً قبل أن تخلد إلى النوم حاولت ذلك لتتأكد أن وقف إطلاق النار سيصمد. جلست إلى مكتبها، أخذت كتاباً وباشرت عملها، تقرأ ولا تفهم جيداً ما تقرأ وتعيد القراءة عبثاً، فذهنها ما زال تحت وطأة الرعب الذي عاشته لساعات عديدة بعد ظهر ذلك اليوم، لكنها ثابرت على القراءة علّها تخرج من الواقع، علّ الكلمات تنقلها إلى أجواء لطالما أبعدتها عنها الحرب ومآسيها.

- ٢ -

في الطرف الآخر من العاصمة فعلت سهام ما فعلته ليال، خرجت من مخبئها، ذهبت إلى بيتها ودخلت غرفتها، لكنها لم تنم، كان ذهنها مشغولاً بالتخطيط لأمر ما لأنها مقهورة ومصابة بخيبة لا

تقوى على تحملها، ماذا ستفعل؟ هل تنهزم وتسكت؟ لا! هذا التصميم على عدم السكوت على الضيم جرّها إلى استعادة ماضيها الذي أوصلها إلى ما هي عليه الآن. نسيت ما أرادت أن تخطط له وتساءلت «كيف بدأت قصتي معها؟ هل بدأت معها فعلاً؟ كنت في الثامنة من عمري حين أمسكتْ بيدي وشعرتُ بذلك الإحساس الغريب الذي يجتاح كل كياني حين أتذكرها وأتذكّر معها لمسات يد أمي على ظهري. تجلس أمي على مقعدها العادي في صالون بيتنا أمام التلفزيون، أجلس بالقرب منها على الأرض أضع رأسي على ركبتها فتُدخل يدها من قبة قميصي وتبدأ حفلة الدغدغة التي كانت تؤدّي بي أحياناً إلى النوم وغالباً إلى اللجوء إلى سريري لممارسة تلك العادة».

«حين أخذتني من يدي، تلك المعلمة، وجدت أنها تشبه أمي، وتحوّلتُ منذ ذلك الوقت إلى أداة تدور في فلكها. تدخل غرفة الصف وأخرج أنا عن تماسكي، أصبح مشدودة إليها، أتأمّل وجهها من دون أن أسمع ما تقول، إلى حين يدقّ جرس الفرصة، فأقفز من مكاني وأركض نحوها، أقترب منها رويداً رويداً إلى أن يلامس جسدي جسدها، أمدّ لها يدي، تأخذها ونخرج إلى الملعب وأسمعها تقول: «هيّا حبيبتي إلى اللعب». كنت في البداية أفعل، أتركها وأذهب إلى رفيقاتي أحاول اللعب معهن، لكنني كنت دائماً أنظر إليها وأفرح حين ألاحظ أنها تراقبني وتبتسم. كانت ابتسامتها تشجعني على العودة إليها، فتمسّد على وجهي، تضمّني إليها ويجتاح جسدي ذلك الإحساس الغريب...تمتزج صورتها بصورة أمي وهي تمرّر يدها على ظهري».

حين انتقلت سهام إلى المرحلة المتوسطة، أخذت تنعزل عن رفيقاتها

البنات، رفضت أنوثتها، حتى قيل عنها إنها garçon manqué. وحين حاضت للمرة الأولى كان يوم حداد مرير بالنسبة إليها، لكن أمّها هدّأت من روعها وأفهمتها معنى الحيض وأنها أصبحت امرأة وأن هذا الأمر طبيعي وهو حال كل الفتيات، لكن سهام، وإن تفهّمت كلام أمها ظلّت ترفض هذا الواقع، وتحولت أيام الحيض عندها إلى فترة مرض وألم شديد إلى أن مرّت السنة الأولى وفعلت العادة فعلها وبدا الأمر المرفوض لا بد منه. كانت تعبِّر عن ذلك بنفورها من كل لباس أنثوي، ترتدي دائماً السروال والقميص ولا ترتاح إلاّ بالحذاء الذكوري، وأمها تتألّم لأنها كانت تريد وتحب أن ترى ابنتها أنيقة، جميلة وأنثى، لكنها فشلت في ذلك وانتهت إلى اعتبار أن الأمر غير مهم، وبخاصة أن الموضة كانت تنحو باتجاه الملابس الموحّدة. رضخت للأمر الواقع وهي تجهل أو تتجاهل ما يتمخّض في دواخل سهام.

استمرّت هذه الحال كل المرحلة المتوسطة من دراسة سهام التي كانت من الطالبات النشيطات والناجحات في صفها وذلك على الرغم من الوضع الأمني الذي كان يعطّل المدارس لفترات طويلة، من دون أن يعطّلها نهائياً.هكذا أنهت سهام تلك المرحلة وانتقلت إلى المرحلة الثانوية، أنجزت منها السنة الأولى وانتقلت إلى الصف الأول حيث كان عليها أن تقدِّم شهادة رسمية تخوّلها دخول الجامعة ومتابعة دراستها. هنا انتاب الأم شعور بالقلق تجاه ابنتها في ذلك الواقع وأخذت تفكّر بحلول تساعد سهام على متابعة دراستها بشكل آمن وسليم، وأتى الحل بأنها قرّرت أن ترسلها إلى باريس لتكمل السنة المتبقية من المرحلة الثانوية. كانت تعتقد أن فترة السنة كافية لإخماد الحرب في لبنان أو لإيجاد حلٍّ ما، يعيد البلاد إلى ما

كانت عليه. قرّرت وسعت بكل جهودها لتأمين منحة دراسية لسهام، حصلت عليها ووضعت ابنتها أمام الأمر الواقع: «تسافرين وأرافقك في البداية لتأمين الغرفة والإقامة وكل ما يلزم ثم تبقين وأعود». وهذا ما حصل، سافرتا معاً، أمنت أم سهام لابنتها غرفة بالقرب من مسكن أحد الأقارب المقيمين في باريس، وعادت إلى لبنان بعد أن باشرت سهام دراستها وانتظمت حياتها بعض الشيء.

- ٣ -

بدأت سهام حياتها الباريسية بكل شغف، هي فتاة ذكية لا تخاف، تقتحم كل مجهول لتتبيّن خفاياه. انبهرت بالمدينة الساحرة وقرّرت أن تكتشف كل معالمها وعالمها، وفي باريس معالم وعوالم، لكن ما يحدّد الدخول في عالمٍ ما هو ميل عند الإنسان يجرّه إلى الولوج في الباب المفتوح أمامه، ومدينة السحر هذه، أبوابها مشرعة لتحقيق كل الميول والرغبات.

دخلت سهام المدرسة وأخذت تقترب من رفيقاتها في الصف. وكما يحدث دائماً في العلاقات بين البشر، هناك شخص محدّد أو أكثر من شخص واحد نميل إليهم طبيعياً، ربما لما يكون هناك من تشابه بيننا. هكذا حدث مع سهام، صادقت إحدى الزميلات الفرنسيات وأخذت تمضي كل أوقاتها معها؛ علاقة، في الظاهر بريئة جداً، علاقة رفقة دراسة، تجلسان معاً، تأكلان معاً، تزوران المتاحف معاً وتذهبان إلى السينما أو المسرح معاً، وكل ذلك لا يشكّل تساؤلاً عند أحد. لكن الفترات التي كانت لا يراهما فيها أي من معارفهما، أين كانتا تمضيانها؟ لا أحد يعرف ذلك إلاّ سهام وكلير. وكلير فتاة من الريف الفرنسي أتت إلى باريس للدراسة وسكنت في غرفة عند أحد أقاربها، وحين تعرّفت إلى سهام

وعلمت أنها تعيش وحدها في «ستوديو» مستقل، أخذت تتململ من السكن مع الأقارب وأصبحت تنام من وقت لآخر عند سهام. تدرسان معاً وتأكلان معاً و.... وكل ذلك أمر طبيعي بين فتاتين لديهما الميول والأهداف نفسها. كانتا دائماً تحت أنظار الآخرين إلاّ في فترة الليل حيث تذهبان إلى السهرة ولا يعود يراهما أحد من معارفهما.

دامت هذه العلاقة إلى فترة الربيع ودام غياب سهام، بالتالي، عن أهلها كل هذا الوقت. واشتاقت أم سهام إلى ابنتها فقرّرت أن تزورها وتقف على أوضاعها وحالتها في الغربة، هيأت نفسها للسفر واتصلت بابنتها لتعلمها بذلك. انتاب سهام، حين سمعت قول أمها، شعور ملتبس. فرحت بقدوم أمها التي تقدِّر جداً واستاءت في الوقت نفسه وعبّرت بطريقة غير مباشرة عن ذلك. لاحظت الأم هذا الاستياء، لكنها أصرّت على موقفها متجاهلة ما شعرت به سهام من امتعاض وارتباك. عبّرت سهام عن استيائها بأن قالت لأمها أن الفترة الآن غير مؤاتية لمجيئها إلى باريس لأنها تريد أن تحضِّر للامتحانات التي اقترب موعدها، وكان جواب الأم أنه الوقت المناسب لقدومها لأنها ستحرّر، بذلك، سهام من هموم تحضير الأكل وتنظيف البيت وغيره، مما يساعدها أكثر على التفرّغ للدراسة. وقبلت سهام لأنها بالنهاية لا تستطيع أن ترفض أمراً لأمها.

أعلمت سهام رفيقتها كلير بقدوم أمها، تداولتا الأمر، كانتا حزينتين لأنهما ستفترقان لفترة، ولذلك قرّرتا أن تمضيا ليلة وصول الأم معاً في غرفة سهام حيث تقيمان حفلة الوداع المؤقت واتفقتا على نمط معيّن من اللقاءات بينهما في فترة وجود أم سهام في باريس وأمضتا

كل الوقت الذي يفصلهما عن الفراق، معاً. كانت سهام قد أصبحت لا تستطيع العيش من دون كلير التي ملأت صورتها كل فضائها الواعي واللاواعي تماماً كما أصبحت صورتها هي تسكن كل عالم كلير. عشق متبادل لا تعكّره المحرّمات لأنهما من جنس واحد.

ليلة وصول أم سهام أحضرتا المشروب والأكل والسجاير وجلستا معاً تمارسان كل ما يحلو لهما تحقيقاً لرغباتهما المتماثلة، واستمرّتا حتى الصباح في شبه انخطاف، كل واحدة مأخوذة بالأخرى التي تعشق. حين أرهقتا فعلاً أصابهما نعاس قوي فغفيتا حتى الظهر حين استفاقت سهام مرعوبة لأن وقت طائرة أمها قد حان. أيقظت كلير، رتبتا الغرفة بقدر المستطاع وافترقتا، كلير إلى غرفتها وسهام إلى المطار لملاقاة أمها. لكن سهام وقبل ذهابها إلى المطار حاولت أن تشرب القهوة بإسراف لكي تستفيق وتتنشط وتظهر أمام أمها على ما يرام. لكن حتى ولو بدا الإرهاق على وجهها وسألتها أمها عن ذلك، فجواب سهام جاهز ومقبول: إنه إرهاق الدرس للامتحان.

لقاء حار وعناق طويل، على أرض مطار أورلي، بين سهام وأمها. حديث لم ينقطع في السيارة التي أقلّتهما إلى باريس. سهام تسأل عن الأهل وحالة البلد والأم تسألها عن الدراسة، عن باريس وعن كل أحوالها المادية والمعنوية. وهكذا مضى الوقت من دون أن تشعرا أنهما أصبحتا أمام مدخل البناية حيث تسكن الابنة. صعدتا السلّم وفتحت سهام باب الغرفة.دخلت الأم أولاً وتوجهت نحو مقعدٍ في إحدى الزوايا، جلست باسترخاء وهي تقول: «الحمد لله... لقد وصلت». ما كادت تنتهي من هذا القول حتى حط

نظرها على صورة فتاة على مكتب سهام، فانقبضت بسرعة لا تعلم لماذا، ومن دون أن تفكر سألت: «من هذه»؟ أتى جواب سهام بارداً هادئاً: «إنها صديقتي كلير». ثم حوّلت الأم نظرها إلى كل الجدران فلم تجد إلاّ صوراً كبيرة لنساء عاريات أو شبه عاريات. للحظة استعادت في ذهنها كل مرحلة المراهقة عند سهام حيث كانت ترفض أنوثتها. امتعضت للأمر ولكن سرعان ما أبعدت هذا التفكير عن رأسها لأنها فعلاً لا تريد أن تعرف، علّ عدم المعرفة يلغي سحرياً الواقع. تجاهلت الموضوع وعادت إلى سهام تسألها عن حالها، وسهام الذكية حدست بما تشعر به أمها، فانتقلت إلى المطبخ: «سأحضر لك عصيراً بارداً». وهكذا أصبح الحديث بينهما من دون أن ترى إحداهما الأخرى ونجحت سهام بتلافي المواجهة الحرجة؛ فالأم تعرف وترفض ما تعرف والابنة تعرف أن أمها تعرف، لكنها بذكائها الحاد تعرف أيضاً أن أمها ترفض ما تعرف وهنا وجدت حيّزاً للمناورة والتهرّب من السؤال الواضح والصريح.

لكن ما أربك الوضع قليلاً هو صوت رنة الهاتف التي سارعت سهام إلى رفع سماعته وهي تعلم جيداً أنها كلير وأجابت: «شكراً.... إنها بخير... لا... تعلمين أنني لا أستطيع.... إلى الغد...» وأقفلت السماعة. هنا تدخّلت الأم لتقول: «إنها حقاً وقحة...» ولم تكمل، أما سهام فقالت: «إنها كلير تطمئن إلى وصولك بالسلامة و...» فقاطعتها الأم: «وتريد أن تلتقيا كأن شيئاً لم يكن، إنها بلا إحساس، تعلم أنك معي وتريد أن تتحشّر».

ـ لا، الأمر ليس كذلك، على كل حال أنا فرحة بك فما لنا ولها؟ أجابت سهام واقتربت من أمها، عانقتها، قبلتها وغيرت نهائياً الموضوع حيث أخذت تخبر أمها عن نجاحها في المدرسة وعن

المعلمين وعن باريس و... تغير فعلاً كل الجو ووجدت الأم ابنتها كما تريدها أن تكون وأخذت ترشدها وتنصحها حول أهمية النجاح والمتابعة، وأمضتا تلك الليلة في مناخ حميمي كما هو الحال الطبيعي بين أم وابنتها بعد فراق دام عدّة أشهر.

في الصباح ذهبت سهام إلى المدرسة وتوجهت الأم إلى صورة كلير تتفحصها جيداً وتدرس كل ملامحها. وسرعان ما حضرت أمامها صورة تلك المعلمة التي درّست سهام في المرحلة الابتدائية لكنها وبسرعة أيضاً أزاحت ما تم من ربط في رأسها بين الصورتين وتساءلت لماذا تضع سهام صورة تلك الفتاة على مكتبها، ففي اعتقادها أن البنات في عمر سهام يضعن صور شبان معهن. لماذا كل هذه النساء العاريات على الجدران؟ «يا إلهي هل ما أحدس به صحيح؟» صرخت بصوت عالٍ وتابعت بصمت: «إن صح حدسي فهذا أمر مرعب حقاً، هل أواجهها بحقيقة ما أفكر أم أترك الأمر وأتجاهله؟ لكن إن تجاهلته أكون قد تركت سهام تذهب نحو الهاوية، هل أتركها تتدهور أمامي وأصمت؟ لا، سأواجهها وأسألها مباشرة، فهي تبوح لي بكل دواخلها. إن صح ظني فسأحاول معالجة الأمر بكل رويّة، سآخذ الأمر بكل برودة وأحاول أن أبيّن لها أن ما تمر به هو مرحلة طبيعية تنتقل بعدها حكماً إلى الوضع السوي، لكن الأمر يتطلب الرؤية الواضحة والانتقال يتم بفعل إرادة، سأفهمها وأجعلها تشعر بأنها قوية، تملك كل الإمكانات التي تجعلها تتحكم بحياتها كما تريد....» توقفت قليلاً ثم تابعت: «لكن إن واجهتها بما أشعر وتبين لي أن كل ما أحدس به هو خطأ، فستهزأ سهام مني وتعتبرني مهووسة جنسياً وشاذة... ربما كان التريث أفضل... سأراقب أولاً وإن احتاج الأمر فسأتدخل».

في المدرسة كانت كلير تحاول الابتعاد عن سهام لتفهمها بأنها مستاءة من الحالة، لكن سهام حاولت بدورها أن تُفهم كلير بأن الأمر لن يطول وبأن أمها هي هنا فقط لفترة قصيرة بعدها تعود حياتهما إلى ما كانت عليه. وصاحت كلير الفرنسية التربية والعقلية: «ألهذه الدرجة تخافين من أمك؟ إنها فعلاً أم خاصية ولا تستطيعين الخروج وحدك بوجودها وهذا واقع لا أستطيع تحمله...و

ـ دعيني أتصرّف، فأنا مثلك لا أستطيع أن أفترق عنك، لكن اتركي لي الوقت قليلاً كي أقنع أمي بضرورة لقاءاتنا.

ـ إن لم تتصرفي بسرعة فأنا سأبتعد عنك نهائياً. قالت ذلك لتحشر سهام لأنها تعرف مدى تعلق هذه الأخيرة بها.

ـ أعطني يومين فقط، بعدها ستكون الأمور كما تريدين.

ـ يومان فقط وإلاّ فسأكون أمام أمرين: إما أن أقتحم غرفتك بوجود أمك وأفضح ما تحاولين ستره أو أتركك نهائياً وأستبدلك بمن هي أقوى منك.

ـ لا تتسرعي، سأدبر الموضوع، لا تخافي، أنا أيضاً بحاجة إليك، تعلمين ذلك، أحبك فعلاً وأكثر مما تتصورين. دنت من كلير وقبلتها على ثغرها، هدّأت غضبها واتفقتا على أن سهام ستنهي الأمر بسرعة بعد أن طلبت من كلير أن لا تتصل بها إطلاقاً خلال هذه الفترة القصيرة.

عادت سهام في المساء إلى البيت حيث عانقت أمها وسألتها كيف أمضت نهارها وهل ضجرت وحدها؟ لكن الأم التي تعرف باريس جيداً طمأنت ابنتها بأنها لا تضجر في هذه المدينة وبأنها قادرة أن تتجول وحدها وقد فعلت ذلك وزارت من وما كانت تريد زيارته

وتابعت: «لا تقلقي من أجلي فأنا بألف خير، المهم أن تكوني أنت بخير، لقد حضّرت لك العشاء فتغذي جيداً وانصرفي إلى درسك، لا تهتمي بي».

بعد العشاء جلست سهام إلى مكتبها، فتحت كتبها وأخذت تدرس بينما فتحت أمها كتاباً وباشرت بالقراءة بصمت كلّي كي لا تزعج ابنتها. لكن سهام وبعد فترة قصيرة أخذت تتململ وتتلهى لتفهم أمها بأنها لا تستطيع الدرس إذا كان معها أحد في الغرفة، وفي لحظة مفاجئة سألت: «أين صورة كلير؟» فأجابت الأم من دون أي انفعال: «كنت أنظف المكتب اليوم من الغبار، أظن أني وضعت الصورة على الرف. انظري إنها هناك». نظرت سهام إلى حيث أشارت أمها، توجهت إلى الرف وأعادت الصورة إلى مكانها على المكتب. راقبت الأم ما فعلته ابنتها وصمتت كاتمة غضباً كبيراً كاد ينفجر، لكنها تمالكت نفسها وقالت: «أنا سأنام وأتركك تدرسين».

من أين يأتيها النوم هي المتيقظة الغاضبة؟ استلقت لفترة ثم قامت ودخلت المطبخ بحجة الشرب وما أن عادت إلى السرير حتى قامت مجدداً بحجة دخول الحمام ثم بحجة تنفيخ سيجارة ثم... وكلما تحركت الأم حاولت سهام أن تظهر استياءها وعدم قدرتها على التركيز. هي فعلاً لم تكن قادرة على ذلك، تنظر إلى صورة كلير وتخطط للمرحلة الآتية. بعد ساعات نامتا وكانت كل واحدة منهما تسبح في عالمها المضطرب. لكن سهام لم تستطع النوم فعلاً إلا بعد أن رسمت مخططاً يمكنها من لقاء كلير في الليلة القادمة.

كما في اليوم الأول عادت سهام إلى البيت، حدّثت أمها قليلاً ثم

أكلت بسرعة وجلست إلى مكتبها كأنها تريد أن تدرس من دون تضييع الوقت. فرحت الأم بذلك، لكن سرعان ما خاب أملها إذ إن سهام لم تفتح كتاباً بل بقيت لبعض الوقت ساهية، ثم رفعت سماعة الهاتف وقالت بصوت عالٍ من دون أن تنظر إلى أمها: «سأتصل بكلير، أظن أنها مريضة، فهي لم تأت اليوم إلى المدرسة». وباشرت بطلب الرقم ثم تكلمت: «...أنت إذاً مريضة... سأزورك الآن وأشرح لك ما أخذناه اليوم من دروس، لا تقلقي... إلى اللقاء». أقفلت الهاتف، وقفت، حملت محفظتها وتوجهت إلى أمها قائلة: «لن أتأخر». والأم التي كتمت غيظها سألت: «ما هو رقم هاتف كلير؟».

ـ لماذا؟ إنها حقاً مريضة.

ـ لا أشك في ذلك، لكني أريد رقم الهاتف لأطمئن لإمكانية مكالمتك إن احتجت إلى شيء.

ـ لكن كلير تسكن عند أقاربها ومن الأفضل أن لا تتصلي إلاّ في حال الضرورة القصوى، أنت تعرفين عقلية الفرنسيين.

ـ لا تخافي أعرف عقليتهم جيداً ولن أزعجهم.

أخذت سهام ورقة بيضاء، كتبت عليها رقم هاتف كلير، أعطته لأمها وانصرفت بسرعة. أما الأم التي لم يعجبها هذا السلوك فجلست في مقعدها تفكر بألف احتمال واحتمال، لكنها وكما في عادتها أخذت ترجح الاحتمال الذي يطمئنها: «لماذا أنا قلقة هكذا؟ من المؤكد أن كلير مريضة وهي صديقة سهام ومن الطبيعي أن تزورها وإلاّ لماذا الصداقة؟ ثم من الطبيعي أن يكون لسهام أصدقاء أو بالأحرى صديقات، فهي تعيش وحدها في الغربة وهي

بحاجة إلى من يؤانسها... كنت في مثل عمرها وكان لي صديقة أحبها وأدرس معها وأمضي معظم أوقاتي معها... لكني لم أضع يوماً صورتها على مكتبي... كانت صداقتنا طبيعية، الكل يتقبلها، أهلي كما أهلها كما كل المحيط الذي كنا فيه... لماذا أنا إذاً قلقة من علاقة سهام بكلير؟ هل كنت أفضل لها صديقاً؟ ... ربما ذهبت مع صديق وتحججت بكلير كي لا أقلق. هل أتصل بها وأتأكد؟ لا! لن أفعل، لن أجعلها تفقد ثقتها بي....». سمعت وقع أقدامٍ على السلم الخشبي فقالت لنفسها: «ما أسخفني وما أسخف تفكيري، ها هي تعود وأنا أتهمها بشتى الاتهامات». صمتت تترقب فتح الباب، لكن وقع الأقدام على السلم أخذ يبتعد صعوداً فنظرت إلى ساعتها: «إنها العاشرة... ستعود حتماً قبل إقفال محطات المترو، لقد اقترب الوقت». نهضت من مكانها وأخذت تتمشى في الغرفة محاولة إبعاد الأفكار السوداء عن رأسها. بعد قليل وجدت الحل بأن تأخذ كتاباً وتقرأ إلى حين تعود سهام. استرخت على مقعدها وباشرت بالقراءة فابتعدت فعلاً عن هواجسها، لكنها كانت من وقت لآخر تنظر إلى ساعتها. مضى الوقت وسهام لم تعد، رمت الكتاب من يدها وتوجهت نحو النافذة تنظر إلى الخارج: «يا إلهي لماذا تأخرت؟ ربما أصابها مكروه، ربما تعرض لها أحد في الطريق، هل أتصل بالبوليس؟ هل أتصل بكلير؟ لكن الوقت تأخر، ماذا سأفعل؟ لو كانت ستتأخر لقالت لي ذلك، لكانت اتصلت بي.. ماذا حل بها؟ هل أخرج لأبحث عنها؟ لكن أين؟».

استمرت على هذه الحال تدور في أرجاء الغرفة، تلطم وجهها وتصرخ من وقت لآخر: «يا إلهي هل أرسلتها إلى باريس

لأخسرها؟ ماذا سيحل بي إن أصابها مكروه؟ هل هرّبتها من خطر الحرب في لبنان لأرميها في خطر أدهى؟.. وقع أقدام من جديد على السلم. حبست أنفاسها وانتظرت... لم يخب ظنها هذه المرة، توقف وقع الأقدام أمام باب الغرفة ومفتاح دخل في القفل، انتابها شعور بالارتياح، لكن ما أن رأت سهام تدخل حتى انفجرت تؤنبها على فعلتها وعلى ما سببته عندها من قلق وخوف وانتهت لاعنة الساعة التي أرسلت فيها ابنتها إلى باريس، ثم ارتمت على المقعد وقالت: «والآن ما هو سبب التأخر؟ لا تقولي لي إنك كنت تدرسين مع كلير فلن أصدق ذلك، اعترفي أين كنت وإلا أعدتك غداً إلى لبنان». أمام صمت سهام اقتربت منها، أمسكتها من كتفيها وأخذت تهزها وهي تصرخ: «أنطقي أين كنت؟» وسرعان ما شمّت رائحة الكحول تفوح من أنفاس ابنتها فدفعتها بعيداً عنها: «كنت تسكرين يا عاهرة ! مع من وأين؟ أهذا هو الدرس؟ وهذه القحبة كلير أليست مريضة أم أنكما تهزآن مني؟ اعترفي الآن ما هي علاقتك بكلير؟ أنا لست غبية وما أحدس به هو حتماً صحيح يا سافلة!».

ـ إنها صديقتي.

ـ وماذا بعد؟ لماذا صورتها على مكتبك؟ لماذا كل هذه الصور للنساء العاريات على جدران غرفتك؟ أهذا ما جئنا نتعلمه في باريس؟

الأم تثور وتزبد وسهام صامتة مثل أبي الهول. أدركت أن أي محاولة دفاع عن النفس هي فاشلة وأن أمها قد فهمت كل شيء فاستمرت في ملازمة الصمت، وهذا السلوك أكّد للأم أنها على صواب في ما تفكر، فصمتت بدورها قليلاً ثم تابعت: «أنا الآن

سأتصرف. لن أتركك تغرقين في وحول باريس.غداً سأريك ما يسر خاطرك وخاطر هذه الـ... كلير». ثم توجهت إلى فراشها واستلقت. وبكل هدوء فعلت سهام مثلها وساد الصمت حتى الصباح حيث استفاقتا باكراً وذهبت سهام إلى مدرستها من دون أن تكلم أمها التي بدورها لم تكلمها.

في المدرسة لم تجد سهام صديقتها كلير، بحثت عنها عبثاً، دخلت غرفة الدرس وكلير ما زالت غائبة. زاح انتباه سهام عن كل ما يدور حولها، أصبح ذهنها مشغولاً بما يمكن أن يكون قد حدث لكلير. وما أن انتهت الساعة الأولى حتى أسرعت إلى الخارج لتتصل بصديقتها، لكنها ما أن توجهت إلى الملعب حتى شاهدت كلير جالسة على أحد المقاعد الخشبية واضعة رأسها بين يديها كأنها لا تريد أن ترى أحداً. أسرعت سهام نحوها، دنت منها وصاحت: «كلير، ما بك؟ لماذا تغيبت عن الصف؟»». لكن كلير لم تتحرك ولم تجب، ظلّت على وضعها: رأسها بين يديها وهي تنظر إلى الأرض.اقتربت منها سهام محاولة رفع وجهها نحوها، وما أن فعلت حتى رأتها تبكي وسمعتها تقول بصوت منكسر: «ابتعدي عني، أنتم شعب همج»!

حدست سهام بشيء ما، لكنها أرادت أن تتأكّد من حدسها، فصاحت بكلير: «لا أسمح لك بهذا القول، ماذا فعلنا لك حتى تتهميننا بالهمجية؟»».

ـ أنت، لا شيء، لكن اسألي أمك.

تأكدت سهام من حدسها وسألت: «هل اتصلت بك؟»».

ـ نعم، لقد اتصلت ونعتتني بكل الأوصاف القذرة وهدّدتني إن أنا

اقتربت منك أو تكلمت معك بعد الآن بأن تفعل ما لا يُفعل.

قالت ذلك وهي لا تنظر إلى وجه سهام، وأمام صمت هذه الأخيرة التي صدمها صدق حدسها، تابعت: «ألهذه الدرجة أنتم متأخرون في لبنان؟ تقولين أن أمك مثقفة وواعية جداً فما هذه الثقافة وما هذا الوعي؟ أقبل بأن تقول لي أنني سحاقية، لكن أن تنعتني بالقذارة والمرض وبتلويث ابنتها، فهذا ما لا أسمح به إطلاقاً وقد قلت لها ذلك وأجبتها بما تستأهل من أجوبة، لم أصمت. لقد أفهمتها بأنها حقيرة وبأنها تتدخل بما لا يعنيها، حتى إني نبهتها إن اتصلت بي مرة ثانية فسأحيلها على الشرطة وعلى المحكمة، لا شأن لها بحياتي، ألا تعلم ذلك؟ وأنت يا سهام فإما أن تقفي بوجه أمك *وتدافعي عن حقوقك أو اخرجي من حياتي ومن كل حركتنا التي*، كما تعلمين، تناضل في سبيلنا وفي سبيل ترسيخ حقوقنا».

أدركت سهام أن أمها تعلم كل شيء وأخذت تبحث عن وسيلة لمواجهتها وإقناعها بعكس ما تظن كي تريحها وترتاح من ملاحظاتها التي، حتماً، ستنهمر عليها بعنف كبير. نسيت كلير، انغلقت على ذاتها وعلى مشكلتها مع أمها وساد الصمت بينهما لدقائق قالت بعدها كلير: «تصمتين؟ لو كنت مكانك لذهبت الآن إلى البيت وأفهمت أمي بأنها أساءت التصرف وبأن عليها أن تعتذر مني أو انك جبانة لا تجرؤين على مواجهتها حتى ولو كان الأمر يتعلق بحياتك الخاصة التي لا دخل لأحد بها و....».

لم تتركها سهام تكمل موعظتها لأنها فهمت أنهما تفكران بطريقتين مختلفتين. هي تفكر بإبعاد الشك عن ذهن أمها وإيهامها بأن ما تفكر به هو خطأ ولا وجود له في الواقع، بينما تريدها كلير أن تؤكد لأمها حقيقة هذا الواقع وأن عليها أن لا تتدخل به لأن

الأمر لا يعنيها. وأجابت بتردد كأنها تبحث عن الكلمات الأجدى كي تفهمها كلير من دون أن تتهمها بالضعف والجبانة: «انظري، كلير، الأمر ليس سهلاً، ولا أستطيع أن أواجه أمي بهذا الموضوع لأنها ترفضه رفضاً مطلقاً. علينا أن نفهمها، إنها من بيئة مختلفة كلياً عن البيئة الباريسية. عندنا في لبنان، السحاقية منبوذة ولا تجهر بما هي عليه بل تحاول أن تخفي ذاتها، حتى إن المراقب لمجتمعنا لا يستطيع أن يتلمس وجود أي علاقة من هذا النوع، وإن وجدت فعلاً، وهي موجودة، فهي تُمارس بسرية مطلقة لا يرشح منها شيء إلى الخارج. حتى إن كل حركاتنا النسائية في لبنان لم تجرؤ على إثارة الموضوع، إنه محرم وعيب ودليل انحطاط ومرض و... على كل حال والدتي لن تبقى هنا لوقت طويل، ألا يمكنك أن تنسي الموضوع لفترة قصيرة نتابع بعدها حياتنا كما في السابق؟ نبقى أصدقاء في الوقت الحاضر وبعده...».

ـ أصدقاء؟ أنا لا أريد صداقتك، أنا أحبك والحب غير الصداقة. فإما أن نبقى كما كنا أو اخرجي من حياتي وأنا سأختار من أريد. أتعذب كي أنساك، لكني سأفعل، أنا أرفض الذل وأرفض أن أعشق جبانة.

حان وقت الدرس الثاني واضطرت سهام إلى دخول الصف، أما كلير فبقيت في الخارج. حين انتهت الحصة لم تجدها سهام في مكانها، كانت قد غادرت. حزنت لذهابها، لكنها، في الوقت نفسه استراحت لأنها كانت تريد أن تهيئ نفسها لمواجهة أمها في المساء. ماذا ستفعل؟ كيف سيكون دخولها إلى البيت؟ كيف ستكون حالة أمها وبماذا ستجيبها إن أثارت معها الموضوع؟ كلها أسئلة كانت تدور في رأس سهام التي قررت، بالنهاية، أن لا تجيب

على شيء. ستصمت وتترك أمها تقول ما تشاء، ستتركها تفرغ كل ما في داخلها، وفي النهاية تحاول أن تبدد شكوكها وأن تعيد إليها الصورة التي كانت لديها عن ابنتها المثالية العاقلة. لا تريد أن تصطدم معها وبخاصة في هذا الموضوع لأنها واثقة كل الثقة أنها الخاسرة. إذاً التكتيك يجب أن يكون التالي: إبعاد الشك عن رأس أمها والتصرف بشكل يعيد الثقة بينهما إلى إن تنضج الأمور وتصبح سهام قادرة على ممارسة ذاتها باستقلال تام عن أمها أو غيرها.

في البيت كانت أم سهام في حالة غليان، لا تصدق أن ابنتها هي هكذا. وكانت تردد من وقت لآخر: «يا للعار يا للعار». لكنها بعد فترة هدأت غضبها محاولة البحث عن الطريقة الأجدى لمواجهة ابنتها كي تخرجها مما هي فيه. قررت أولاً أن تتجاهل الموضوع وتترك سهام، التي حتما قد علمت بما حصل، تتصرف أو تتكلم أو... لكل سلوك كانت تحاول أن تجد رداً مناسباً. وما أن وصلت إلى هذا الحل حتى انتفضت وقالت لنفسها: «لا، سأُثير الموضوع وأنهيه مرة واحدة، لماذا اللف والدوران والمداورة؟ حالة من هذا النوع لا تتحمل التأجيل أو المعالجة بالإيحاءات، إنها قضية مهمة وعلي مواجهتها مباشرة كي أنتهي منها وأخلّص سهام من وحلها».
كانت تفكر بكل ذلك وهي تتمنى أن تكون على خطأ، تتمنى أن تقول لها سهام العكس، تتمنى أن تؤنبها سهام على سوء فهمها للأمور. كل ذلك أهون عليها من أن يكون الواقع حقاً كما تعتقد.
كانت تقول بصوت عالٍ: «أقبل أن تبهدلني سهام على سوء نيتي، أقبل أن تحتقرني، أقبل كل شيء إن كانت حقاً غير ما أفكر به، فلتفعل ما تشاء بي إن أثبتت لي أنها بريئة، ليتها تفعل كي أرتاح من هذا الهم».

كانت تدور في هذه الأفكار حين دخلت سهام الغرفة، فما كان منها إلا أن دخلت المطبخ قائلة: «سأحضر لك العشاء، إنه جاهز، لكنه يتطلب بعض التسخين». لم تجب سهام بل وضعت كتبها على المكتب، نظرت إلى صورة كلير التي كانت مكانها ثم توجهت نحو أمها، قبلتها كالعادة وهي تتوقع الانفجار في كل لحظة، كما أن الأم تتوقع سؤال سهام عن مكالمتها مع كلير. لكن لا أحد منهما تكلم وساد الصمت إلى أن جهز الطعام وجلستا إلى الطاولة للأكل.

صمتٌ ثقيل ساد بداية العشاء، صمت لم يعكره إلا قرقعة الملاعق والشوك والسكاكين. سكبت سهام الطعام في صحنها وبدأت تأكل ونظرها إلى الأسفل، لا تريد أن تنظر إلى أمها، وهذه الأخيرة لم تزح نظرها عن وجه سهام محاولة قراءة ما يعتلج في داخلها. طال الصمت وضاق صدر الأم فتنحنحت وقالت: «سهام أنا أعلم كل شيء وأنت تعلمين بما حدث». هزت سهام برأسها ولم تقل كلمة واحدة متابعة عشاءها، فتابعت الأم: «أكملي طعامك وبعد ذلك سنتكلم».

ـ بماذا سنتكلم؟ إنك على خطأ وما قمتِ به لم أكن أتوقعه أبداً. كان عليك أن تسأليني أولاً، فلو فعلت لكان تبدد عنك كل شك وأعفيتنا من هذه البهدلة. كانت سهام تتكلم بهدوء لتطمئن أمها إلى صحة قولها، لكن الأم وإن فرحت بما قالته ابنتها فهي لم تطمئن نهائياً وقالت:

ـ أنا أعرفك جيداً، لكن هذه الوقحة اعترفت أنها سحاقية وأنها تفتخر بذلك. هذا ما أثار غضبي وجعلني أقول لها ما قلته، وأكثر من ذلك لقد استثارتني بقولها أن لا دخل لي في حياتك أنت، فكيف تسمح لنفسها بهذا الكلام؟

ـ ربما قالت ذلك لأنك فاجأتها بمكالمتك، هي مجرد صديقة لا أكثر ولا أقل. يمكن أن تكون سحاقية كما قالت لك، لكن لا دخل لي في هذا الموضوع، على كل حال إنها حرة بشخصها وبسلوكاتها.

ـ نعم هي حرة ولا دخل لنا بها، ولكنها وإن لم تؤثر عليك حتى الآن فحتماً ستفعل لاحقاً إن أنت استمررت بمصادقتها. وتجنباً لكل مخاطرة، قررت أن أمدد إجازتي وأن أبقى معك هنا إلى أن تنهي امتحاناتك، فنعود معاً إلى لبنان وتكملين دراستك الجامعية هناك، الحرب علينا وعلى غيرنا. إن أردت الحقيقة أنا أفضل أجواء الحرب وخطرها على وحول باريس وعالمها المنحط. أنا لا أريد أن أخسرك ولا أريد لك رفقة من هذا النوع النجس، ما زلنا في لبنان نحافظ على قليل من الأخلاق وحسن السلوك، لا أريد أن تفقدك الدراسة، على أهميتها، هذه الأخلاقيات السامية التي هي أخلاق أجدادنا وأسلافنا.

كانت سهام تود أن تقول لأمها أن الموضوع لا علاقة له بالأخلاق وأن الأخلاق في لبنان ليست إلا قشرة برّانية، لكنها فضّلت الصمت وجارت أمها في تفكيرها كي تسكتها وتنهي النقاش من دون خلاف قوي بينهما. لكنها، وفي الوقت نفسه، استاءت من كون أمها ستبقى معها إلى آخر السنة وأدركت أن ذلك سينهي علاقتها بكلير، هي التي كانت تخطط لبعثها من جديد بعد ذهاب أمها، لكنها لم تثر الموضوع مكتفية بالقول:

ـ لا داعي لأن تبقي معي، أنا عاقلة بما فيه الكفاية وأستطيع أن أكون عند حسن ظنك حتى في غيابك. ثم إن إخوتي وحدهم في البيت وهم بحاجة إليك أكثر مني.

ـ لا، خالتك معهم، وأنا قرّرت البقاء وانتهى الموضوع.

ـ كما تريدين، أنا أتمنى ذلك. ثم نهضت من مكانها، اقتربت من أمها وقبلتها، فما كان من الأم إلا أن ضمتها إلى صدرها وبكت قائلة:

ـ سهام، إفهميني جيداً يا ابنتي، أحبك أكثر مما تعتقدين، ولا أقبل أن يخدش سمعتك أي شيء، فلو كنتِ، معاذ الله، مثل هذه السافلة كلير لكنت فضلت الموت على الحياة، اقتليني ولا تقولي لي أنك منهن.

أدركت سهام مدى رفض أمها لهذا الموضوع، فحزنت جداً لأنها هي، في حقيقتها، مرفوضة كلياً من أمها، لكنها كظمت حزنها وقرّرت أن تضع قناعاً على وجهها وعلى كل شخصيتها كي لا تزعجها. وتابعت الأم:

ـ حبيبتي أنا لست جاهلة ولا غريبة عن هذا الموضوع، أعلم جيداً أنه ميل قد يظهر عند البنات في مرحلة معينة من عمرهن. هذا الميل الذي يكون طبيعياً في هذه المرحلة المعينة، يصبح مرضياً إن هو استمر، وهنا يأتي دور الأهل وبخاصة الأم في استدراك الأمور وتوعية بناتهن لكي يسلكن الطريق الصحيح. أظن أن أم كلير غير مبالية، فلو كانت تهتم بابنتها لما جنحت هذه الابنة وأصبحت بهذه الوقاحة وهذا الانحطاط.

كانت سهام تريد أن تقول لأمها أن الحركات النسائية في فرنسا تدافع عن ذلك وأن الأمر لا يُنظر إليه هنا كما ينظر إليه في لبنان وفي المجتمعات العربية. لكنها قررت الصمت والموافقة على كل ما تقوله أمها وهي تشعر بأن كل الكلمات التي تصف بها أمها كلير كانت كلمات موجهة إليها هي لأنها تعرف نفسها جيداً.

ـ والآن، قالت الأم، أريدك أن تلغي صورة كلير من هذا البيت، كنت سأقوم بهذا العمل، لكني فضلت أن تقومي به أنت. انزعي هذه الصورة من وجهي، مزقيها، افعلي بها ما تشائين، لكن أخرجيها من هذا البيت.

ـ كما تريدين، سأفعل، سأعيدها إلى كلير غداً. ثم توجهت نحو الصورة، رفعتها من مكانها ووضعتها في حقيبة كتبها، فما كان من الأم إلا أن وقفت وتوجهت بسرعة نحو الحقيبة، فتحتها، أخرجت الصورة منها ومزقتها وهي تقول:

ـ أنا سأفعل إن كنت عاجزة عن ذلك، لا أريدك أن تكلمي كلير إطلاقاً، إنها مرض وعار.

صمتت سهام وهي، في داخلها، تتمزق غيظاً من أمها وكل تصرفاتها، لكنها فضلت إظهار الهدوء لإدراكها أن لا مجال للنقاش أو الكلام المعقول. وفي الوقت نفسه شعرت أنها بحاجة للقيام بعمل ما يخرجها من تأجج غضبها، فركضت إلى درج المكتب، أخرجت منه أحد المغلفات، سحبت منه صورة أمها، ووضعتها مكان صورة كلير قائلة بتوتر كبير: «هذه صورة جميلة»، ثم انفجرت بالضحك الذي كان بالفعل بكاءً، كأنها تفرغ ضغطاً لم تعد قادرة على تحمله، فما كان من الأم إلا أن قبّلت أبنتها وقالت: «كنت أود أن تضعي مكانها صورة شاب وسيم»، وانفجرت هي أيضاً بالضحك ثم قبلت ابنتها من جديد وقالت: «الآن فلننه الموضوع، أنت ابنتي التي أثق بها كما أثق بنفسي، ولكي نخرج من القصة سأدعوك إلى تناول الحلوى في أحد المقاهي، هيا فلنخرج».

خرجتا وحاولت سهام أن تأخذ أمها إلى مكان من المحال أن تتواجد فيه كلير. تناولتا الحلوى، وذهن سهام شارد تملأه كلير وما يمكن أن تكون قد فعلته وهل أنها استبدلتها بعشيقة أخرى، كما كانت تهددها دائماً حين كانت ترفض أن تقوم بعمل ما تطلبه منها كلير و...ألف سؤال وسؤال. لكنها كانت تجاري حديث أمها الذي كان يدور حول الدرس وغيره من الأمور التي كانت سهام بعيدة عنها كل البعد، ولهذا السبب كانت أجوبتها من نوع: نعم، طبعاً، معك حق الخ.

في اليوم الثاني لم تأتِ كلير إلى المدرسة، انشغل بال سهام، واتصلت بها، فأتى الجواب، من أقاربها، بأنها عادت إلى بلدتها. هنا كادت سهام أن تنهار، لكنها سألت عن عنوانها ورقم هاتفها، فأعطيت ما طلبت. دوّنته على دفتر صغير وجلست في المكان نفسه الذي رأت فيه، البارحة، كلير. وضعت رأسها بين يديها وأخذت تفكر. ثم سحبت من حقيبتها ورقة بيضاء وكتبت: «أين أنت؟ لماذا لم تأتي إلى المدرسة؟ هل أخافوك؟ هل علمت أنهم فقط ظهروا ليخيفوا وليجعلوا الشمس في حداد مستمر ويغمدوا السيف في السماء...؟ صديقتي افتقدتك، اشتقت إليك وتمنيت لو أحاكيك» وبخوف الأطفال صرخت: «وهل يمكن ألا أراك وهل يمكن أن تنتهي علاقتنا وهي في بدايتها؟ صارت بها أحلامي بيضاء، واستغفرت ربي لأول مرة حتى لا يؤذيني بك ويخطف مني ما بنيته. أنا فعلاً أحبك لأنك العشق أنت والحب أنت، وما الهدى إلا عيناك وما الأمل إلا في هواك. معك هويت العالم، معك تختلف كل القصص، معك تقترب كل اللغات. لم أفكر. لن أفكر، وكل ما يهمني الآن هو موتي وأجد اللذة في الموت... لأنك حلاوة الرحيل أود أن لا يطول غيابك لأن معه سيسافر

الشوق وأسهر مع جسدي والفكر ينتشي، يتغلغل في عطرك في حنايا شعرك، مع النجوم أكون وبصيرتي تحار أين أخبئك ليشرد القمر عن دورانه. يتدفق الندى يهدي إلي النسيم وينتحر الليل وتجتمع وإليك ترحل، لن أرسل أحداً، فسيعرفون أنك مصدر النعيم...».

رن الجرس منبهاً إلى بدء الحصة التالية، لكن سهام ظلت مكانها، حزينة حتى البكاء، لا قدرة لديها على متابعة الدروس ولا جرأة عندها للعودة إلى البيت، فقررت أن تبقى مكانها، المكان الذي شغلته كلير قبل رحيلها. ظلت هناك حتى نهاية النهار وهي تكتب على أوراقها كل ما يمر في رأسها. ثم طوت أوراقها، حملت محفظتها وتوجهت نحو بوابة المترو الذي يقلها إلى بيتها. دخلته محاولة إخفاء حزنها. رمت محفظتها على المكتب. ارتمت على الكرسي وهي تقول: «إني مرهقة جداً». دنت منها أمها، قبلتها وسألتها عن سبب تعبها، وكان الجواب: «من كثرة الدروس هذا اليوم». ولهذا السبب تريد أن تأكل بسرعة لكي تتمكن من إنهاء كل الفروض المطلوبة. هكذا أفهمت أمها بأنها لا تريد أي نقاش أو أي حديث. قبلت الأم ذلك وتصرفت بصمت كلي إلى أن أوت إلى فراشها تاركة سهام وحدها جالسة إلى مكتبها وكومة من الكتب والدفاتر أمامها، ومع هذه الكومة، صورة أمها التي بدأت تكرهها ولا تدري كيف ستمضي بقية الوقت معها.

لم تستطع سهام القيام بأي عمل، كان عقلها مشغولاً بكيفية الاتصال بكلير: هل تكتب لها رسالة تشرح فيها كل الوضع أو تتصل بها هاتفياً لتبرئ نفسها أمامها أو... ومضى قسط من الليل وهي تدور في هذه الأفكار، وما ساعدها على ذلك أن أمها كانت قد غفت وبعدت عنها ولكنها هي التي نبهتها إلى ضرورة النوم

حين صارت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وسمعت سهام صوتها يقول: «يكفي يا حبيبتي، اخلدي إلى النوم وغداً تكملين». وهذا ما فعلته سهام، أوت إلى فراشها وحاولت أن تنام.

في المدرسة، صباح اليوم التالي فوجئت سهام بقدوم كلير، فرحت بها وفي الوقت نفسه استهابت من إخبارها بما حصل معها. دنت منها، حاولت أن تقبلها وتسألها عن سبب غيابها بالأمس، فأخبرتها كلير بأنها استأجرت ستوديو بعيداً عن أقاربها وصوت أمها المزعج وأنها الآن تسكن وحدها وأن على سهام أن تقرر هل تريد أن تعيش معها أو لا. ارتبكت سهام وأخبرت كلير أن أمها ستبقى معها وأنه من المحال أن تتركها وتسكن مع صديقتها. فما كان من كلير إلا أن صرخت في وجهها: «جبانة، لا تتعاطي معي بعد الآن، أنا منذ هذه اللحظة حرة، كنت أحدس بذلك ولهذا السبب قررت تغيير سكني كي لا تعلمي أين أكون، منذ هذه الليلة سأكون مع سواك، أنت تعرفين جيداً أن «صوفي» تلاحقني وتغازلني وتريد استمالتي. كنت أتهرب منها بسببك لأنني كنت أعتقد أنك تحبينني، لكنها الآن ستصبح عشيقتي، اذهبي أنت إلى الشيطان وإلى أمك المتخلّفة».

فوجئت سهام بهذا التصرف الذي تتصوره لا يتسم بالنضج والوعي والمسؤولية. وعلى الرغم من تألمها لفقدان كلير، قررت أن تقابلها بمثل عهرها وتجبّرها، فصرخت بدورها: «أنا لست جبانة، لكني لا زلت أحترم أمي وأحترم إرادتها، وإن كنت تعتقدين أنك الفتاة الوحيدة في هذه الدنيا فأنت على خطأ وسرعان ما أجد غيرك وأغرم بها وأنساك أو بالأحرى لقد نسيتك الآن، اذهبي أنت إلى الشيطان وإلى صوفي التي تهدديني بها، الأمر ما عاد يعنيني

ولا يهمني، وستعلمين لاحقاً بأنني لست جبانة، سأعيش حياتي كما أريد ومع من أريد».

انفصلتا وكان ينتاب سهام شعوران متناقضان: هي حقاً متألمة لفقدان كلير، لكنها، في الوقت نفسه، كانت تشعر بالارتياح لأنها لم تكن مقتنعة تماماً بما تقوم به معها. كانت دائماً معذبة الضمير، تتخبط بين ميولها ورغباتها وبين تربيتها وكل المناقبية التي تلقتها في البيت من أمها وفي مدرسة الراهبات في لبنان. كانت دائماً تشعر بالتمزق والأسى، تمارس ما تميل إليه طبيعياً وتلوم نفسها بعد ذلك على هذه الممارسة المتناقضة مع تربيتها. كانت تسأل نفسها باستمرار هل هي هكذا لأنها تريد بلاوعيها أن تنتقم مما حدث معها مرة منذ عدة سنوات أو أنها هي فعلاً هكذا، وكانت دائماً عاجزة عن الإجابة.

انفصلتا وظنت سهام أن هذا الانفصال سينهي تمزقها ويردها إلى ما تسميه أمها الطريق الصحيح. لهذا السبب عادت إلى البيت تلك الليلة وهي فرحة، وأمها التي كانت تكرهها في الليلة الماضية أصبحت ملجأها الذي ارتمت في أحضانه كطفلة صغيرة. أعجب الأم هذا السلوك وفرحت جداً حين نزعت ليال صور النساء العاريات عن الجدران وراحت تدلل ابنتها وتقوم بكل ما تطلبه منها. من جهتها قررت سهام أن تعاشر الشبان وأن تهرب من ذاتها فأصبحت تخرج مع رفاقها في الصف وتدعوهم إلى البيت، لكن لم يستهوها أحد منهم، كانوا بالنسبة إليها مجرد زملاء ليس إلا. كانت من وقت لآخر تطرح السؤال على نفسها وتجيب بأن العشق لا يأتي هكذا، ربما التقت أحد الرجال، لاحقا، وأغرمت به كما يحدث مع الفتيات عادة. لكنها كانت تعلم جيداً أن لا ميل عندها

تجاههم. كانت تحاول أن تتجاهل الموضوع واستمرت على هذه الحال إلى أن عادت مع أمها إلى لبنان بعد أن نجحت بنيل الشهادة التي تخولها دخول الجامعة.

- ٤ -

مضى الصيف وسهام غارقة في قراءات تبحث فيها عن ذاتها وعن حقيقة ميولها. اكتشفت «سافو» الشاعرة اليونانية فأُعجبت بشخصيتها وكتاباتها، اكتشفت «جورج ساند» الفرنسية وأُغرمت بها. كانت تقرأ وتكتب الشعر وأحياناً تقرأ شعرها على أمها، وهذه تشجعها لأنها لمست في ابنتها موهبة شعرية رفيعة، لكنها، وإن اكتشفت هذه الناحية، كانت عاجزة عن فك كل ألغازها؛ فالقارئ المتنور يستطيع أن يكتشف في شعر سهام كل ميولها الدفينة التي كانت تحاول إخفاءها من دون أن تنجح دائماً في ذلك، فكل كتاباتها كانت نوعاً من مناجاة العنصر الأنثوي في الطبيعة أو في الإنسان أو في الأشياء أو...

كانت سهام تعبر، في كتاباتها، عن مشاعرها من دون أن تراقب ذاتها جيداً. لذلك كان يرشح هذا الميل الدفين الذي كانت قد قررت أن تلغيه لكي تباشر حياة جديدة. كانت تقول لنفسها: «انتهت مرحلة باريس، سألغيها من حياتي، سأضعها بين مزدوجين مقفلين إلى الأبد، سأدفن معها سري الذي لا يعلم به أحد سوى من أخذه معه إلى القبر، سأنطلق من اللحظة التي تركت فيها لبنان وكأنني لم أتركه يوماً، أنا الآن امرأة ناضجة وسأتصرف على هذا الأساس، لن أترك أحداً، بعد الآن، يتكلم عني، أنا من سيروي عن حالي».

حين فتحت الجامعة أبوابها كانت سهام مهيأة لأخذ الكلام، وهذا

ما فعلته. حاولت أن تعود بالذاكرة إلى ماضيها البعيد وظهرت أمامها صورة تلك المعلمة في المرحلة الابتدائية وبدأ الكلام:

«لم يحدث شيء محدّد بيننا وكل ما أذكره من تلك المرحلة هو ذلك الشعور المبهم إلى أن دخلتُ الجامعة وبدأتْ قصّتي، بل علاقتي *الجديّة، تلك العلاقة التي من خلالها اكتشفت حقيقة ذاتي* وحقيقة ميولي ورغباتي وربما تكويني النفسي».

«كنا في بداية السنة الدراسية، دخلنا قاعة المحاضرات ننتظر الدكتورة نور. دخلت نور بكل جدّية تحمل ملفّاً واتجهت نحو المنبر من دون أن تنظر إلى أحد. وضعت الملف على المكتب، جلست على كرسيها، رفعت رأسها وجالت بنظرها على الجميع. هي فعلت ذلك، أما أنا فتجمدتُ مكاني أراقبها، ولم أنتبه إلى ذاتي إلا حين اختلطت في رأسي صور عديدة: صورة الدكتورة نور وصورة المعلمة الابتدائية تتوسّطهما صورة أمي وظهرت صورة كلير كلمع البرق ثم اختفت. هل كانت تنظر إليّ؟ هل قرأت الدهشة على وجهي؟ لا أعلم، كل ما أعرفه أنها استقطبت كل انتباهي، بل كل مشاعري وأحاسيسي ووجدتُ نفسي أقول: «هذه هي، لقد وجدت ما أريد». ومضت تلك الساعة التي ما عدت أذكر منها إلا صوتي المرتبك وأنا ألفظ اسمي حين نظرت إليّ تسألني عنه. لم تفعل ذلك معي وحدي، لقد سألت كل واحد بدوره عن اسمه ودوّنت كل الأسماء على ورقة أمامها. فكّرتُ حينها أنها تفعل كل ذلك لأنها تريد أن تعرف اسمي أنا. هل ابتسمت فعلاً وهي تكتب اسمي كما تراءى لي؟ أعتقد الآن أنها ابتسمت فعلاً، لأن ما حصل، لاحقاً، بيننا يؤكّد لي ذلك».

هنا أخذتْ سهام تتذكّر تفاصيل وجه وجسد نور، وهي تعرف أن

وصفها لها غير مجرّد ولا حيادي. نور امرأة في منتصف العقد الخامس من عمرها، عيناها زرقاوان، شعرها قصير ولونه يميل إلى الأشقر المحمرّ، تقاسيم وجهها ناعمة، لا نتوءات فيها، يكسو بشرتها قليل من النمش الذي يعطي لطلعتها نوعاً من الجاذبية. تخرج سهام من الذاكرة وتقول: «أعلم تماماً أن تلك الجاذبية، كنت أشعر بها حيال كل تفصيل من تفاصيل تركيبتها الجسدية، ربما لأنني اكتشفت لاحقاً أن ذلك النمش العسلي اللون كان منتشراً على كل جسدها، حتى في الأماكن الحساسة حيث كانت تنقلب تلك الجاذبية إلى رغبة جنسية واضحة». وتعود إلى صورة نور فترى قامتها المعتدلة المائلة إلى القصر وهنا تقول بصوت عالٍ: «ولكنها متّسقة و...باختصار شديد إنها جميلة جداً». تصمت قليلاً ثم تتابع تفكيرها: «هل جمالها هو الذي شدّني إليها؟ لا! أعلم ذلك، كنت أراها جميلة لأنها حرّكت كل كياني واستحضرت كل ماضيّ وكل مشاعري التي عشتها مع تلك المعلمة الابتدائية ومع كلير التي تنبعث صورتها دائماً مهما حاولت إلغاءها، وأيقظت في داخلي ذلك الشعور الملتبس وأنا جالسة بالقرب من أمي وهي تدلك، بنعومة، عضلات عنقي وظهري. أحببتها فعلاً، لكن كيف بدأت علاقتي بها ومتى؟ هل أعتبر أنها بدأت حين رافقتها إلى بيتها للمرة الأولى حيث لم يحدث أي شيء بيننا إلا ملامسة يدها ليدي وهي تقدّم لي القهوة؟ لا، علاقتي بها بدأت حين رأيتها للمرة الأولى وهي تدخل علينا في قاعة المحاضرات في الجامعة. علاقتي بها سبقت علاقتها بي، لكنها استجابت بسرعة وهكذا بدأت قصتنا. هذه القصة التي لم أخرج منها بعد ولن أخرج منها قبل أن أثأر من تلك الخائنة، التي تركتني لتذهب مع ذلك «الخنزير». لماذا فعلتْ؟ علاقتنا كانت على أحسن

وجه، من أين أتى ليخطفها مني؟ ألم تكفه أختها التي هي زوجته الشرعية؟ أيريد امتلاك الأختين معاً؟ وكيف رضيتْ، هي، معه؟ لقد استأجر لها شقةً في بيروت، وهما، الآن يلتقيان فيها. هل تظن أن الأمر سيبقى سراً؟ لا! سأفضح أمرها أمام الجميع... لم تُظهر يوماً أنها غير مرتاحة لعلاقتنا، بل على العكس من ذلك، كانت هي التي تطلب مني أن أمارس ما ينعش نهمها الجنسي. هل سيشبعها هذا الذكر الذي فضّلته علي؟ لقد قالت مراراً أنها لا تحب الرجال، فما دهاها؟ وهو لماذا تدخّل في حياتها؟ ألكي ينقذها مني، كما يدعي؟ هل هي قاصرة؟ إنها تكبرني بعشرات السنين وهي التي استدرجتني إلى بيتها وشجّعتني على ممارسة ميولي معها. شجعتني نعم، ولكني، أنا أيضاً، كنت معجبة بها، بشكلها، بأنوثتها، بنعومتها، بدفء حضنها ومطواعيتها أمام متطلباتي. هل استعملتني لغرضٍ ما ثم رمتني حين شبعت مني؟ لماذا هي ضعيفة مع صهرها، زوج أختها؟ هل تخاف أن يفضح أمر علاقتها بي أمام أهلها؟ هل قايضت علاقتها بي بصمته؟ ألا تدري أنه يبتزها بهذه الطريقة؟ لا أعتقد، لقد قالت لي أنها تحبه وأن علاقتنا أصبحت عائقاً في طريق حبها له لأنه يرفض أن أقاسمه إياها. نعم، قالت ذلك بكل برودة ووقاحة. لكني سأحرق قلبها، سأستبدلها بأجمل منها، سأستبدلها بامرأة يشهد الكل لأنوثتها وجمالها وذكائها أيضاً. لقد اخترت، واختياري هو الدكتورة ليال التي طالما استرعت انتباهي في أجواء الجامعة. سأتصل بها، لقد حصلتُ على رقم هاتفها، سأطلب منها أن أزورها بحجة التعرف إليها وطلب مساعدتها في موضوعٍ معين. حين ستعلم، تلك الخائنة، بعلاقتي الجديدة ستموت قهراً لأنها لا تحب الدكتورة ليال، بل تغار منها وتضمر لها الشر. ليال هي، فعلاً الخيار الأمثل. هكذا أصطاد

عصفورين بحجرٍ واحد؛ أختار من يعجبني فعلاً وأثأر لنفسي أجمل ثأر. هل تستجيب ليال كما استجابت نور؟ لكنها لماذا هجرتني؟ سأرسل إليها آخر كلماتي:

«يا سيدة، أمري لك الأمر والنهي، لقد طال جفاؤك، يا مطر عمري، وذبلت ورودي من قلة المورد، صارت أيامي بلا شمس وغاب عن ليالي همس القمر. أتخيل كيف كنا نسترق الهمس، وحدنا كنا نحيا، وحدنا كنا عاشقين، وحدنا كنا زهور الحب والرياحين. كنت تأتين حاملة الزاد في عينيك والماء في شفتيك، أنظر ولا أشبع وأشرب من ريقك ولا أرتوي، والقراءة في كفيك، وأخاف أن أقبلهما ويكشف أمري. منك تعلمت لغة الأهداب. كان لقاؤنا الأول عرساً طافت فيه الجواري والحوريات. لم تكن أقدامنا تلامس الأرض، كنا معلقتين ما بين الخيال والواقع، طرنا عالياً وسبقنا أحلامنا، حتى امتلأنا لذة، وشبعنا».

أوقفت كتابتها: «لماذا أطارد الماضي؟ علي أن أتصل بالدكتورة ليال.»

- ٥ -

ترددت سهام في طريقة الاتصال بليال وفكرت أنه من الأفضل لها أن تنتظرها في الجامعة، لكن كيف تقترب منها وتخاطبها من دون سابق معرفة؟ هي، حتماً سترد السلام وتتابع سيرها كما تفعل مع طلابها. وإن تجرأت ودنت منها محاولة إيقافها لأمر مهم، فهل ستستطيع تمالك نفسها وإخفاء اضطرابها؟ ربما كشفتْ ليال أمرها واستبعدتها. «لكني أرى طالباتها يستوقفنها، أحياناً، ويسايرنها، وأراها، من بعيد تبتسم لهن وتكلمهن بكل بساطة. علي أن أفعل مثلهن. لكني لست من طلابها وستستغرب مسايرتي لها. لا!

طريقتي هذه ليست جيدة، من الأفضل لي أن أمهد لما أبتغي بطريقة ذكية...» وأخذت تفكر وتكلم ذاتها:

«غداً سأدخل القاعة التي تحاضر فيها وسأجلس في الصفوف الأمامية كي تراني وتعتقد أني من طلاب القسم الذي تدرِّس فيه. وإذا سمحتْ لنا بطرح الأسئلة سأبادر، كي تجيبني وتنظر إلي وتعلق صورتي في ذاكرتها، هكذا لن ترفض الكلام معي خارج الصف. ربما انتظرتها إلى حين تنتهي من محاضرتها وطلبتُ منها أن ندخل مقهى الكلية كي أعرض عليها مشكلة معينة، أحاول أن أشعرها بأنها مهمة. لن ترفض طلبي، لأنها، كما سمعت من طلابها، قريبة منهم ولا تعاملهم بطريقة فوقية، بل على العكس من ذلك، تُشعرهم بأنها حاضرة لكل مساعدة إذا طُلب منها ذلك. وإن نجحت محاولتي، فما هي المشكلة التي سأطلب مساعدتها في حلها؟ لعن الله تلك الخائنة، لم أكن بحاجة إلى كل هذه التحضيرات معها وذلك على الرغم من أنها كانت أستاذتي قبل أن تكون عشيقتي. هل ما زلت أشتاق إليها؟ لا أخادع نفسي، أشتاق إليها، إلى لمساتها، إلى جسدها العاري تحت قميصها الشفاف، إلى قبلاتها، إلى نعومة ملمسها، إلى انصياعها لكل رغباتي، هي التي كانت تأمر وتنهى في الصف. كنا ندخل شقتها فتنقلب الآية، أصبح، أنا، السيد وتصبح هي، الجارية. تحضر العشاء بعد أن تخلع ثيابها وترتدي ذلك القميص الأزرق الذي يستثيرني، أقترب منها أداعب حلمات ثدييها وهي تفرم الخضار أو تغسلها، تدير وجهها نحوي، تقبلني على ثغري وتطلب مني، بكل لطف، أن أمهلها كي تنتهي من عملها وتقول مبتسمةً: «لدينا كل الوقت». أبتعد عنها وأحاول مساعدتها قبل أن ننتقل معاً إلى تلك الكنبة العريضة،

في صالون شقتها، تلك الكنبة التي ما زالت تشهد لكل ما فعلناه معاً والتي ما زالت تنضح بعرق جسدينا. لا، لن أنتظر الغد، سأتصل بالدكتورة ليال هذه الليلة بالذات».

«لماذا أتردد في الكلام معها؟ سأرفع سماعة الهاتف وأطلب رقمها»، وحين سمعت صوت ليال: «ألو» ثم ردّدتْ: «ألو من؟» ثم انتظرتْ قليلاً وأعادتْ: «ألو من؟» أصاب سهام الجمود ولم تنطق بأية كلمة، فأقفلت ليال الهاتف وظلت سهام تمسك بالسماعة الملاصقة لأذنها، لكنها أقفلت الخط بإصبع من اليد الثانية وأعادت طلب رقم ليال من جديد. تكرّرتْ العملية من دون أن تجسر سهام على الكلام، وحين سمعت ليال تقول: «زعران يريدون التسلية ». سارعت إلى إقفال الخط. تمثلت أنها تراها وتنعتها بما تفوهتْ به وأحست أنها ستنكشف أمامها. لكنها قررت أن لا تنام قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تحدد موعداً مع ليال. انتظرت أكثر من نصف ساعة وطلبتها من جديد، انتظرت كي لا تربط ليال بينها وبين من وصفتهم بالزعران. رن جرس الهاتف في بيت ليال مرات عديدة، كادت خلالها سهام أن تفقد صبرها وأملها، لكن ليال، أخيراً أجابت وسارعت سهام إلى مكالمتها قائلة بأنها تريد الدكتورة ليال. «أنا هي» أجابت بلهجة حاسمة «من يريدها؟». ارتبكت سهام وتساءلت: «ماذا أقول لها؟ لن أكذب عليها»، قرّرت ذلك وأجابت: «أنا سهام، طالبة في الجامعة، أنت لا تعرفينني، لكني أعرفك جيداً ومعجبة بك، هل تسمحين لي بزيارتك للتعرف بك عن قرب؟». وحين سمعتها تتساءل: «سهام؟» لم تتركها تفكر طويلاً، بل سارعت إلى القول من جديد، أنها لا تعرفها وأن الأمر طبيعي لأن الأستاذ، عادة، لا يعرف كل الطلاب، بينما الطالب

يعرف كل الأساتذة. صمتت ليال كأنها تبحث عن جواب أو كأنها ترتاب في أمر من يطلبها بهذه الطريقة، فتبادرت إلى ذهن سهام فكرة التقطتها بسرعة لأنها وجدت فيها الحجة المقنعة، ومن دون تفكير مطول سارعت إلى القول: «أريد زيارتك لأني أعمل في مجلة «الحسناء» وأود لو أحصل على مقابلة معك وأخذ حديث منك لكي أنشره في هذه المجلة». حين أتى جواب ليال بأنها تفضل أن تلتقيا أولاً في الجامعة، أدركت سهام أنها لم تصدق قولها، وتمثلتها أمامها ترى الاحمرار الذي يصبغ وجهها، كما يحصل معها كلما لجأت إلى الكذب. «ما هذه الآلية التي يتحرك بها الجسد؟ كلما حاولت ألا يعبق وجهي زاد احمراره وعبق أكثر». لكنها خرجت بسرعة من وهم أن ليال تراها وسألتها: «متى تريدين أن نلتقي؟». وأتى الموعد في الغد بعد الساعة الرابعة.

- ٦ -

عادت ليال إلى كتابها ثم خلدت إلى النوم وكان ما زال الليل ساكناً لا يعكّر صفوه إلا أصوات رصاص بعيد ومتقطع وهذا يعني أن لا معارك في العاصمة ويستطيع الناس أن يناموا في أسرتهم.أما سهام فقد تيقظت ولم تستطع النوم وهي تفكر بلقاء الغد وأهدافه، وأخذت تحدث نفسها وتحضر أسئلتها.

أتى الغد ودخلت ليال قاعة المحاضرات، كالعادة، من دون أن تنتبه إلى وجوه الطلاب أمامها. والطلاب في الجامعة التي تدرس فيها ليال لا يحضرون كل الدروس لأن الحضور غير إلزامي، لهذا السبب تتبدل هذه الوجوه باستمرار ولا يعلق منها في ذاكرة الأستاذ إلا وجوه المداومين على الحضور، وهم قلة. دخلت وأخذت تحاضر، ثم فتحت باب النقاش حول موضوع معين، وإذ

بصبية، كانت ليال تراها للمرة الأولى ترفع إصبعها طالبة الكلام، نظرت إليها ليال وابتسمت قائلة: «إنك تحضرين، على ما أظن للمرة الأولى، فكيف تستطيعين مناقشة موضوع أمضينا أكثر من شهر في عرضه وشرحه؟». وقفت الصبية وقالت: «إن كنت لا تريدين أن أسأل فسأصمت وأسمع، لكن لدي بعض الأسئلة حول الموضوع الذي عولج اليوم فهل تسمحين لي بطرحها؟».

نظرت ليال إلى الطلاب الآخرين وسألت إن كان أحد منهم يريد الكلام فصمت الجميع. أمام هذا الصمت الذي يعني أن الطلاب لا يريدون النقاش، توجهت ليال إلى الصبية وطلبت منها أن تسأل، ففعلت ودار حوار بينهما، لاحظت ليال، من خلاله، أن الصبية تحاول عرض معلوماتها من دون أن تلامس الموضوع المحدد، فقالت لها ذلك وأسكتتها. كان وقت الدرس قد شارف على الانتهاء فقالت ليال للطلاب: «تستطيعون الانصراف، اذهبوا إلى بيوتكم طالما الحالة هادئة». وقف الجميع، لملموا كتبهم وأغراضهم ورحلوا بسرعة قبل أن تنتهي ليال من توضيب أوراقها ووضعها في محفظتها. حين انتهت من ترتيباتها، وجدت أمامها تلك الصبية. كانت تبتسم وهي تنظر إلى ليال التي سارعت إلى سؤالها عما تريد وماذا تنتظر.

- إني أنتظرك، كما كان الموعد بيننا، أنا سهام وأدعوك إلى تناول القهوة. نظرت ليال إلى تلك الفتاة، ثم نظرت إلى ساعتها وقالت: «فقط نصف ساعة، فأنا أريد شراء بعض الأغراض قبل العودة إلى البيت».

- كما تريدين، يكفيني أن تقبلي دعوتي ولو لدقيقة واحدة.

ضحكت ليال وتوجهتا معاً إلى مقهى الكلية، كان شبه فارغ من الطلاب. لاحظت ليال ذلك وقالت: «لقد رحل الجميع، هربوا تحسباً لإمكانية معاودة القصف والمعارك».

ـ هكذا أفضل، نستطيع أن نتكلم بهدوء. ماذا تريدين أن تشربي؟

ـ القهوة.

نادت سهام النادل وطلبت القهوة وجلستا وجهاً لوجه.

ـ إنك جميلة جداً، دكتورة ليال، هل تعلمين ذلك؟

ابتسمت ليال وقد فرحت بهذا الإطراء، لكنها لم تجب بل هزت برأسها وهي تنظر إلى سهام التي ارتبكت وأخذت تنظر إلى الأرض كأنها ارتكبت خطأً ما، فأنقذتها ليال من ارتباكها وسألت: «هيا ما الحديث الذي تريدينه للمجلة؟ وهل حضّرت أسئلتك؟».

احمرّت سهام وشعرت أن كذبتها بدأت تتكشّف، فلجأت إلى الهروب إلى الأمام وقالت: «أنا لا أشتغل في مجلة، قلت لك ذلك لأنني أريد أن أجلس معك وأن أراك من قريب، فأنا فقط معجبة بك».

ابتسمت ليال وصمتت للحظة دارت خلالها في ذهنها أمور عديدة. ثم نظرت إلى سهام، حدقت في وجهها وهي تحدس بشيء ما، أما سهام فبادرت إلى القول وهي متلعثمة: «هل يزعجك ذلك؟».

ـ لا! لكن ماذا تريدين؟

ـ أريد أن أكون صديقتك فهل تقبلينني؟

ـ وما هو المطلوب؟

ـ أن تسمحي لي بزيارتك ورؤيتك من وقت لآخر.

خطر ببال ليال، للوهلة الأولى، أن سهام تعاني من نقصٍ عاطفي وتريد اللجوء إليها لتسد هذا النقص، أو أنها جاسوسة تعمل لصالح إحدى المنظمات، فسألتها:

ـ هل تعيشين وحدك؟

ـ لا، أعيش مع أمي وإخوتي، وتابعت، ظناً منها أن ليال بدأت تتجاوب مع ما تريد، إذ رأت أن سؤالها الأخير يدل على ذلك، «لكنني أستطيع الخروج من البيت متى أريد».

ـ أليس لديك أصدقاء؟

ـ كان لي صديقة هي أستاذتي، لكنها تركتني فجأة وما عادت تريد رؤيتي.

ـ لماذا؟ ماذا فعلتِ لها؟

ـ لا لشيء، وحتى الآن لم أفهم لماذا تركتني. ثم صمتت وبدا الأسى على وجهها. لاحظت ليال أنها تتألم فسألتها:

ـ وهل يؤلمك ذلك؟

ـ أكثر مما تتصورين. قالت ذلك وهي تنظر إلى فنجان القهوة أمامها، وبعد صمت قصير رفعت الفنجان إلى شفتيها وهي تتمتم: «الخائنة، نعم تركتني».

حين سمعت ليال هذا القول، اعتقدت أنها فهمت كل وضع سهام وتساءلت هل تجابهها بالحقيقة التي اكتشفتها أم أنها تتجاهل الموضوع وتنسحب. وقبل أن تغوص أكثر في أسئلتها، قالت سهام:

ـ ألا تتألمين أنت، إن خانك صديق أو صديقة؟ ألا تفكرين بعد ذلك بالثأر؟

ـ ربما تألمت وقد حصل معي ذلك، لكني لا أفكر بالثأر لأنني لا أعتبر الأمر خيانة، فإن كان أحد لا يريد صداقتي فهو حر لأن الصداقة لا تفرض فرضاً و.. وقبل أن تنهي كلامها قالت سهام:

ـ أنا لم أفرض نفسي عليها، صحيح أني كنت معجبة بها، لكنها هي التي بادرت، هي التي أخذتني إلى بيتها، هي التي جعلتني أتعلق بها، وبعد أن ملكتني فعلاً واستغلتني حتى النهاية، رمتني، نعم رمتني من دون أن تقدِّر وقع ذلك علي. إنها جبانة. أنا أعرف جيداً أنها ما زالت تحبني ولو تُرِك الأمر لها وحدها لما تخلَّت عني. أنا متأكدة، لكنهم ضغطوا عليها، هدَّدوها.

عند هذا الحد من الكلام تأكدت ليال من حدسها وقررت أن تواجه سهام بصراحتها المعتادة، وقالت: «سهام انظري إلي جيداً، أنا لست موضوعاً للنقلة Transfert. وأنا لست مثل أستاذتك، فما كان بينكما لن يكون بيننا لأنني لست «منهن»، وأنت تفهمين ماذا أقصد. أقول ذلك من دون أي تقييم أخلاقي لأني أعتبر أن موضوعاً كهذا لا يعالج من باب الأخلاق».

تجمد الدم في عروق سهام، فهي لم تنتظر أن ينفضح أمرها بهذه السهولة. لكنها شعرت أنها لا تستطيع التهرب، لقد كشفتها ليال ولم تساير في ذلك، لقد وضعت إصبعها على الجرح ولذلك قررت أن تستسلم وتعترف، وأتى اعترافها بشكل تبرير وتبرئة لسلوكها الحالي، هي لا تقصد النقلة (التي كانت تقصدها فعلاً) بل هي تريد الصداقة فقط، الصداقة البريئة والمساعدة إذا أرادت ليال ذلك.

صمتت قليلاً ثم تابعت: «لم ألجأ إليك إلا لأنني عرفت من طلابك كم أنت منفتحة الذهن وقادرة على معالجة مثل هذه الأمور».

كانت سهام تطلب المساعدة علها، بهذه الطريقة، تصل إلى غايتها، فهي، فعلاً، معجبة بليال. صحيح أنها لم تكن مشدودة إليها في السابق، لكنها كانت دائماً تشعر أنها من النوع الذي يستثيرها وهذا ما كان يحرك غيرة أستاذتها الخائنة كما تسميها. وأمام صمت ليال قالت: «هل ترفضين مساعدتي؟».

ـ لا، لكن كيف أستطيع مساعدتك؟

ـ ساعديني لأخرج مما أنا فيه، إنني حقاً أتعذب وأريد أن أتكلم إلى أحد يستطيع أن يفهمني، أنت قادرة على ذلك، أرجوك لا تتركيني واسمحي لي بمقابلتك من وقت لآخر.

ـ لا أرفض المساعدة، لكنها ستبقى ضمن الوضوح التام منذ البداية، مفهوم؟ لا أريد لك صدمة ثانية.

ـ لا أريد غير ذلك. ثقي بي.

ـ اتفقنا.

ـ أشكرك على رحابة صدرك، لكن كيف أراك؟

ـ تعرفين أوقاتي في الجامعة، وإن احتجت إلى شيء فأنا جاهزة.

ـ ترفضين أن أزورك في البيت؟

ـ الآن نعم.

ـ إنك تستقبلين بعض الطلاب في بيتك، فهل تخافين مني؟

ـ أنا من يقرر في هذا الموضوع وأنا من يحدد الأشخاص الذين

يمكنهم زيارتي في بيتي، أجابت ليال متجاهلة سؤال سهام حول الخوف منها.

فوجئت سهام بصرامة ليال وصمتت، فما كان من ليال إلا أن وقفت، استودعتها ورحلت. أما هي فبقيت لوقت قصير وحدها في المقهى، كانت بحاجة إلى هذا الوقت كي ترتب أفكارها قبل الانصراف.

- ٧ -

ركبت ليال سيارتها وتوجهت إلى بيتها. قبل الوصول توقفت عند أحد الدكاكين، اشترت أغراضها، وتابعت طريقها وهي تفكر بما ستحضره للعشاء لأنها كانت جائعة بعد ساعات متواصلة من التدريس. كانت تفكر بذلك لأنها تسكن وحدها في بناية يسكن شققها الأخرى عائلات لا تعرف عنها شيئاً.

في إحدى تلك الشقق كانت تسكن ميمي مع زوجها وأولادها، وميمي امرأة صبية، لا تعمل، بل تهتم بأمور عائلتها وتقوم بزيارة بعض الجارات في فترة غياب زوجها. قبل وصول ليال إلى البيت كانت ميمي واقفة على شرفة شقتها، كانت تنظر إلى البعيد وهي تفكر بحالها وتتساءل: «لماذا كلما كنت أمارس الجنس مع زوجي فكرتُ بها؟ إني لا أعرفها جيداً، لكني متأكدة من قوة شخصيتها. لماذا تعيش وحدها لو لم تكن قادرة على ذلك ولو لم تكن تكره الرجال؟ سمعت أنها تعيش مع صديقٍ لها، لكنها في أغلب الأحيان تكون وحدها. إنها امرأة جميلة، الكل يرى ذلك، وأنا أراها جميلة، لكن شخصيتها تستثيرني أكثر من شكلها الخارجي الذي تتأنق به، أحياناً أكثر من اللزوم. صوتها العريض يعجبني. هل أميل إليها؟ هل أستطيع الوصول إليها؟ جارتي الأرملة، مللتها، إنها

تمارس الجنس بطريقة واحدة، ما عادت تثير رغبتي، حتى أني كلما كنت معها، وهي تداعب جسدي وتحاول إشباعي وإشباع ذاتها، بلمساتها وتصرفاتها، أفكر، أنا، بليال، وأتمنى لو كانت هي التي تمارس الجنس معي. ثم إن هذه الجارة التي أصبحت عجوزاً، لماذا تغار من ليال وتنزعج كلما ذكرتُ أسمها أمامها؟ ليال هي أيضاً جارتي، سأحاول الوصول إليها، سأزورها وأدعوها لزيارتي. الزيارات واجبة بين الجيران، لا أحد سيشك بميولي نحوها وبرغبتي بها.

«أما الآن فسأراقب عودتها، سأناديها من الشرفة كي تمر بي لتناول القهوة أو غيرها. ستمر حتماً لأنني سأقول لها بأن زيارتها ستكون تشجيعاً منها لنا كي نزورها بدورنا. إن رفضتْ، فهذا يعني أنها لا تريد الاختلاط مع الجيران، وهذا أمر غير لائق، لا أظنها ستقوم به. ستزورني ولو مسايرة. بعد ذلك سأتصرف.

«هذه سيارتها تتوقف أمام البناية. ترجلت منها، حملت أغراضها وتوجهت نحو المدخل. إنها ترتدي سروالاً وقميصاً، كالرجال. شعرها مرفوع كأنه مقصوص. كم يعجبني شكلها هكذا! لا أحب شعرها مسدولاً على كتفيها، ولا أحبها حين ترتدي الفساتين. إنها الآن، تماماً، كما أتصورها في أحلامي وفي موجات رغباتي. لكنها تسير بعجلة وهي تنظر إلى الأرض كأنها لا تريد أن ترى أحداً. أناديها؟ لا! أنا لست صديقتها ولا أعرفها جيداً، سيبدو الأمر مفتعلاً. آه، الكهرباء مقطوعة وستصعد السلم. سأفتح الباب وأحاول أن أكون، صدفة، بالقرب منه، وحين تصل، أدعوها كما تقضي اللياقة، كي ترتاح قليلاً قبل أن تصل إلى بيتها».

أغلقت ميمي الباب بعد أن اعتذرتْ ليال عن الدخول وعادت إلى الشرفة تراقب الأولاد يلعبون في باحة البناية «يقولون أنها متكبرة ومتعجرفة. لا أظن، لم ألاحظ ذلك، لقد كانت لائقة وأكدت لي أنها ستزورني. هل أصل معها إلى ما أريد؟ هل هي من النوع الذي أفكر به؟ هل أعجبها؟ هل تراني كما تراني جارتي الأرملة؟ لكن هل هذه الجارة، بطبيعتها تحب النساء، أم أنها تجد في شخصي إشباعاً لحاجتها الجنسية بعد موت زوجها؟ هل اختارتني لأنها لا تستطيع القيام بعلاقة مع رجل؟ وكيف إذاً تزوجت؟ هل وجود الأولاد معها في البيت هو السبب في عدم تطلعها إلى الرجال؟ هل تريد بذلك أن تحافظ على بهاء صورتها أمام أولادها وأمام الآخرين؟ على كل حال هي تتباهى أمام الناس بأنها لم تعرف الرجل بعد ترمّلها، هي التي تركها زوجها في عز صباها. وأنا أيضاً متزوجة ولدي ولدان. هل أن علاقتي بزوجي تغيرت بسبب علاقتي بها؟ لا! أنا لم أشعر يوماً باللذة معه. إني أجد معها متعة أكبر من التي أشعر بها معه. حتى أني، بعد أن تعودتها لم تعد تعني لي علاقتي بزوجي شيئاً مهماً، أنام معه كواجب ليس أكثر. بلى، أحبُ مداعباته لجسدي وأستمتع بلمساته وقبلاته قبل أن يدخلني، حينها لا أعود أشعر بشيء. لقد ساعدتني فعلاً على اكتشاف جسدي وهذا ما لم يفعله زوجي، فهو وإن حاول، بعض المرات، أن يؤخر نشوته قدر المستطاع فإنه لم يحقق عندي، ولو مرة، النشوة التي تحققها جارتي. هل يا ترى، كل المتزوجات هنّ في مثل حالتي؟ ماذا يفعلن حين لا يشبعهن أزواجهن؟ أنا أدخل الحمام، أحياناً، بعد ممارسة الجنس معه وأتابع إشباع ذاتي لأنني أشعر أن جسدي متيقظ ويرفض الاسترخاء والنوم. أما هو فيدير لي ظهره ويغط في نوم عميق، ظناً منه أني دخلت الحمام للاغتسال

فقط. لماذا لم أصرح له بحالي؟ هل يباح بمثل هذه الأحاسيس حتى إلى الزوج؟ ربما! لكنني لا أستطيع، إنه أمر يخجلني فعلاً».

- ٨ -

رن جرس الهاتف، «إنها هي حتماً». رفعت ميمي السماعة، لم يخطئ ظنها وسمعتها تسأل: «ميمي، هل أتى زوجك؟» حين قالت لها: «لا» أجابت أنها وحدها وتنتظرها. اعتذرت منها ميمي لأن وقت الاهتمام بالأولاد قد حان. ولكي لا تزورها هذه الليلة، قالت لها بأنها ستراها غداً. أقفلت سماعة الهاتف، نادت الأولاد وقرّرت أن ترى ليال هذه الليلة بالذات.

عاد الأولاد إلى البيت وخرجت ليال من ذهنها. انصرفت إليهم، تراقب اغتسالهم وأكلهم وتحثهم على الاستعجال قبل أن يأتي والدهم. كانوا عند حسن ظنها، انتهوا بسرعة مما كان عليهم ودخلوا غرفتهم للدرس قليلاً قبل النوم. وعادت ليال تخطر ببالها وتغزو مخيلتها. «ماذا تراها تفعل الآن؟ إنها، حتماً تحضر طعامها. سأسبقها، أحضر التبولة بسرعة وأصعد إليها وأقدم لها صحناً، ستخجل مني وتأخذه، لن ترفضه أنا متأكدة».

طرقت باب بيت ليال وبيدها صحن التبولة. انتظرت قليلاً قبل أن تسمع حركة قرب الباب، «إنها، حتماً تنظر من الداخل لترى من الذي يطرق بابها». فتحت ليال الباب، وابتسمتْ قائلة: «أهلاً سيدة...لماذا هذا العذاب؟ لكن، أقول لك بصدق، كنت أتخايل لأحضر سلطة تشبه التبولة، فكم حدسك صائب»! «شجعها كلام ليال، شعرت بأنها لا تتطفل على عالمها وخرج من فمها كلام مجاملة عفوية سمعت بعدها ليال تقول: «أرجوك ادخلي». وأجابتها: «ألا من إزعاج؟»».

ـ بالتأكيد لا، الآن وقت للراحة قبل أن أبدأ عملي المسائي، وتابعت: تفضلي، وهي تضع يدها على كتف ميمي التي رأت نفسها في بيت ليال جالسة قبالتها لا تعرف كيف تتصرف. لكن ليال سارعت إلى سؤالها عن زوجها وأولادها، فبددت تلبكها وأشعرتها بالراحة حتى أنها كادت تنسى أن الأولاد وحدهم في البيت وأن عليها أن تعود إليهم بسرعة. حين تذكرت ذلك اعتذرت من ليال التي ألحت عليها بأن تبقى وتتناول القهوة، ثم رافقتها إلى الباب وهي تبتسم وتشكرها على ما قدمت لها لأنها أراحتها، تلك الليلة، من لبكة تحضير العشاء. فاجتاحت ميمي موجة من الحماسة وأجابتها من دون تفكير بأنها جاهزة لأن تحضر لها ما تريد، وإن كانت تحب نوعاً معيناً من الطعام، فإنها دائماً في البيت وتحضر كل يوم الطعام لزوجها وأولادها «ولا يزعجني إطلاقاً إن حسبتُ حسابك معنا». حين أجابتها ليال بأن لا داعي لذلك لأنها لا تهتم كثيراً بالأكل، خجلت ميمي من نفسها وعادت إلى البيت متسائلة هل أن ليال لاحظت عليها شيئاً معيناً.

«إنها، فعلاً، كما تصورتها، لائقة متواضعة وعفوية، لا كما وصفتها لي تلك العجوز. لقد قالت لي، ومن دون مقدمات، أني جميلة. هل هذا يعني أني أعجبها؟ لكنها لو كانت مهتمة بي، لعرفت اسمي. هل يعقل ألا تعرفه وهي تسكن البناية منذ أكثر من ثلاث سنوات. هل هي مشغولة جداً، كما ادعت أم أنها تريد بزعمها هذا، أن تبتعد عن الآخرين؟ ربما كان لها علاقات لا تريدنا أن نعرفها. بالحقيقة، زوارها كثر، منهم الرجال ومنهم النساء، والرجال، أحياناً، يأتون وحدهم ويمكثون طويلاً عندها. لماذا لا تتزوج؟ لا ينقصها شيء إطلاقاً. تقول أنها مرتاحة هكذا على الرغم من أنها تقوم بدور المرأة ودور الرجل معاً. إنها تعمل في الخارج

كالرجل وتقوم بكل ما يتطلبه البيت، فماذا تعني هذه الراحة إذاً؟ لا تريد أن يتدخل أحد في شؤونها، هل هذا صحيح أم أنها لا تحب الرجال؟ إنها حتماً، ترفضهم وإلا لما عاشت وحدها. وصديقها، لماذا لا تتزوج به؟ لا أظنه، هو، يقبل، فشخصيتها تشبه شخصية الرجال، لا أعتقد أن رجلاً يختار مثلها زوجة له، ربما أمضى الوقت معها ورحل».

فجأة توقف ذهنها عن الدوران حول ليال وشخصيتها، إذ فُتح الباب ودخل زوجها فريد الذي نقلها إلى أجواء أخرى، هي أيضاً لم تدم طويلاً، إذ أتت جارتها الأرملة، متجاهلة قول ميمي لها بأنها ستراها غداً، لتمضية السهرة معهم. لم تستقبلها ميمي كالعادة، كانت ما زالت مملوءة بتساؤلاتها حول ليال. لاحظت الجارة تغيرها وسألتها إن كانت تشكو من ألم ما وهل أنها على ما يرام مع زوجها، وهي لا تود، حقاً أن يكون الأمر كذلك لأنها لا تحبه أو ربما كانت تغار منه وتعتبره غريمها في علاقتها مع ميمي. أما هو فكان يحترمها ويعتبرها كأمٍ لزوجته، ذلك بسبب سنها وخبرتها، ويعتقد أن رفقتها لها هي في صالح ميمي لأنها سترشدها إلى الطريق السليم. كانت هي، في الظاهر، تمارس هذا الدور إذ تكثر من نصائحها لميمي أمامه وتصر على تعليمها كل أنواع الطبخ في غيابه. ثم إنها كانت موضوع تقديرٍ من قبله لأنها لم تتزوج بعد موت زوجها، وبعد مرور كل هذه السنين على ترملها لم يحدث أن سمع أحد عنها أي شيء يُسيء إلى سمعتها وبخاصة بما يتعلق بالرجال.

حين أجابتها ميمي بأنها بخير، ارتاحت وبدأت أسئلتها العادية حول ما فعلته في ذلك اليوم.

ـ لم أقم بعمل جديد سوى أني تعرفت إلى السيدة ليال، أجابت ميمي

وما أن سمعت العجوز اسم ليال حتى تغيرت نبرة صوتها الذي قال:

ـ هذه المتكبرة التي لا تكلم أحداً؟ هل تواضعت وزارتك أم أنك أنت التي زرتها كي تضاعفي غرورها؟

ـ أنا زرتها. فانتفضت الجارة وقالت:

ـ لماذا فعلتِ؟ إنها تسكن البناية منذ زمن بعيد وحتى الآن لم تتنازل وتزر أحداً، إنها... ولم تتابع بل أخذت تهز برأسها كأنها تبحث عن كلمة لتصفها. لم تتركها ميمي تبحث طويلاً وقالت:

ـ إنها، بالحقيقة، دمثة، ومن يتعرف إليها عن قرب يغير رأيه فيها. سأعرفك بها لأنها ستزورني. سأعلمك إن فعلت.

ـ إن فعلتْ؟ ومن هي حتى لا تفعل؟ لا! أمرها لا يهمني إطلاقاً. إن فعلت، كما تقولين، فلا أود رؤيتها. ثم إني لا أعتقد أن زوجك سيكون مسروراً إن توطدت علاقتك بها. الستّ المصونة، تعيش بشكلٍ لا يعجب الرجال ومعاشرتك لها ستفسد علاقتك بزوجك لأنها، كما سمعت، تقف ضد الرجال وتدعو إلى تحرير المرأة. إنها امرأة معقدة لا تعرف ماذا تريد فعلاً. ألم تلاحظي أنها تستقبل مما هب ودب.

تابعت الجارة كلامها وميمي تراقبها. كانت تحاول إخفاء غيرتها ولم تستطع. أدركت ميمي أنها فهمتْ قصدها من التقرب من ليال، ولهذا السبب تمادت في كلامها القاسي، ولما شعرت بأن ميمي غير مقتنعة بما تقول، توجهت إلى زوجها تسأله إن كان

يعرف الست ليال وما هو رأيه فيها. كان الزوج يتابع الأخبار على التلفزيون ولم يسمع كل حديثهما السابق، فأجابها بأنه يعرف أنها أستاذة في الجامعة وأنها جميلة ومنزوية لا تعاشر أحداً وتابع:

ـ إنها حرة، لها عالمها أو ربما كانت طبيعة عملها تفرض عليها هذا النمط من العيش. وأنهى كلامه بالجملة المعتادة عنده: «ما لنا ولها، إنها لا تزعج أحداً ولا أحد يشكو منها».

لكن الجارة لم تفهم أنه يرفض الاسترسال في هذا الموضوع فسألته من جديد:

ـ وهل يعجبك هذا النوع من النساء؟ وأتى جوابه في الاتجاه الذي تريد إذ قال:

ـ بكل صراحة، لا! إنها جميلة فعلاً ويمكن أن تعجب الرجال لكني أنا شخصياً، لا أحب النساء القويات. المسترجلات. على كل حال لكلٍ منا حياته وطبائعه وهو حر بها.

أما الجارة التي انقشع وجهها عن ابتسامة عريضة استلمت الحديث. هي، أيضاً ترى أن الست ليال مسترجلة، أعجبها هذا الوصف وتمادت لتثبته بالملموس إذ ذكّرت فريد كيف كانت ليال تناقش موضوع البناية، في الاجتماع الأخير وتابعت:

ـ حتى أنتم الرجال عجزتم عن إقناعها ببعض الأمور. إنها، حقاً، قوية وحتى وقحة. وكي لا تطيل الكلام قال الزوج:

ـ على الرغم من احترامي لشخصيتها، أنا لا أحب أن تكون المرأة مثلها، أفضل أن تكون المرأة ناعمة وصامتة و...، نظر إلى ميمي وابتسم،... و«غنوجة» مثل ميمي حبيبتي.

استدارت الجارة نحو ميمي وهي تجلس بالقرب منها، واستطاعت ميمي أن تقرأ على وجهها ذلك الشعور المتناقض الذي تجلى بابتسامة شامتة وتقلصٍ لعضلات خديها الذي يعني غيرتها المكبوتة من الزوج. لكن الجارة لم تترك لها الوقت كي تكمل قراءتها وتخميناتها إذ عبرت بالكلام عن شعورها وقالت:

ـ هل رأيتِ، إني على حق، ثم توجهت إلى فريد وتابعت: «وأنا أيضاً أفضل شخصية ميمي، فهي، حقاً ناعمة وست بكل معنى الكلمة، كل من يراها يحبها ويعجب بها». كانت تمسّد شعر ميمي وهي تتكلم، ففاجأها الزوج بِـ: «لا»! قالها بصوت مرتفع وتابع مازحاً: «إن أحبها الجميع فهذه كارثة». انتفضت العجوز كأن أفعى لسعتها وأجابت: «لا تفهمني خطأً، أنا أحب ميمي كابنتي ليس أكثر». لكن ما ظنته الجارة لم يخطر ببال فريد الذي قال أنه مطمئن لعلاقة زوجته بها لأنها أصبحت الآن تجيد الطبخ «بعد أن أمضينا وقتاً طويلاً لا نأكل إلا البيض المقلي والبيفتاك المحروق»، ولفظة القاف كانت عنده بداية قهقهة عالية كأنه روى نكتة مبتكرة، فضحكتا معه، وهو، بالتأكيد، ظن أنهما تضحكان للموضوع نفسه. وهكذا انتهت السهرة التي كان كل واحد منهم فيها لا يفهم على الآخر.

قبل أن تغادر الجارة قبّلت ميمي وهي تردد «أراك غداً». لكن ميمي لم تجبها وسمعت زوجها يقول بأنه يود أن تتعلم زوجته طبخ الملوخية التي يحبها جداً، والجارة العزيزة تقول له: «لعيونك، غداً ستأكل ألذ ملوخية. غداً بالذات».

رحلت الجارة ودخلت ميمي غرفة النوم متعبة. استلقت على السرير الزوجي ونامت من دون أن تعير أي اهتمام لزوجها الذي تمدد

بالقرب منها يحاول مداعبة جسدها، لكنه بعد جهد قليل فهم الرسالة، فأدار ظهره لميمي وغفا.

- ٩ -

استفاقت ليال في اليوم التالي على صوت رنين الهاتف، هبت من سريرها وهي تلعن هذا المزعج الذي أيقظها. لكنها حين نظرت إلى ساعتها ووجدت أن الوقت ليس باكرا أدركت أنها هي التي استرسلت في النوم أكثر من العادة، فرفعت السماعة وأتاها صوت سهام يسألها إن كانت تزعجها في مثل هذا الوقت. كانت ليال منزعجة فعلاً لكنها ضغطت على نفسها وقالت:

ـ لا، ماذا تريدين؟

ـ لا شيء. فقط أريد سماع صوتك قبل أن أبدأ نهاري.

ـ لا بأس، يفرحني ذلك، أتمنى لك نهاراً سعيداً.

ـ ألا أستطيع رؤيتك اليوم؟

ـ وهل من جديد؟

ـ لا، لكني أتعذب.

ـ أعتذر، أنا اليوم مشغولة، أراك في يوم آخر.

ـ متى؟

ـ لا تكوني ملحاحة، في أقرب وقت.

ـ وهل أتصل غداً؟

ـ أفضل الأسبوع القادم.

ـ تتركينني كل هذا الوقت وأنا أتعذب؟

ـ هوني عليك، أنا مشغولة جداً هذا الأسبوع وعليك أن تحترمي أوقاتي لكي نبقى أصدقاء. مفهوم؟

ـ فهمت. لكن هل تسمحين بأن أكلمك على الهاتف؟

ـ نعم، لكني لا أحب أن أستفيق على رنين الهاتف.

ـ عذراً على الإزعاج، هل المساء أفضل؟

ـ بالتأكيد. والآن نهارك سعيد. قالت ليال قبل أن تقفل السماعة.

أقفلت سهام بدورها سماعة الهاتف وأخذت تلعن نور وتلعن صديقها الجديد. كانت في مثل هذا الوقت تذهب إلى بيتها فتُستقبل بالترحاب والمعاتبة على التأخير. كانت هي السيدة، تفرض أوقاتها ورغباتها ونور تقبلها كما هي وتسايرها في كل ما تريد. «ماذا فعلت كي تتركني؟ أريد أن أفهم، لا يجوز أن تنتهي علاقتي بها هكذا من دون أسباب، سأتصل بها. سأظلّ أزعجها حتى أفهم الحقيقة». رفعت سماعة الهاتف من جديد وطلبت نور. أتاها الصوت الذي يحرك كل مشاعرها، صمتت للحظة ثم قالت: «أريد أن أراك ولو للمرة الأخيرة فهل أستطيع؟» أجابت نور بأنها لا تريد أن تراها وأنه لم يعد لديها شيء تقوله لها. لكن سهام أصرت: «لن أزعجك في البيت. سأراك في الجامعة، أريد منك فقط أن تشرحي لي ما هو السبب، أريد فقط أن أعرف».

ـ لا أريد رؤيتك، وإن قمت بأي تصرف غير عادي في الصف فأنت الخاسرة.

ـ أهذا ما تقولينه لي؟ هل نسيت كل ما كان بيننا؟

وأتاها الرد من صوت خشن:

- إن اتصلت بها بعد اليوم فسأسكتك إلى الأبد، هل فهمت؟ و..

قبل أن تسمع سهام باقي القول، أقفلت السماعة بسرعة: «إنه عندها، الخائنة! الآن فهمت أجوبتها الرافضة، لكني سأراها اليوم في الجامعة، سأهددها بفضح أمرها أمام كل الطلاب، ما عدت مهتمة بأمري، سأفضحها ولو كان ذلك فضحاً لذاتي. لن أتركها ترتاح معه. سأبدأ بتهديدها وإن استمرت في رفضها لي، سأفعل، علي وعلى أعدائي يا رب! لم يعد عندي شيء أخسره. ليال ترفض أن تراني وأفهمتني أنها «ليست منهن» ونور، لديها الآن رجل، هل هذا معقول؟ وأنا؟ ماذا سأفعل؟».

ظلت سهام تدور على ذاتها صبيحة ذلك اليوم إلى أن حان وقت الدرس في الجامعة، فهيأت نفسها وذهبت باكراً. كانت مستعدة لكل الاحتمالات. وصلت إلى الجامعة وأخذت تتمشى أمام المبنى كي تواجه نور قبل بداية الصف، لكن نور لم تأتِ. انتظرت قليلاً وهي تنظر من وقت لآخر إلى ساعتها، ثم ركضت إلى الصف قائلة لذاتها: «ربما أتت باكراً ولم أرها». لكنها قبل أن تصل إلى باب الغرفة سمعت أصوات الطلاب ففهمت أن نور ليست في الداخل. حين تأكدت من ذلك هرعت إلى مقهى الجامعة وتوجهت مباشرة نحو الهاتف، ومن دون أن تفكر طلبت رقمها. رن جرس الهاتف مرات عديدة، لا جواب. أقفلت السماعة، جلست على كرسي، طلبت فنجاناً من القهوة وشردت في تفكيرها تخطط للساعات الآتية.

شربت القهوة ثم حاولت الهاتف من جديد. كان مشغولاً،

حاولت مرة ثانية وسمعت صوتها، فأقفلت السماعة من دون أن تتكلم. نزلت السلم بسرعة، أخذت تكسي وأعطت السائق عنوان بيت نور. كانت في حالة استنفار شديد. دقت بابها، وحين فُتح، كان أمامها ذلك «الخنزير».

ـ أريد أن أراها، قالت، هل هي مريضة؟

ـ لا! ليست مريضة، لكن أنا من يريد رؤيتك، ادخلي.

ترددت سهام قليلاً ثم دخلت. كانت نور جالسة على تلك «الكنبة»، نظرت إلى سهام وسألتها: «لماذا أتيت؟» فأتى جوابه:

ـ حسناً فعلت لأنني أريد أن أفهمها ما لم تفهمه حتى الآن. اجلسي يا سهام سأتكلم إليك.

هنا لم تعد سهام تدري ماذا تفعل، جلست على مقعد صغير ونظرها إلى الأرض، فما كان منه إلا أن اقترب منها وقال:

ـ سأفهمك للمرة الأخيرة بأن تبتعدي عن نور وإن لم تفعلي فأنا سأبعدك، هل فهمت؟

هنا تدخلت نور لتقول: «أما أنا فسأتصل بأمك وأخبرها عنك، أنت تعرفين ماذا أقصد». كانت نور تعلم مدى احترام سهام لأمها ومدى خوفها من أن تعرف بقصتها هي التي نجحت في محو الشك نهائياً من رأسها.

ـ وأنا لدي أسلحتي، قالت سهام، أنا أيضاً أستطيع فضح أمرك في الجامعة وحتى طردك منها، وفضح أمرك أمام شقيقتك و...

ـ لن يكون لديك الوقت لذلك يا سيدتي، قال هو، سأسكتك قبل أن تتفوهي بأي كلمة، لن تكلفيني إلا رصاصة واحدة بعدها

أرميك في الشارع لتنهشك الكلاب، الدنيا حرب وفوضى ولا أحد سيعرف بك.

أدركت سهام مدى الخطر لكنها لم تستسلم وأجابت:

ـ إفعل ما تشاء، ما عدت أخاف من شيء. تستطيع قتلي، لكنك لا تستطيع إلغاء ما عشته مع نور لفترة سنوات.

هنا تدخلت نور، أشارت إليه بأن يهدأ وقالت: «لسنا مجرمين، أنا أعلم أن سهام عاقلة وستتصرف بوعي وإدراك. هي طالبة ناجحة، ستنسى الموضوع نهائياً وتنصرف إلى دراستها وتكون عند حسن ظن أمها التي تعلق عليها آمالاً كباراً».

هزت سهام برأسها ولم تجب، أما هو فاقترب منها أكثر وقد هدأ بعض الشيء وقال:

ـ أنا لدي اقتراح يكون لخير الجميع. إن كانت سهام طالبة ناجحة فأنا مستعد لتأمين منحة لها تمكنها من متابعة دراستها في الخارج، وإن لم أستطع تأمين المنحة فسأرسلها على حسابي.

ـ لا شكراً، أنا قادرة على الذهاب وحدي إلى الخارج إن أردت، لكنني لا أريد. ثم وقفت وتوجهت نحو الباب قائلة أنها تريد الذهاب، فرافقها وهو يقول: «أتمنى أن تكوني قد فهمت أن لا إزعاج بعد اليوم». وأغلق الباب وراءها.

ـ ١٠ ـ

خرجت سهام إلى الشارع وهي لا تدري ماذا تفعل وتساءلت: «أين سأذهب الآن؟» ثم أخذت تسير وتحدث نفسها: «أقتله؟ لكن كيف؟ ...هي من يستأهل القتل. لكن ربما أمضت معه وقتاً ثم

عادت إلي، هل هذا ممكن؟ وإن عادت فهل سأقبل أنا؟ حتماً سأقبل وأعود إلى حضنها، إلى لمساتها إلى رقتها، إلى بهاء طلعتها. آه لو تعرف زوجته بما يفعل، لكانت اهتمت هي بالموضوع». وفي لحظة انتبهت أنها لم تلتق بأحد في الشارع، لقد أوى الناس إلى بيوتهم باكراً كما في العادة خلال هذه الحرب القذرة. حين انتبهت إلى ذلك خافت وحاولت أن تترقب مرور تكسي يعيدها إلى البيت. لم توفق، فما كان منها إلا أن أسرعت في مشيتها وظلت تسرع وهي تحاول أن لا تعير اهتماماً لوجود المسلحين في الزواريب ومداخل بعض الأبنية، حتى وصلت أخيراً إلى بيتها منهكة. لم تكلم أحداً، دخلت غرفتها واستلقت على السرير من دون أن تخلع ثيابها ولا حتى حذاءها. حين دخلت عليها أمها تستفسرها عن سبب تأخرها وتعبها، بررت سهام ذلك بتأخر الدروس مما دفعها إلى المجيء سيراً على الأقدام لعدم توفر السرفيسات في مثل ذلك الوقت. فما كان من أمها إلا أن انتقدت الجامعة وتوقيتها للدروس وعدم مراعاتها للوضع الأمني. لكنها اطمأنت حين أعلمتها سهام أن توقيت الدروس في ذلك اليوم كان استثنائياً، فطلبت من ابنتها أن تأكل قبل أن تستريح وتنام.

ـ دعيني أرتاح الآن ولا تقلقي على طعامي، أنا سأتصرف حين أشعر بالجوع، الآن أريد أن أنام قليلاً.

خرجت الأم وعادت سهام إلى ذاتها تبحث عن مخرج لحالتها التي إن استمرت ستؤدي بها حتماً إلى الانهيار. دارت على ذاتها طويلاً قبل أن ترفع السماعة وتطلب ليال:

ـ ألو مساء الخير، هل أزعجك الآن؟

ـ لا! أبداً، هل من جديد؟

صمتت سهام قليلاً ثم أخبرت ليال بما حدث معها وتابعت:

ـ لا تلوميني فأنا لا أتصرف بروية، أعرف أنني أخطأت، لكني لا أستطيع أن أنساها، هل تقبلين أن تكوني عقلي المرشد؟ أنا أثق بك، وأطلب منك أن توجهيني، أرجوك افعلي، أنا أغرق في محيط هائج وإن لم تنقذيني سأغرق.. وأجهشت بالبكاء.

فكرت ليال بالموضوع وقالت لنفسها قبل أن تجيب: «إن قلت لها أن تنسى الموضوع وتقوى على نفسها، ربما فسرت ذلك بأنني أريدها لي وسأسرّع بذلك عملية النقلة التي تقوم بها من دون أن تدري وهكذا سيخيب أملها مرة أخرى». حين انتبهت إلى أن صمتها قد طال قالت:

ـ سهام يا عزيزتي، إن أردت أن أكون عقلك المرشد كما تطلبين فاصغي إلي جيداً، أنا أعلم أن حالتك طبيعية، كل واحد منا ينفعل ويحزن لفقدان صداقة أو علاقة، لكننا نستطيع تخطي الموضوع والخروج منه، عليك أن تحاولي. أنا لا أقول لك أن تنسي هكذا وبسهولة، الأمر صعب ولهذا السبب أنصحك بمحاولة علاقة أخرى، لكن هذه المرة مع شاب، افعلي مثلها، حاولي...

ـ لا أحبهم، تعلمين ذلك، ولا أميل إلى أحد منهم على الإطلاق.

ـ أعلم، لكن حاولي وإن فشلت فسنبحث لاحقاً في الموضوع.
كانت ليال تعلم جيداً أن نصيحتها غير مجدية لكنها لم تجد غيرها في حينه. وأتاها جواب سهام ليؤكد ذلك إذ قالت: «أهذا كل ما تنصحينني به؟»

أنقذ ليال جرس باب بيتها الذي رن في تلك اللحظة فقالت: «سهام، الباب يُطرق، أعتذر لمقاطعتك، الآن، نتابع الكلام لاحقاً».

- ١١ -

فتحت ليال باب بيتها وإذ بميمي:

ـ سيدة ليال، لقد اتصل أحدهم بزوجي وأخبره بأن الليلة ستكون حامية، فعلينا الحذر والنزول إلى الملجأ، لهذا السبب جئت أخبرك كي لا تتفاجئي وتكوني وحدك.

ـ شكراً، لكن كيف يعرف هذا «الأحدهم» أن الليلة ستكون حامية؟

ـ لا أدري، لكنه دائماً يتصل ودائماً يصح قوله. سأحضر ما نحتاج إليه في الملجأ وسأحسب حسابك، لا تأخذي شيئاً معك. أرجوك لا تبقي وحدك في البيت وانزلي عند سماعك أول طلقة.

أقفلت ليال الباب وهي تحاول أن تفهم أواليات هذه الحرب عبثاً. لكن تفكيرها لم يطل إذ سمعت صوت دوي انفجار بعيد على خطوط التماس كما كانوا يسمون الخط الفاصل بين شقي العاصمة. «هل بدأت المعارك؟ هل أنزل الآن؟ سأنتظر قليلاً، ربما ما سمعته هو انفجار عادي وينتهي الموضوع».

ززززز..... بوم!

«يا إلهي هذا قريب جداً»! حملت ليال المحفظة التي كانت قد وضعت فيها سابقاً كل أشيائها المهمة من شهادات ومصاغ وغيرها وركضت نحو الباب، فتحته وأسرعت مهرولة على السلم إلى أن دخلت الطابق المعد للسيارات، وهو الطابق الثاني تحت الأرض،

فوجدت كل سكان البناية فيه، كل عائلة في زاوية. وفجأة ظهرت أمامها ميمي تقول: «لماذا تأخرت، انشغل بالي عليك، كنت سأصعد لأنزلك، لكن زوجي منعني قائلاً: «ستنزل حتماً لا تخافي، لن يبقى أحد في بيته اليوم».

مشت ليال مع ميمي وجلست معها ومع عائلتها، تكوموا على الأرض وكانت ميمي قد أحضرت سجادة عتيقة وبعض الطنافس وأكياساً تحتوي على ماء وأكل وما إلى ذلك.

عنف القصف واقترب. في حالات كهذه تصبح ليال كتلة رعب ليس إلا، تتسمر مكانها، تكزّ على أسنانها ولا تعود ترى أحداً. أما ميمي فكانت أقوى منها، كانت تتحرك، تهتم بأولادها وبليال التي رفضت أي مأكل أو مشرب وميمي تخفف عنها:

ـ لا تخافي نحن هنا بأمان، هذا المكان بالذات آمن أكثر من غيره، لقد اختاره زوجي منذ بداية الحرب وحتى الآن، الحمد لله، لم يحدث شيء. خذي، كلي، ربما كانت الليلة طويلة.

ـ أرجوك اهتمي بزوجك وأولادك واتركيني، سأطلب منك ما أريد حين أشعر بالجوع أو العطش أو...

ـ زوجي يهتم بنفسه، وتمتمت بصوت منخفض كأنها تريد أن تسمعها ليال فقط: «يحل عني ما بقى إلي جلادته».

نظرت إليها ليال ولم تجب، تجاهلت ما قالته وصمتت كأنها لم تسمع شيئاً. لكن ميمي اقتربت منها وجلست إلى جانبها. بوووم! صوت قوي جداً دوى في الخارج. وضعت ميمي رأسها على كتف ليال وهي تقول: «لا تخافي». فما كان من ليال إلا أن ضمتها إليها لاشعورياً وشدت عليها حتى كادت تعتصرها. كان

ذلك من الخوف، لكن ميمي فرحت به وضمت بدورها ليال ودام ذلك حتى انتهى الرشق وهو لم يدم إلا لثوان، بعدها تلاشت الأيدي، رفعت ميمي رأسها عن كتف ليال وهي تقول: «أشعر بنوع من النشوة حين ينتهي القصف! وبخاصة حين يكون قوياً».

رن جرس هاتف الزوج وإذ بجارة ميمي «العجوز» تتصل بهم من ملجأ بنايتها لكي تطمئن عليهم.

ـ كلنا بخير وأنتم؟

ـ .....

ـ أكيد ميمي هنا ومعنا اليوم جارتنا الست ليال.

ـ ....

ـ سأعطيك إياها: ميمي خذي السماعة، تريد أن تكلمك. كانت ميمي تعرف جيداً من هي التي تريد أن تكلمها، أخذت السماعة:

ـ نعم، كيف الوضع عندكم؟

ـ ....

ـ إنها معنا... لا تعرف أحداً سوانا.

ـ ...

ـ لا تخرجي في مثل هذا الوضع فنحن بألف خير.

ـ ....

ـ وأولادك؟

ـ ....

ـ لا! لا! أرجوك لا تفعلي، أراك غداً. أقفلت السماعة وتوجهت إلى ليال وزوجها:

ـ تصوروا أنها تريد أن تأتي إلى ملجئنا، هذه المجنونة!

ـ لتفعل ما تشاء، إنها راشدة وحرة، قال الزوج وهو يضع الراديو على أذنه ليستمع إلى الأخبار و«الفلاشات» المتلاحقة. بعد وقت قصير تابع: «يبدو أنهم يسعون لوقف إطلاق النار، سننتظر قليلاً، ربما نجحوا وعدنا إلى بيوتنا ونمنا هذه الليلة في أسرتنا».

كانت ميمي تود أن لا يقف إطلاق النار، أما ليال فابتسمت وقالت: «كم أتمنى أن يتوصلوا إلى وقف إطلاق النار، يرعبني القصف حقاً ولا أعود أدري ماذا أفعل، لا أعود قادرة على امتلاك نفسي ولا أعصابي ولا تصرفاتي».

ـ إننا هنا بأمان، قالت ميمي، وإن استمروا بالقصف ننام هنا، كل شيء مجهز، وأنت، ست ليال، تنامين إلى جانبي، سأفرد لك محلاً.

ـ تريدينني أن أنام إذا استمر القصف ! هذا من المستحيل، لا يغمض لي جفن طالما أسمع صوت طلقة واحدة.

دخلت «العجوز» وهي تركض وتوجهت مباشرة إلى حيث تجلس عائلة ميمي وليال.

ـ حظي كبير، قالت، لقد توقف القصف حين قررت المجيء. والآن فليفعلوا ما يشاءون.

نظرت إليها ليال ولم تجب، أما ميمي فقالت: «إنك حقاً مجنونة. فمن يخاطر مثلك ويغادر الملجأ؟».

ـ رؤيتك بالدنيا يا ست ميمي، ألا تعرفين ذلك؟

اقتربت ميمي من ليال وأسرت في أذنها: «إنها تغار منك ولهذا السبب أتت تحت الخطر». لم تفهم ليال ماذا تقصد ميمي وفي الوقت نفسه لم تعره أي اهتمام، كل ما كان يشغلها في تلك اللحظة هو أن يتوقف إطلاق النار.

انفجرت المدافع مجدداً وكانت هذه المرة بعنف كبير، فهرع الكل إلى الزوايا وتكوموا فوق بعضهم البعض إلى أن انتهى القصف وقد استمر أكثر من العادة.

ـ هل هذا وقف إطلاق النار؟ قالت ليال وهي ترتجف.

ـ أظن، أو بالأحرى آمل أنهم كانوا يفرغون المدافع قبل أن يمتثلوا للاتفاق، هذه هي عادتهم، قال الزوج، والأخبار تذيع أنهم توصلوا إلى مثل هذا الاتفاق، فلننتظر.

انتظروا بعد ذلك الانفجار أكثر من ربع ساعة من دون أن يسمعوا أي طلقة، فقرر الزوج أن حان الوقت للعودة إلى البيت. كانت ليال تفضل أن ينتظروا أكثر لكي تطمئن نهائياً إلى سلامة الوضع وعبرت عن رغبتها، لكنه نظر إلى ميمي وقال: «هيا حبيبتي نعود إلى البيت».

لملمت ميمي الأغراض المتناثرة على الأرض ورافقت زوجها وهي تقول لليال: «إن كنت خائفة، تستطيعين النوم عندنا، لا تحملي ثقلة».

ـ الست ليال قوية، كما أعرف عنها، قالت «العجوز».

ـ أنا قوية أمام كل شيء إلا أمام القصف الأعمى.

- على كل حال تسهرين معنا إلى أن تطمئني ثم تذهبين إلى بيتك إن أردت، قالت ميمي.

كانت ليال تود أن تبقى عند ميمي في الطابق الثالث لأن بيتها معرض ولا شيء يحميه. قبلت الدعوة وصعد الجميع إلى بيت ميمي التي ما أن استقبلتهم حتى قالت: «أعتذر لدقائق وأكون معكم، سأدخل الأولاد إلى غرفتهم كي يناموا».

- وأنا سأحضر الزهورات التي تهدئ الأعصاب، قالت «العجوز».

غابت ميمي مع أولادها ودخلت «العجوز» إلى المطبخ، وما هو إلا وقت قصير حتى عادت حاملة صينية عليها أربعة فناجين يخرج منها البخار، وهي تقول:

- لو كان عندك رجل، يا ست ليال، لما خفت هكذا. الزواج ضروري للمرأة، لو كنت متزوجة لكنت الآن مع زوجك في البيت من دون أن تشعري بالخوف.

- ربما، لكن ماذا سيفعل لي الزوج في حالات القصف، هو معرض مثلي ولا أحد يستطيع أن يحمي الآخر.

- صحيح، لكن وجود شخص معنا يشجعنا.

- ولهذا السبب ليس من الضروري أن يكون هذا الشخص زوجاً.

- الزواج سترة وكمال للمرأة، ولو، بسلامة فهمك يا سيدة ليال. تفضلي، هل تحبين السكر مع الزهورات؟

- لا، شكراً، أخذت ليال الفنجان من يد «العجوز» وباشرت

بالشرب من دون أن تجيبها على تعليقها، ما كانت ترغب في مناقشة الموضوع معها.

أتت ميمي: «لماذا لا تتزوجين أنت إن كان الزواج سترة وكمالاً للمرأة؟».

ـ أنا تزوجت، جربت حظي، وألله أخذه، الآن عندي أولادي، فهم كمالي، أليس هذا صحيحاً يا سيد فريد؟

ـ نعم، نعم، كما تريدين، فأنت ست العارفين.

دنت ميمي من ليال تقدم لها سيجارة وقالت بصوت منخفض: «لا تعلقي على كلامها، هي دائماً تحب الملاحظات، وهي الآن تحاول أن تستفزك».

أنهت ليال فنجانها واستأذنت: «يبدو أنهم حقاً امتثلوا لاتفاق وقف إطلاق النار، سأعود إلى بيتي، تصبحون على خير».

ـ وأنت بخير، أجاب الجميع، وتابع الزوج: «أنا أريد أن أنام، علي أن أستيقظ باكراً غداً».

دخل الزوج غرفة النوم وبقيت «العجوز» مع ميمي. أصرت على البقاء لكي تسأل ميمي لماذا كانت ليال معهم، في الملجأ، على غير عادة.

ـ أنا دعوتها للجلوس معنا، إنها وحدها، نحن جيران، تعرفين ذلك، وهي لم تمانع، هذا كل ما في الأمر. لكنها تخاف جداً من القصف، كانت تتمسك بي وتشدني إليها كلما ضرب المدفع.

ـ صحيح ! وأنت تحبين ذلك يا خائنة، أجابت «العجوز» وهي تضحك، ثم تابعت: «هل تعجبك الست ليال؟».

ـ ماذا تقصدين، هل تغارين منها؟

ـ أنت ماذا تقصدين؟ ولماذا أغار منها، لماذا تسألين، هل قالت لك شيئاً، هل هي...؟

ضحكت ميمي وأجابت كي تثير «العجوز»: «لست أدري بعد. ربما... وما المانع؟».

ـ ما المانع؟ هل ترين نفسك مع هذه الجبانة التي ترتجف من القصف كالأطفال؟

ـ شخصيتها تعجبني، هذا كل شيء.

ـ أما أنا فلا تعجبني لا جملة ولا تفصيلاً. والآن سأعود إلى بيتي، غداً نلتقي عندي في البيت، سأكون وحدي كالعادة.

ـ ١٢ ـ

حين بدأ القصف كانت سهام في غرفتها تفكر بليال ونور. رفضت أن ترافق أمها وأخوتها إلى الملجأ، لكن أمها أصرت وأرغمتها على النزول معها. كانت سهام تفضل في تلك الليلة الموت على الحياة. كانت تود أن يعنف القصف ويطال كل الناس وكل البيوت ويطال بشكل خاص ذلك «الخنزير». في الملجأ جلست في إحدى الزوايا ولم تكلم أحداً. حين انتهت المعارك وعادت إلى غرفتها، لم يخطر ببالها إلا الاتصال بليال لتطمئن عليها، فهي غير قادرة على الاتصال بنور ولذلك حولت نفسها باتجاه ليال التي حين دخلت بيتها سمعت صوت رنين الهاتف، فهرعت لترد وقد خطر ببالها ألف خاطر عن سلامة أهلها وأصحابها و... أتاها صوت سهام:

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم، وأنت؟

ـ الحمد لله.

ـ كانت ليلة عنيفة...إني متعبة جداً، أريد أن أنام، هل كلكم بخير؟

ـ نعم.سأتركك تنامين.

ـ شكراً على اتصالك، تصبحين على خير. أقفلت السماعة وأوت إلى فراشها.

بقيت سهام رافعة سماعة الهاتف لثوانٍ قبل أن تعيدها إلى مكانها وتنفجر بالبكاء: «لماذا أنا مرفوضة هكذا، لماذا لست مثل الأخريات اللواتي يغرمن بالشبان ويعشن حياة عادية، لماذا علي أن أبقي حياتي في السر، لماذا لم يخلقني الله امرأة طبيعية، هل يمكن أن يكون ذلك النذل هو الذي أفسد حياتي كلها؟ لقد مات الآن، ويا ليت كل الذين مثله يموتون، الكل يعتقد أنه مات بسكتة قلبية وأنا أكيدة أنه انتحر بعد فعلته الشنيعة تلك. صحيح أنه كان ثملاً ولم يدرِ ماذا يفعل، لكن هل الإسراف في الشرب جعله لا يميز بيني وبين أمي؟ هل اختلطت لديه الأمور إلى هذه الدرجة كما حاول أن يقول، أم أنه، بلاوعيه، كان يشتهيني أنا؟ إلى متى سأحتفظ بهذا السر الذي كاد يقضي علي وعلى كل ما أطمح إلى تحقيقه؟ ربما كان من الأفضل لي أن أعرض قصتي على طبيب نفساني، ما عدت أتحمل رفضهن لي؛ أنا أرفض الرجال، والنساء يرفضنني. من أين نبت ذلك «الخنزير» وأخذ نور مني؟ كانت تقبلني وتقبل ذاتها، ماذا حدث لها كي تتغير هكذا ولماذا أنا لم أتغير؟ لماذا أحاول التعويض عنها بمثلها؟ لماذا ليال هي التي استهوتني ولم يستهوني أي

رجل؟ سأعرض قصتي أولاً على ليال، ربما استطاعت مساعدتي، ربما أشفقت علي ومن ثم أحبتني، أكون بهذه الطريقة حققت ما أريد وحطمت قلب تلك الخائنة التي أصبحت تتكبر علي. الآن لا أستطيع أن أتصل بليال، لقد أقفلت الخط، سأترك الأمر إلى الغد، متى سيأتي هذا الغد، الساعات تتمطى كأنها دهور. غداً ستكون ليال في الجامعة، سأتكلم معها، سأرغمها على الاهتمام بي، إن سمعت قصتي لا أظنها سترفض مساعدتي. غداً سأفجر كل شيء، سألقي بسري أمامها وأضعها أمام مسؤولية كبيرة، ستقاسمني هذا السر وهكذا سأرتاح كما يقول «برغسون» إذ أن المجرم يبوح بجرمه ليدخل من جديد إلى المجتمع، سأبوح بسري لأدخل من جديد إلى المجتمع الذي ينبذني، سأدخل حتماً إلى قلب ليال».

بعد هذا القرار حاولت أن تنام لكنها لم تستطع فأخذت ورقة بيضاء وقلماً وبدأت تكتب:

«..... كان عندي قلب وكنت سيدته، وعشق كنت مليكته وعيون كانت لي، أغمضها ساعة أشاء، وأخبئها ساعة المساء، وجسد يحمل الخمر والأرجوان، والشفاه وهموم كنت أعيش لأجلها، وأيام وليالٍ مضت بمركب الزمن.

«الآن، سقطت المليكة النرجسية سقوط الضوء ورحلت عني الزهور والطيور وشبّت الغيوم فوق الموسيقى، والسهر صار ذكريات راحلة، والرحيل صار ذكريات ساهرة، وقلب تحطم بزجاج دموي، والدم صار زجاج القلب المحطم، العشق صار معجزة الكافر والكافر صار معجزة العشق المقدس...».

أعادت سهام قراءة ما كتبت، كان الليل ما زال يلف المكان ولليل

أسرار وأواليات، يردنا إلى أزمنة نكون قد دفناها، قد تحررنا منها، وأحياناً يتمادى في ساديته ويتلذذ بقهرنا ويجلس يراقبنا كيف نغوص في ما ينغص نهاراتنا. هكذا وقف الليل شاهداً على رجوع سهام إلى باريس تحلم بكلير وبإحدى سهراتها معها، وسهام شاعرة رقيقة فأتى تذكرها شعراً أو ما يشبه الشعر:

«كلير تلك الناصعة، يستغرب الفل نقاوتها ويتساءل زبد البحر عن ذوبانها، كلير والشمس لا تراها كي لا تغمض عينيها، ويخجل القمر لو رآها وهي تخشخش بسوارها، كلير الغانية الأحلى ترقص وتهتز القاعات من تحتها، وتتمايل بدلال تحسدها عليه الزنابق.

«كلير تكشف عن كنوز جسدها وتختلط الشمس بالموج ويبرز العناب شهياً ويحين وقت الطعام، كلير تلتهم العشق وتتلذذ، تعرف أسرار الحب وطرقاته وتتدلل، كلير والحرية في فستانها، تتعرى، لا تريد أن تبقى أسيرة، وتنفخ سجائرها في قدح أشقر، فمن تشرب كلير ومن يشربها؟

«وفي سرير أبيض سقطت هائمة منتحرة تروي لجسدها انتصاراتها.

كلير تنظر ولا تتكلم، تأكل وتشرب بنظرها وتتنهد في شفتيها، فتشبع الغواني وتكتفي المحرومات وكلير تتقلب كالبجعة الآتية من قلب السحاب، فرحة هي وحساسة تلملم الشعور من رؤوس القصائد وتنفعل بهدوء انسياب النهر، ثم تستريح كالقطة السيامية، تكتفي بترك شعرها، عناقيد عنب تنساب على الدوالي فأكون عريشتها!».

انتبهت إلى ذاتها بعد هذا الشرود وقالت: «أعرف الآن أن علاقتي بكلير لم تكن جدية، كانت بداية الطريق فقط، أما نور، الدكتورة

نور، فهي التي هويتها فعلاً، هي حقاً البداية. وليال؟ هل هي ردة فعل أم أنني أعشقها فعلاً؟ لماذا أنتظر بفارغ الصبر أن أراها؟ يا إلهي كم يلغيني حضورها ! غداً سأدخلها في عالمي ولن تخرج منه بعد الآن».

- ١٣ -

طلع الفجر أخيراً، أحضرت سهام قهوتها، شربتها بسرعة وغادرت باكراً إلى الجامعة كي تنتظر ليال. انتظرت طويلاً، كانت تأمل أن تأتي قبل وقت التدريس ولو بقليل لكي تكلمها وتأخذ موعداً منها. لكن ليال تأخرت في المجيء وصعدت إلى قاعة المحاضرات بسرعة وسهام تنظر إليها من بعيد ولا تجسر على الاقتراب منها. هل تنتظر ساعة أخرى؟ خطر ببالها أن تدخل القاعة حيث ليال وتحضر الدرس، لكنها خافت أن تزعجها، فبقيت في الخارج تتمشى حتى فتح الباب وتدفق الطلاب إلى الخارج. تسارعت دقات قلبها وما عادت تدري ماذا تفعل، هل تدخل أو تنتظر، لكن ليال ظهرت أمامها قبل أن تأخذ قرارها. حين رأتها ابتسمت وسألتها: «ما عندك، هل من جديد؟»، وسارعت سهام إلى القول: «نعم وأود أن أخبرك، هل لديك الوقت..».

ـ تعالي، أنا أدعوك لتناول القهوة.

فرحت سهام إذ إنها لم تصدق ما سمعته ولم ترد أن تفهم بل تبعت ليال إلى الطابق الأول حيث المقهى.

ـ ما الجديد؟ سألت ليال.

تلعثمت سهام وتمتمت: «شيء خطير جداً ولا أدري كيف أبدأ».

ـ ابدئي كما تشائين سأصغي إليك.

اعتقدت سهام أن ليال تستخف بها وبأمورها فانقبضت وصمتت إلى أن نبهتها ليال: «هيا، ما الأمر، ولماذا هذا الانقباض؟».

ـ إنه أمر أخطر مما تتصورين، هو السبب في كل ما أفعله الآن، هو سبب ما يسمونه شذوذي. أعتقد أنه هو الذي غير كل حياتي و.. صمتت من جديد. وصمتت معها ليال تنتظر سماع هذا الأمر الخطير. بعد قليل انفجرت سهام بالبكاء وأخذت تخبر ليال قصتها مع والدها، أخبرتها بإيجاز وليال لم تسألها أي تفاصيل، اكتفت بالإصغاء وهي تهز برأسها، كانت تعلم بمثل هذه السلوكات، لقد قرأت وسمعت الكثير حول الموضوع.

ـ ألا تعتقدين أنه هو السبب؟ سألت سهام.

ـ لا أدري، ربما، لكن إن كنت تعرفين السبب فعليك أن تقوي على نفسك، كل العلاج النفسي يقوم على إعادة المكبوت إلى حقل الوعي، وأنت واعية لوضعك تماماً، فما عليك إلا أن تعالجي نفسك بنفسك.

شردت سهام في ماضيها، توقفت عند المرحلة الابتدائية وظهرت أمامها صورة تلك المعلمة التي كانت لمساتها تذكرها بلمسات أمها على ظهرها.

ـ من قبل ذلك لم أكن أميل إلى الذكور.

ـ ماذا تقصدين؟

أخبرتها سهام عن تلك المرحلة وعن كل الأحاسيس التي كانت تجتاحها.صمتت ليال لأنها تصورت أن القصة الأولى التي روتها

سهام هي السبب في كرهها للرجال، أما حين سمعت ما أخبرتها به بعد ذلك ارتبكت وما عادت تدري كيف توجهها.

ـ تقصدين أنه ميل طبيعي عندك إذاً.

ـ أعتقد ذلك، كنت منذ البداية لا أميل إلى الذكور، وبعد الحادثة صرت أكرههم.

ـ لا تستطيعين الكلام عن ميل إلى الذكور في تلك المرحلة المبكرة، كنتِ صغيرة، وعدم الميل هذا أمر طبيعي.

ـ لكني كنت أميل إلى الأنثى وما زلت أميل إليها، هي فقط التي تحرك كل كياني وكل مشاعري وأحاسيسي.

ـ في المرحلة التي تكلمت عنها، كلنا نميل إلى حضن دافئ، حتى الذكور يميلون إلى ذلك، الأمر طبيعي جداً.

ـ ما زلت أميل إليهن وهذه هي المشكلة.

كانت هي حقاً المشكلة التي أرادت ليال أن تطمسها لكي تساعد سهام. هي تعرف الكثير عن السحاقيات، وبعض قراءاتها حول الموضوع يقول بأن الأمر ربما تعلق مباشرة بالـ«جينات» عند الإنسان، أي أن الإنسان يولد هكذا ولا خيار له في التغيير. هل تنصح سهام بأن تقبل ذاتها كما هي، هل تحاول أن تساعدها على الخروج من حالتها، لكن كيف؟ هي تعرف جيداً مدى خطورة هذا الموضوع في مجتمعنا، فهؤلاء الأشخاص منبوذون، لا أحد يفهمهم، وسهام وضعتها أمام مسؤولية كبيرة، هي تفهم معاناتها، لكن هل تستطيع مساعدتها؟ اقتربت منها، ضمتها إلى صدرها وقالت:

ـ أفهمك جيداً، لكن علينا أن نحاول. أنصحك الآن، كما فعلت سابقاً، ولو كان الأمر صعباً في البداية، أن تعاشري الشبان، ربما تعلقت بواحد منهم وانتهى الموضوع. فكري بالزواج والإنجاب، إنسي حالك وتمثلي بالأخريات، حاولي وإن كان ذلك يتطلب، في البداية، كذباً على الذات. إسمعي مني وحاولي وبعدها لكل حادث حديث كما يقال.

كانت سهام تنتظر جواباً مختلفاً، كانت تعتقد بأن ليال ستحضنها، ستقترب منها أكثر، فخاب أملها.

ـ أهذا كل ما عندك قوله يا دكتورة ليال؟

ـ ليس من حل آخر في الوقت الحاضر، إن كنت تثقين بي، ويبدو أنك تثقين، فاسمعي نصيحتي وأخبريني بكل ما يجد معك. والآن تأخر الوقت وعليك كما علي الرجوع إلى البيت، وإن احتجت إلى أي شيء اتصلي بي، وحاولي الكتابة فأحياناً كثيرة حين نفرغ ما عندنا على الورق نرتاح ونرى الأمور بوضوح أكبر، إلى اللقاء.

ـ ألا تبقين قليلاً؟ لدي ما أقوله بعد.

ـ هل من قصة أخرى؟

ـ بعد وفاة والدي تعلقت بأخي البكر، لكن الله أخذه بسرعة. قتل بحادث سيارة. فقدت معه كل أمل. وبعد وفاته أصبحت أنا رجل البيت إلى أن تعافت أمي وخرجت من الصدمة التي هدتها وكادت أن تقضي عليها. أخذت مكان أبي وكنت أنام مع أمي في السرير. كنت أشعر بدفء جسدها. أحيطها بذراعي حتى تغفو كطفلة صغيرة.

ـ هل أصبحت الولد الوحيد بعد وفاة أخيك؟

ـ لا، لدي أخوان آخران، لكنهما أصغر مني بكثير. بعد أن فقدت أخي البكر شعرت بأن لا حظ لي مع الرجال. صرت أستبعدهم من حياتي. أردت أن أكون أنا مكانهم لكي أهتم بالمرأة كما ينبغي وكما تستحق. وهكذا كنت أحقق ميولي الطبيعية. أحب المرأة. ماذا أفعل؟ هل أغير طبيعتي؟

ـ ربما لم تكن هذه هي طبيعتك، ربما الظروف هي التي حولت هذه الطبيعة. حاولي كما قلت لك، ربما تغير الوضع.

ـ وإن لم يتغير؟

ـ سنرى، حاولي أولاً ولا تضعي الفشل قبل التجربة. والآن تأخر الوقت كثيراً، نتابع لاحقاً.

ـ ١٤ ـ

دخلت ليال إلى بيتها وهي تفكر بسهام وقصتها وبالمسؤولية التي وُضعت أمامها. كانت حزينة وتمنت لو كانت سهام تعيش في مجتمع آخر، في المجتمع الأوروبي مثلاً، لما كانت عانت ما تعانيه الآن، لكانت قبلت ذاتها وناضلت في سبيل حقوقها كما يفعلن هناك. هل تنصحها بالسفر والعيش في الخارج؟ لكن هل يكون ذلك إنقاذاً لها أم تدهوراً؟ وقطع حبل تفكيرها نقر على الباب.

ـ هل تستقبلينني هكذا؟ كانت ميمي ترتدي قميصاً طويلاً تقفله على صدرها بواسطة ذراعيها، لقد نام الأولاد وزوجي يستمع إلى الأخبار، فأحببت أن أزورك، هل أستطيع الدخول؟

ترددت ليال قليلاً لتفهمها بأنها لا تحب هذا النوع من العلاقات، لكنها قالت: «تفضلي ادخلي... لكني أنتظر بعض الأصحاب».

ـ لن أطيل المكوث، هل تناولت العشاء أم آتيك بـ....

ـ لا، شكراً لقد تعشيت وانتهى الموضوع.

جلست ميمي على الكنبة قبالة ليال، فانفرد قميصها الطويل وظهرت تحته ملابس النوم الشفافة، وأخذت تسأل ليال كيف أمضت نهارها وهل تعبت في التدريس... وليال تتساءل: «لماذا تعرض ميمي مفاتنها أمامي؟ «لكنها تجاهلت الموضوع وأجابت على أسئلتها بكلمات سريعة وهي تنظر من وقت لآخر إلى ساعتها. هذا الوضع لم يدم طويلاً إذ طرق الباب وأتى زوج ميمي يناديها لأن جارتها «العجوز» أتت لزيارتها.

شعرت ليال بالارتياح بعد ذهاب ميمي، نسيتها كلياً وعادت إلى قصة سهام تحاول إيجاد الحلول المناسبة لها. أما ميمي فحين دخلت بيتها قابلتها «العجوز» بالتأنيب:

ـ كنت تزورين الست ليال بهذه الملابس!

ـ وما المانع؟ أجابت ميمي وهي تبتسم.

ـ هل تسمع؟ متوجهة إلى الزوج، وهل تسمح بذلك؟

ـ الست ليال وحدها في البيت وهي امرأة مثلها مثل ميمي، ثم ألم تستقبلك ميمي بالثياب نفسها؟

صمتت «العجوز» وهي تقول لنفسها: «مسكين فريد إنه في غير دنيا». وجلس الجميع كعادتهم في مثل تلك السهرات التي لا يعكرها قصف المدافع. وكما في العادة أيضاً ترك زوج ميمي الصالون بعد قليل ودخل غرفة النوم وهو يود أن ترحل الجارة باكراً كي ينفرد بزوجته. أما الجارة فكانت مستاءة من ميمي وأخذت

تؤنبها على فعلتها وعلى زيارتها لليال، وميمي تحاول اختراع القصص التي لا تمت إلى الواقع بصلة، لتثير غيرة «العجوز» ولإيهامها بأن ليال تميل إليها. كانت تتكلم من وحي تمنياتها وتحول هذه التمنيات إلى وقائع تسهب في وصفها: «لقد قبلتني وشدت علي،... جلست بالقرب مني وأخذت تلاطفني وتمسّد وجهي وشعري... آه كم كانت رائعة»!

لم تعد «العجوز» قادرة على كتمان غضبها ولا هي قادرة على رفع صوتها وتنفيذ ما كانت تود القيام به، فنهضت من مكانها وقالت: «أراك غداً». وغادرت.

بعد ذهاب ميمي بوقت قصير رن جرس الهاتف في بيت ليال وأتى صوت سهام متقطعاً خجولاً: «لا تقفلي السماعة بوجهي أريد أن أسمع صوتك، اتركيني أتكلم، أنا يائسة، قولي أنك تقبلين صداقتي، لا أريد أكثر من ذلك، كوني صديقتي، فأنت حاملة سري، أنت منقذتي إن أردت».

حاولت ليال تهدئتها، كانت لطيفة معها وانتهى الكلام بينهما بأن قالت لها: «سأكون صديقتك، لا تخافي، والآن حاولي أن تنامي، يجب أن ترتاحي». لكن سهام كانت متيقظة، لم يأتها النوم، وكما في عادتها في مثل هذه الأوقات أخذت تكتب. ثم طوت أوراقها ووضعتها في الدرج الذي تستعمله لمثل هذه الكتابات والذي تقفله دائماً كي لا يقع نظر أمها عليها وحاولت أن تنام. وهذا ما حصل لأنها كانت قد ارتاحت بعد أن أفرغت ما عندها على الورق كما نصحتها ليال.

- ١٥ -

لم تنته تلك الليلة على خير إذ استفاق الناس باكراً على أصوات المدافع. هرعوا بثياب النوم إلى الملاجئ وصراخ الأطفال يملأ الفضاء. كانت ليال من بين أول الواصلين إلى الملجأ، توجهت نحو سيارتها، فتحت بابها وجلست في داخلها متقوقعة على ذاتها. وما هي إلا دقائق حتى فاجأتها ميمي.

ـ لماذا تجلسين وحدك هنا؟ تعالي إلى زاويتنا إنها الأضمن.

لم تقل ليال شيئاً، ترجلت من سيارتها، أقفلتها وسارت مع ميمي إلى حيث أولادها وزوجها. جلست معهم وهي صامتة لا تفكر إلا بعنف القصف وإلى متى سيدوم.

ـ لا جامعة اليوم، قالت ميمي.

ـ حتماً، من يجسر على الخروج في هذه الأجواء المجنونة. «الحياة أهم من العلم، قال الزوج، لاحقين يتعلمو».

هزت ليال برأسها ولم تجب. بعد وقت قصير هدأ القصف قليلاً: «سأصعد إلى البيت وآتي ببعض الأكل للأولاد وأحضر ركوة قهوة». قالت ميمي.

ـ لا! أجابها زوجها، أنا أصعد، إبقي أنت هنا مع الأولاد. جلست ميمي إلى جانب ليال وحاولت فتح حديث معها:

ـ الرجال لا ينفعون إلا بحالات كهذه، لولا بعض الأعمال الصعبة لكنا استغنينا عنهم.

ـ ....

ـ ألا تعتقدين أن المرأة تستطيع أن تعيش وحدها من دون الرجل؟

ـ حتماً، والرجل أيضاً. لكنها سنة الحياة، وإلا انتهى الإنسان.

ـ ولماذا تعيشين وحدك إذاً؟

ـ ظروف، أنا لست القاعدة، ثم إن هذا العدد القليل من البشر الذي هو في مثل حالتي لا يغير شيئاً، ولا يوقف الحياة.

ـ ألا تحبين الأولاد؟

ـ الأمر ليس بهذه البساطة إذ إني أحبهم ولا أحبهم في الوقت نفسه.

ـ هل ترفضين الزواج؟

ـ لا أفكر بالموضوع حالياً.

ـ ألست بحاجة إلى صديق أو صديقة؟

ـ لدي الكثير من الأصدقاء والحمد لله.

ـ أعرف، لكن هل لديك صديق محدد، تعلمين ماذا أقصد.

ـ لدي صديق، لكنني لا أريد أن أتكلم عنه الآن، هذا أمر يعنيني وحدي.

فوجئت ميمي بالجواب لكنها تابعت:

ـ عذراً، لا أريد أن أتدخل في حياتك الخاصة لكنني أسأل فقط من باب....

ـ أعتذر بدوري، فأنا في حالات القصف أكون متوترة ولا أستطيع الغوص في مواضيع كهذه.

ـ لكل حياته وحريته، لكني أنا لا أحب الرجال، أفضل صداقة

النساء، التفاهم معهن أسهل والعلاقة معهن أمتع.

ظهرت «العجوز» أمامهما، كأنها هبطت من السماء.

ـ وحدكما هنا ! أين زوجك؟

ـ لقد صعد إلى البيت ليأتينا بالفطور والقهوة. حسناً فعلت بمجيئك، ستبصّرين لنا الآن.

بعد أن شربوا القهوة رفعت ميمي فنجانها وقدمته إلى «العجوز» التي أخذته وبدأت تحدق في داخله.

ـ عندك لقاء واسع. نوع من حفلة أو سهرة. يعني هناك جمع كبير، لكنك ستكونين نجمته. كل النساء سيغرن منك، بعد ذلك ستكونين في جلسة حميمة مع إحداهن، هي تكن لك كل المحبة والتقدير. عندك معرفة جديدة، لن تدوم لأنك ستكتشفين أن هذا الشخص، ربما كان امرأة، هو متعجرف ومتكبر و... ستبتعدين عنه بمطلق الأحوال، هذا يكون خيراً لك.

فهمت ميمي ماذا تقصد «العجوز» فضحكت ثم أخذت فنجان ليال وقدمته إليها. نظرت «العجوز» إليه بنوع من القرف، برمته بين أصابعها، صمتت قليلاً ثم قالت:

ـ ست ليال عندك سفرة، ستغادرين إلى الخارج.

ـ هل هذا صحيح؟ سألت ميمي.

قلبت ليال شفتها السفلى ولم تجب، فتابعت «العجوز»:

ـ أنا متأكدة، الطريق مفتوحة وواضحة، انظري ميمي ألا ترين «الطيارة» هنا؟

ـ لا أرى شيئاً، لكن أكملي.

ـ ربما التقيت بشخص هناك وعدت معه.ثم نظرت إلى ليال وتابعت: أنت غير متزوجة...؟

ـ لا! تعيش وحدها، قالت ميمي وهي تضحك، ثم إنك تعرفين ذلك، لماذا هذا السؤال؟

ـ للتأكد، لكنها ستفعل، إن شاء الله، قريباً. وأعادت الفنجان إلى مكانه.فقالت ميمي:

ـ هذا كل شيء؟ لا! لن نتركها تسافر، لقد اعتدنا عليها وبدأنا نحبها. ثم اقتربت من ليال، قبلتها على خدها وتابعت: إنها جارة ممتازة و«قد حالها».

كانت ليال في وادٍ وهما في واد. هي تفكر بسوء الحالة وهما تتراشقان الكلام الملغوم الذي لا تفهمه. بعد قليل اقتربت «العجوز» من ميمي وأخذتا تتكلمان بصوت منخفض، فاعتذرت منهما ليال قائلة: «أريد أن أستلقي قليلاً في السيارة، شكراً على كل شيء».

ـ أضع لك وسادة هنا، قالت ميمي.

ـ اتركيها على راحتها، أجابت «العجوز». لكن ليال كانت قد ابتعدت وتركتهما.

ـ ١٦ ـ

بعد أيام عادت ليال إلى الجامعة، في الصف وقع نظرها على سهام جالسة بين الطلاب. بعد المحاضرة رافقتها إلى المقهى وسألتها عن جديدها، لكن سهام ظلت شبه صامتة، وحين تركتها كانت حزينة جداً. وفي لقاء ثانٍ لم تخرج سهام عن صمتها، لكن حين ألحت

عليها ليال بالأسئلة، سحبت من محفظتها أوراقاً وضعتها أمامها وقالت: «تستطيعين قراءتها الآن إن أردت». فتحت ليال الأوراق وإذ بنص عنوانه: «معجزة هي جلساتك». طوت الأوراق من جديد وقالت: «سأقرأها في البيت».

ـ كما تريدين، لكني أود أن أعرف رأيك فيها، أنا لا أستطيع أن أتكلم كما أكتب، في الكتابة لا أكذب كما في الكلام المباشر بل أكون أمام ذاتي أقرأها كما هي وأقولها على الورق كما هي.

ـ سأعطيك رأيي بكل حرية وتجرد وموضوعية، لا تخافي.

ـ هذا ما أخاف منه، أنا لا أحب الموضوعية في المسائل التي تطال الإنسان في صميمه. كيف نستطيع التجرد أمام إنسان يتعذّب و...صمتت.

كانت ليال تقاسمها الرأي، لكنها قالت: «سأكون موضوعية بالنسبة إلى الشكل، أما بالنسبة إلى المضمون فسأكون منحازة، هل هذا يرضيك؟» ونهضت تريد الذهاب.

ابتسمت سهام، وقفت بدورها وسارتا معاً إلى حيث سيارة ليال التي قالت: «والآن إلى اللقاء».

ـ لماذا لا تودعينني بقبلة كما يفعل الأصدقاء، ألست صديقتك؟

ـ نعم، وخذي قبلتين بدل القبلة.وافترقتا.

في البيت فتحت ليال الأوراق التي أخذتها من سهام، كانت تريد إشباع نرجسيتها، لأنها فهمت من العنوان أن القصيدة تتكلم عنها، وقرأت:

«.... أعرفتِ الآن، لماذا لم يعد عندي شيء أقوله، لأنك أفرغتِ

مني حمولة العمر، ونفضتِ عني بقايا الدهر، وطهرتِ نفسي من قوانين البشر، صدفة صرتُ، متداخلة على نفسها، الليل البارد أصبحتُ، بعد أن عرفتِ، بعد أن سألتِ عن علاقتي المشبوهة، وشككتِ بمضامينها المحرمة، بت أشك بنفسي أنني كنت كذا وكذا، لكن لهفتي في أن أُحلق وأتغير للجديد كانت موازية لهذا الشك، وهل من تعود الوصال المحرّم يتغير، حرام... حلال، كرهت هذه الكلمات، «من يرى عورة الآخر، يحاسب»، ونحن يومياً نرى عورات كل البشر وللآن لا حساب، ليس هذا ما أخافني العلاقة المحرمة، كما يسمونها، لكن السبب أنني كسولة جداً في ممارسة الحب، لكنني عاشقة روح، دون جسد».

الفصل الثاني

- ١٧ -

اقتربت عطلة الربيع وانتدب زوج ميمي للسفر إلى الخارج لمتابعة علاقات الشركة التي يعمل فيها، وأخذت ميمي تخطط للمرحلة الآتية. حان الوقت، سافر الزوج وأخذت ميمي أولادها إلى الجبل حيث يسكن أهلها، تركتهم هناك وعادت وحدها إلى البيت. كانت تعلم أن ليال هي أيضاً في عطلة وقررت أن تمضي هذه الفترة معها، لكن كيف؟ كيف ستتحرر من العجوز التي بدأت غيرتها من ليال تظهر أكثر فأكثر. «مهما فعلت فهي لا تستطيع الكلام عني لأن ذلك يطالها هي أيضاً، إنها تخاف جداً على سمعتها. هل حكم عليّ أن أبقى مع هذه الجارة؟ ما عدت أحبها، كل ما يستهويني الآن هو ليال وسأصل إليها».

كانت ليال، من جهتها، قد قررت أن تمضي العطلة في منزلها لتقوم ببعض الكتابات الخاصة التي توقفت عنها في فترة التدريس. وضعت كل ما يتعلق بالجامعة جانباً، فردت أوراقها الخاصة على المكتب وأخذت تقرأ ما كانت قد كتبته سابقاً كي تستعيد الأجواء

التي كانت فيها، قبل أن تتابع. كانت تعلم كم هو صعب الدخول مجدداً في عمل ماضٍ وبعد فترة انقطاع. نجلس أمام أوراقنا ونتمنى لو يأتي حدث ما، يشغلنا كي نهرب من عملية الولوج هذه، أي شيء نتمسك به ونبرره لتأجيل البداية تلك.

كانت ليال شاردة أمام أوراقها حين سمعت باب بيتها يطرق، لم تتأفف كعادتها، بل تركت عملها الذي لم يبدأ وركضت تفتح الباب. لأول مرة استقبلت ميمي بوجه بشوش ودعتها للدخول:

ـ لدي الآن بعض الوقت، تفضلي، سنشرب القهوة معاً.

فرحت ميمي بهذا الاستقبال، شعرت أنها ستنجح في استمالة ليال إليها، ولكي تخفي انفعالها قالت:

ـ لن أتأخر، لا أريد إزعاجك، إن كنت مشغولة سأعود لاحقاً.

ـ لا، لا، ادخلي، لا إزعاج إطلاقاً.

كانت ميمي تريد أن تسمع هذا الإصرار، فهو دليل قبول ليال لها.

ـ البدايات هي دائماً صعبة، قالت ليال. كانت لا زالت تفكر بعملها وبصعوبة البدء فيه من جديد. لكن ميمي لم تفهم ذلك وأجابت:

ـ حين نحب لا تعود البداية صعبة إذ أننا ننجر إلى ما نحب من دون خيار ولا تردد.

ـ صحيح، لكن عالم الكتابة مختلف. لكن ما لنا ولهذا الموضوع الآن، كيف ستمضون العطلة، هل خططتم شيئاً للأولاد؟

ـ زوجي سافر، الأولاد عند أهلي في الجبل وأنا وحدي هنا، أريد أن أرتاح قليلاً. وجود الزوج بشكل دائم يزعج والأولاد مسؤولية

كبيرة وبخاصة في حالات القصف والضرب، لهذا السبب أرسلتهم إلى بيت جدهم كي أبعدهم عن جو الحرب قليلاً، هكذا الأمر أسهل بالنسبة لي، هم بأمان وأنا أستطيع التحرك بسرعة وحرية أكبر.

ـ معك حق، لكن ماذا ستفعلين وحدك؟

ـ سأتفرغ لنفسي، أرى الأصحاب ومن أحب، يحق لي أن أعيش حرة ولو لفترة قصيرة.

ـ طبعاً، طبعاً، كلنا بحاجة إلى الوحدة من وقت لآخر.

ـ أنت دائماً وحدك، ألا تملين هذه الوحدة؟

ـ أحياناً، لكني أحب وحدتي ولدي أعمال كثيرة أقوم بها، لا أمل ولا أشعر بالضجر.

ـ أحسدك على وضعك، كم أتمنى أن أكون في مثل حالتك. لو عاد الأمر لي منذ البداية لما كنت تزوجت ولا أنجبت ولا...

ـ ولماذا فعلت إذاً؟

ـ نصيب. على البنت أن تتزوج في مجتمعنا وإلا قيل فيها الكثير وعاشت مع أهلها وتحت رحمتهم. كم كنت أود أن أكمل دراستي، لكن ما في حظ.

ـ أكمليها الآن، لديك الوقت الكافي لذلك.

ـ زوجي لا يريد، المرأة للبيت بالنسبة إليه. على كل حال، آراؤه لا تعجبني، ما عدت أحبه، كان شيئاً وأصبح شيئاً آخر بعد الزواج.

ابتسمت ليال وقالت:

ـ دائماً الحب يخف بعد الزواج والعلاقة تأخذ معانيَ أخرى، تصبح مشاركة في المسؤولية، تتحول إلى تفاهم على أمور معينة تتعلق بالبيت والأولاد و...

ـ لا تفاهم ولا حب، أقسم لك، كل ما يهمه أن يجد الطعام حاضراً وأن أكون جاهزة في السرير لكي يشبع حاجاته الجنسية.

ـ هذا دليل حب إن كان يشتهيك دائماً.

ـ تظنين؟ الرجل لا يشتهي إلا الإفراغ، فهو لا يهتم بأمر المرأة إطلاقاً، وحين تنتهي العملية يصبح كقطعة صخر لا تعني لي شيئاً، بل أحياناً كثيرة أكرهه.

ـ لماذا لا تتصارحان؟ أخبريه عن مشاعرك ومتطلباتك، ربما تغير وتحسنت العلاقة.

ـ أخجل من فتح الموضوع معه لأن المرأة، باعتقاده، هي للإنجاب ولتدبير البيت ولتربية الأولاد فقط. وأكثر من ذلك أقول لك أن أغلب الرجال هم هكذا. كل صديقاتي يخبرنني عن أزواجهن ولا أرى أي فرق بينهم. صمتت قليلاً ثم تابعت: بالحقيقة أنا لا أحب الرجال، لا أحب هذا الصنف من البشر، لست أدري كيف تزوجت وتورطت. لو لم يكن عندي أولاد لكنت طلقت وعشت حياتي كما أريد.

أمام صمت ليال سألت ميمي: «ما رأيك أنت؟ ... إنه واضح على كل حال بدليل أنك لم تتزوجي».

ـ أنا لم أتزوج لأنني أريد أن أكون حرة، لست ضد الرجل على الإطلاق، لكنني ضد الارتباط الذي يترتب عليه واجبات، أنا مع العلاقة الحرة القائمة على التفاهم والحب، فهي تستمر طالما هي

ناجحة. وعند الفشل، كل واحد يذهب في حال سبيله من دون مراسم ولا دعاوى ولا...

ـ هل جربت ذلك؟

ـ طبعاً، وأدركت أن لكل علاقة نهاية. فهي لا تستمر مدى الحياة لأنها قائمة على شخصين كل منهما له نمط تطوره الذي يختلف عن نمط الآخر، وقليلاً ما يتماشى النمطان معاً كي تستمر العلاقة، لهذا السبب نرى أن أغلب العلاقات الزوجية وغيرها تنتهي.

ـ ماذا يفعلان حين تنتهي، هل يطلقان؟

ـ في الزواج حيث الأولاد والمسؤوليات الأخرى، تستمر العلاقة. عندما تنتهي فعلاً، تستمر بشكل روتيني، وذلك لإنقاذ النتائج فقط. والرجل كما المرأة، في هذا الوضع، يكونان في حالة إحباط، وكثيراً ما يبحث الرجل عن علاقة أخرى تساعده على الاستمرار في العلاقة المنتهية مع زوجته، والمرأة تفعل مثله أحياناً كثيرة، كل ذلك ضمن السرية المطلقة.

ـ يكذبان على بعضهما البعض إذاً.

ـ والمضحك أنهما في بعض الأحيان يعلمان بذلك و«يطنشان». مسرحية لا أكثر ولا أقل. أما في العلاقات الحرة فلا داعي لكل هذا التمثيل على الذات وعلى الآخر.

ـ إذاً أنت ضد الزواج، لكن كيف يستمر المجتمع وأين تذهبين بالأولاد؟

ـ أنا لست ضد الزواج بالمطلق. أنا معه لمن يريده وضده لمن لا يريده. لا أحاكم وليس لدي أي تقييم للموضوع. لكن كما أنني لا

أحاسب من يريد الزواج والانخراط في المجتمع ولعبة التكاثر، أطلب منه أن لا يحاسب من لا يريد الزواج ويفضل الحياة الحرة.

ـ إذا عملنا برأيك انتهت البشرية.

ـ لا تخافي، هؤلاء الذين أتكلم عنهم هم قلة لا يشكلون خطراً على المجتمع ونموه العددي. أتعتقدين أن الكثير من الناس يتحمل الوحدة والحرية؟ لا، هذا أمر صعب، غالباً ما نفضل المشاركة المزعجة على الوحدة الصعبة والقاتلة إن لم تكن مطلباً واعياً لتحقيق الذات.

كانت ليال تتكلم وميمي تفكر بوضعها. هي أيضاً تملأ فراغ علاقتها بزوجها مع تلك العجوز. هل تطرح على ليال السؤال الذي أخذ يتشكل في رأسها؟ تلعثمت قليلاً، تأتأت ثم قالت كأنها أخذت جرعة منشطات:

ـ ست ليال، توقفت قليلاً كأنها تبحث عن كلمات تعبر عما تريد قوله من دون أن تقوله مباشرة، ست ليال، رددت: هل تكون المشاركة دائماً بين رجل وامرأة؟

ـ ماذا تعنين؟ الزواج، عادة، هو بين رجل وامرأة، هذا هو السائد وهذا ما نتكلم عنه.

خافت ميمي من متابعة سؤالها وصمتت، لكن ليال لم تصمت بل تابعت:

ـ نتكلم، طبعاً، عن الزواج ولا نتكلم عن علاقة حب أو غيره. صمتت بدورها. لا تريد قول المزيد لأنها لا تعرف ميمي جيداً ولا تعرف طريقة تفكيرها.

لكن ميمي التي شجعها قول ليال الأخير لأنها تحسست فيه نوعاً من الانفتاح، قالت، كأنها تريد استدراج ليال إلى المتابعة: «علاقة الحب هي دائماً بين رجل وامرأة وقد يؤدي ذلك إلى الزواج وقد لا يؤدي فتكون العلاقة حرة كما تسمينها. لكن أحياناً...» وصمتت.

ـ أحياناً ماذا؟

حولت ميمي نظرها عن ليال، ووجّهته نحو الأرض وقالت بنوع من الخجل: «ما رأيك بالهومو»، homosexualité؟ رددت بالفرنسية.

ـ آه، فهمت ماذا تقصدين. إنها حالات موجودة في الطبيعة وفي المجتمع. أحياناً يغرم رجل برجل وامرأة بامرأة. هذه الحالات لا تشكل القاعدة، لكنها موجودة.

فسارعت ميمي إلى السؤال: «وما رأيك بها؟».

ـ لا رأي لي، بمعنى أنني لا أحاكم أخلاقياً هذه العلاقات، ألاحظ وجودها وأقبلها لأنها موجودة. قبولي لها أو رفضي لها سيان، فهما لا يغيران الواقع.

ـ يعني أنك تؤيدين هذا النوع من العلاقات.

ـ كيف فهمت ذلك؟ قلت لك أنها موجودة ومن يريد أن يمارسها ويعيشها فهو حر، لا علاقة لي به، إنها تعنيه شخصياً. لكل منا ميوله ورغباته التي يحققها كما يشاء.

ـ هل هذه العلاقات هي علاقات شاذة كما يسمونها؟

ـ إنها شاذة عن القاعدة، نعم، لأن القاعدة هي العلاقات المختلطة أما العلاقات المثلية فهي خارج القاعدة، لهذا السبب تسمى بالشذوذ.

ـ هل الشذوذ هنا يعني المرض؟

ضحكت ليال وقالت: «هذا هو السائد، لكني لا أرى في ذلك مرضاً، أرى فيه خروجاً على القاعدة المألوفة فقط».

ـ وهل الخروج على هذه القاعدة المألوفة عيب؟

ـ العيب هو تقييم أخلاقي وأنا، كما قلت لك، ضد التقييم الأخلاقي في هذا الموضوع، أنا مع الحرية الشخصية، طالما أن هذه الحرية لا تؤذي الآخر فهي، برأيي، مباحة.

ارتاحت ميمي لقول ليال هذا وما عادت تدري إن كان من اللائق متابعة الموضوع أو وقفه عند هذا الحد. فكرت قليلاً ثم قالت: «الكل لا يفكرون مثلك، أنت متسامحة. ماذا تعلمين في الجامعة؟».

ـ لا أطلب من أحدٍ أن يفكر مثلي، هذا هو رأيي ولكل واحدٍ رأيه وهو حر فيه.أما في الجامعة فأعلم الأنتروبولوجيا.

لم تفهم ميمي ما تعلمه ليال، لكنها أدركت، بذكائها الفطري، أن متابعة الموضوع لا تجدي. وحدست أن إمكانية استمالة ليال إليها ليستِ صعبة ولا مستحيلة طالما هي بهذا الانفتاح، ولهذا السبب قالت:

ـ أستأذن الآن، الموضوع شيق، نتابعه لاحقاً إن أردت، سأنصرف وأتركك لعملك، لكني أشدد عليك أن لا تتأخري في طلب أي شيء مني، أنا الآن وحدي ويسرني جداً أن أدعوك إلى الغداء أو إلى العشاء، أترك لك حرية اختيار الوقت الذي يناسبك.

ـ شكراً على اهتمامك بي، سنرى.

ـ إن تركتُك على مزاجك، ربما خجلت من دعوة نفسك، فلنحدد الموعد الآن، ما رأيك بتناول العشاء معاً غداً؟ سيكون بسيطاً جداً.

ـ سنرى سنرى.أجابت ليال بخجل.

ـ لا، أريد جواباً لكي أتمكن من القيام ببعض التحضيرات.

ـ لا داعي لذلك، فإن كان لديّ الوقت سأزورك وآكل مما هو موجود، لا تتعبي نفسك بتحضير أي شيء.

ـ إذاً اتفقنا بالنسبة إلى الغد؟

فكرت ليال قليلاً كأنها تتذكر مواعيدها، ووافقت على اقتراح ميمي. فتوادعتا وتركت ميمي بيت ليال وهي تردد: «إلى الغد، لا تنسي أنا أنتظرك».

ـ ١٨ ـ

أقفلت ليال باب بيتها وعادت إلى مكتبها تحاول المباشرة في العمل. وأمام تشتت أفكارها، هربت من جديد، دخلت المطبخ وأخذت تتلهى بتحضير فنجان من القهوة. أما ميمي فقد دخلت بيتها وأخذت تخطط لحيلة تبعد عنها تلك العجوز، لأنها تعلم جيداً أنها ستلازمها كل فترة غياب زوجها، وأكثر من ذلك ستظن أن ميمي أبعدت أولادها لكي تتفرغ لها. هذا، فعلاً، ما فكرت به العجوز، ولهذا السبب ما كادت ميمي تمكث في بيتها لدقائق حتى رن جرس الهاتف:

ـ ألو أين كنت؟ لقد اتصلت بك مرات عديدة ولم أجد أحداً.

ـ ذهبت لشراء بعض الأغراض.

ـ والآن عدت، أنا آتية حالاً، مسافة الطريق فقط.قالت العجوز، وأقفلت الخط.

أقفلت ميمي الخط بدورها وهي مشمئزة من ملاحقة العجوز لها وقررت أن تبتعد عنها وتفهمها بأنها لا تريد الاستمرار كما كانت، لكن تفكيرها لم يدم طويلاً إذ أتت العجوز التي حين دخلت أحاطت ميمي بذراعيها وأخذت تقبلها وتقول: «لقد اشتقت إليك كيف حال الأهل؟».

ـ بخير، قالت ميمي وهي تدفع العجوز عنها بلطف.

ـ الآن أنت وحدك هنا، لا يهمك، أنا أستطيع أن أنام عندك، أولادي شباب ويستغنون عني بسهولة.

ـ لا، شكراً، أنا لا أخاف، ثم إن البناية مليئة بالجيران، لست وحدي، ولا داعي لإزعاجك.

ـ ما هذا القول؟ أنت تزعجينني؟ ولو يا ميمي يا حبيبتي؟

ـ أفكر بأن أمضي هذا الوقت وحدي، أريد أن أرتاح، لهذا السبب أوصلت الأولاد إلى الجبل، أريد فترة من الراحة لا يزعجني فيها أحد.

ـ وهل أزعجك أنا؟ لا أعتقد، أنا أيضاً أريد راحتك، لكني أحبك وأغار عليك، وإن كنت تريدين الراحة فسأتركك اليوم لوحدك وأراك غداً. سنمضي الوقت معاً، سأجعلك تتمتعين كما يروق لك، الآن الجو خالٍ فلا رقيب علينا ولا خوف.

ـ أفكر في الذهاب إلى الجبل حيث الأولاد، اشتقت إليهم، بالأرجح لا أكون هنا غداً، سأرتب البيت في الصباح وأرحل بعد الظهر.

ـ كما تريدين، لكن هل تمكثين طويلاً في الجبل؟

ـ لا أدري، تعلمين أن فريد يعود بعد أسبوع، لست مستعجلة للعودة.

ـ تتركينني أسبوعاً كاملاً؟ قالت العجوز بنوع من التوتر، كنت أنتظر مثل هذه المناسبة لكي أنفرد بك ونعيش معاً أمتع الأوقات، أنا لست مرتاحة أبداً لتصرفاتك. أم أن هذه المتعجرفة بدأت تستهويك؟ لا تتوهمي، أنا متأكدة من أنها لن تتجاوب معك، حدسي يقول لي بأنها ليست كما تظنين.

ـ أين ذهب خيالك، لا أفكر بأحد كما تعتقدين. لقد مللت نفسي وأريد العودة إلى زوجي وحده.

ـ ومن يمنعك من ذلك؟ أنت لزوجك وحده وما بيننا لا يغير علاقتك به.

ـ هل تظنين ذلك فعلاً؟ أنا ما عدت أستمتع مع زوجي، بدأت أرفضه، لا تقولي أن علاقتنا لا تؤثر في الموضوع.

ـ يعني تريدين الابتعاد عني، ألا تعلمين كم أحبك وأريد مساعدتك و..

وقبل أن تتابع، أجابت ميمي: «إن كنت فعلاً تريدين مساعدتي فعلينا أن ننهي علاقتنا».

ـ لا، وألف لا، وإن فعلت سأقول لزوجك كل شيء.

ضحكت ميمي وقالت بكل هدوء: «لا، لن تفعلي، أنت أيضاً تخافين على سمعتك ولا أظنك ترغبين في تشويه صورتك أنت

التي تحاولين المستحيل للمحافظة على هذا القناع الذي لا يفارق وجهك».

ـ حين أتأكد من أنك تركتني فلا أعود أبالي، سأفضح أمرك وإن كان ذلك فضحاً لأمري.

ـ افعلي ما تشائين، سأقول أنك مجنونة وتهلوسين. وزوجي سيصدق كلامي لا كلامك أنت.

ـ أنت لا تريدين العودة إلى زوجك، أنا متأكدة لأنك لا تحبين الرجال. أنا واثقة من ذلك، حدسي لا يخطئ، إنك تحاولين إغواء ليال، وهذا ما يزعجني. أن تعودي إلى زوجك فأنت حرة، أما إن استملت ليال وأصبحت عشيقتها فلن أسكت ولو كلفني الأمر حياتي.

ـ على كل حال أنا سأصعد إلى الجبل وسأبقى مع الأولاد إلى حين عودة زوجي. هكذا سيكون لدي الوقت للتفكير بكل هذه المواضيع.

ـ أوافق، إذهبي إلى حيث أولادك، أنا مستعدة للتضحية إن كنت حقاً لا تميلين إلى امرأة أخرى وبخاصة هذه الـ«ليال» اللعينة.

ـ إذاً أتصل بك عند عودتي، والآن وداعاً.

تركت العجوز بيت ميمي وأخذت هذه الأخيرة تخطط لعشاء الغد مع ليال.

ـ ١٩ ـ

أما ليال، وبعد ذهاب ميمي، فعادت إلى التخبط مع أفكارها علها تدخل في عالمها الخاص. شربت قهوتها بهدوء وهي تقلب أوراقها،

تقرأ نتفاً منها ثم تغوص في التفكير. لكن الأمر لم يدم طويلاً إذ رن جرس الهاتف على مكتبها، ترددت قليلاً قبل أن تجيب: «إنها هي لا شك عندي». وأتاها صوت سهام مرتجفاً كأنها خائفة: «أنا لا أزعجك، فالوقت ما عاد باكراً، اشتقت إليك وأمضيت أكثر من ساعة أتردد قبل أن أطلبك، هل أقفل الخط؟».

ـ لا تقفلي الخط، أخبريني ما جديدك؟

ـ ليس من جديد سوى أني مشتاقة إليك، الجامعة مقفلة في هذه الفترة، فأين أراك؟ هل تسمحين بأن أزورك أو أدعوك إلى المقهى على شاطئ البحر؟ أريد أن أكلمك، لدي الكثير لأقوله لك، لقد كتبت أشياء عديدة وأريد رأيك فيها.

ـ تكتبين بشكل جميل، تابعي. لقد قرأت النص الذي تسلمته منك في المقهى، إنه فعلاً جميل، تابعي، لا تخافي، سأقرأ كل ما تكتبين.

ـ لكن كيف أراك؟ هل تقبلين دعوتي إلى الغداء اليوم؟

ـ لا، شكراً، لكني سأذهب إلى مقهى الحمرا في الساعة الخامسة، أراك هناك.

ـ المقهى يعج بأصدقائك وأنا خجولة. لن تعيريني أي اهتمام إن كنت مع أصحابك. ما رأيك لو التقينا في مقهى الروضة، ففي الخامسة يكون شبه خالٍ، أراك لساعة ثم تنصرفين أو أنصرف أنا، كما تريدين.

ـ لا مانع عندي، فالأصدقاء ينتقلون بعد مقهى الحمرا إلى الروضة، سأراهم هناك. حسناً، نلتقي في الخامسة.

فرحت سهام بقبول ليال اقتراحها لأنها تتوقع أن تكون نور في مثل هذا الوقت في مقهى الروضة. إن أتت فعلاً، فستموت غيظاً حين ستراها مع ليال، وتكون سهام قد ثأرت منها ولو ظاهرياً. وليال، من جهتها أيضاً أخذت تتساءل لماذا تريد سهام أن تراها وحدها في مكان عمومي، هل تريد أن تحرجها أو الإيحاء للآخرين بأنها صديقتها؟ «لكن الأمر لا يهمني وليفكر الآخرون ما يريدون، أنا أعرف نفسي ولا أبالي بكل أنواع الشائعات».

بعد الظهر دخلت ليال مقهى الروضة الذي كان خالياً من الزبائن كما توقعت، جالت بنظرها في أرجائه وإذ بسهام جالسة إلى طاولة منزوية، تنظر إليها وتبتسم. اقتربت منها وصافحتها، لكن سهام التي لم تعجبها المصافحة باليد أكملتها بالقبل على وجنتي ليال. وجلستا.

ـ كيف حالك يا سهام وما جديدك؟ قالت ليال وهي تنظر إلى الأوراق أمام سهام.

ـ هذه قصائد كتبتها لك.

مدت ليال يدها لتأخذ الأوراق، فقالت سهام: «هل تريدين قراءتها الآن؟ إنها كثيرة وسيمضي الوقت من دون أن نتحدث، إنها لك، خذيها معك، أنا أحتفظ بنسخة، ستقرئينها في البيت، أرجوك».

ـ كما تريدين. أخذت ليال الأوراق، قرأت العناوين ثم طوتها ووضعتها في حقيبتها.

بعد أن أتت البيرة التي اقترحت سهام تناولها، ساد الصمت بينهما. سهام تنظر إلى الأرض وخلسة إلى ليال، وليال تنظر إلى سهام كأنها تطلب منها أن تبدأ الكلام، وأمام استمرارها في الصمت،

قالت: «سهام، دعوتني إلى المقهى لنتكلم، فما عندك، هيا».

ـ لا أدري لماذا أفقد كلماتي بوجودك، حين أكون وحدي أجد نفسي مليئة بالكلمات الجميلة الموجهة إليك، وحين أراك أنسى كل شيء، إنك تقمعينني.

ـ لو أردت قمعك لما لبيت دعوتك، هيا، قولي ما عندك.

سمرت سهام عينيها في كأس البيرة وقالت: «بدأت أكرهها» وصمتت تنتظر ردة فعل ليال، لكن هذه الأخيرة ظلت صامتة. «بدأت أكرهها» رددت سهام ثم تابعت: «لكنك لا تساعدينني».

ـ كيف أساعدك؟ أحاسيسك هي ملكك، أنت وحدك قادرة على مساعدة نفسك، ثم أود أن أقول لك أن الكراهية هي الوجه الآخر للحب، وهذا يعني أنك لم تنتهِ منها بعد.

ـ وكيف أنتهي وقد حطمت حياتي؟ سأحطمها قبل أن أبدأ حياتي.

ـ ابدئي حياتك وستتحطم وحدها.

ـ حياتي؟ أبدأ حياتي؟ كيف؟ هي رفضتني وأنت ترفضين حتى مصادقتي.

ـ أنا لا أرفض صداقتك. ثم أليس من وجود لغيري وغيرها في هذه الدنيا؟ إنها مليئة بالناس الطيبين وعمرك يسمح لك بأن تصادقي الكثيرين، يكفي أن تريدي ذلك.

ـ اسمحي لي بأن أكون فجة معك.أنت تعلمين جيداً ماذا أريد. أقولها بالفم الملآن، لا أحب الرجال، أريد امرأة، لا يستميلني إلا جنس حواء، ماذا أفعل؟ أنتحر؟ أنهي حياتي؟

ـ لا، لا داعي للانتحار وإنهاء الحياة.

ـ المجتمع يرفضني وأنت ترفضينني وهي رمتني كثوب وسخ. فماذا بقي لي؟ قولي، قولي، رددتْ بصوت عالٍ.

ـ الأمور لا تحل بهذه الطريقة، قالت ليال وهي تقترب منها وتضمها، أنا لا أرفض وضعك بل على العكس أتفهمه وأريد مساعدتك، أنت شابة وألف شابٍ يتمنى أن يصادقك أو أن يغرم بك، لماذا لا تحاولين؟

ـ لا أحبهم. لقد جربت مؤخراً وقرفت.

ـ طبعاً تقرفين إن كنت لا تحبين فعلاً الشخص الذي جربت معه.

ـ هل الحب يأتي بكبسة زر؟ هل هو عمل إرادي؟ لا، وألف لا، أنا أحبك لا لأنني أريد ذلك، بل لأنني أرى جيداً في داخلي، أحبك وأود أن أكون صديقتك.

ـ نحن صديقتان كما اتفقنا سابقاً.

ـ صديقتان ولا تسمحين لي بزيارتك في بيتك؟ ما هذه الصداقة؟

ـ سيحصل ذلك حين أرى الوقت مناسباً، يعني حين تقبلين الصداقة كما أريدها أنا. أنت الآن غير قادرة على ذلك، وإن لم أستقبلك في بيتي حتى الآن، فلكي نبقى أصدقاء، أتفهمين ماذا أقصد؟

ـ أفهم، إنك تخافين مني ومن تصرفاتي، لكني أعدك، إن سمحت لي بزيارتك، أن أتصرف بكل لياقة وتهذيب. سترين. صمتت قليلاً ثم تابعت:أنا أحسد رولا رفيقتي في الجامعة. إنها صديقة أستاذة التاريخ، تذهب إلى بيتها وترافقها أينما توجهت، إنها فعلاً

محظوظة. لكنها ماذا تفعل حين يكون زوج الأستاذة موجوداً؟

كانت سهام تتكلم كأنها تريد من ليال أن تسألها عن اسم الأستاذة وعن وضعها وعن قصتها مع رولا، لكن ليال لاذت بالصمت. وأمام سكوت سهام، قالت:

ـ لكل واحد منا حياته التي يسيرها كما يريد. لا تنظري إلى الغير، مارسي حياتك بحسب قناعاتك.

ـ قناعاتي التي تكونت في هذا المجتمع اللعين هي مناقضة لميولي التي تعذبني، فماذا أفعل؟

ـ سأكون صريحة معك، ربما كان الحادث مع والدك هو الذي نمّى عندك هذه الميول ضد الرجل. عليك تخطي هذا الحادث. أنت فتاة واعية وذكية وقادرة على خلاصك.

فكرت سهام قليلاً ثم قالت: «تريدين الحقيقة؟ ما عدت أذكر تماماً إن كان ذلك الحادث قد وقع فعلاً. أحياناً كثيرة يتراءى لي أنه من صنع خيالي، كما لو أنني افتعلته لأبرر به ميولي الحالية. في الحقيقة ما عدت أدري إن كان قد حصل فعلاً أو أنه كان رؤية حصلت لي وأنا بين النعاس والنوم. رأيته يدخل غرفتي وأنا مستلقية على سريري، نام بجانبي وكان عضوه منتصباً، صرخت به فخرج مهرولاً واختفى. هل أتى فعلاً؟ هل كنت أحلم؟ لا أستطيع الجزم. كل ما أذكره الآن هو أنني كنت أغار على أمي منه، كنت أريدها لي وحدي، كنت أنزعج جداً منها حين كانا يدخلان غرفتهما ويقفلان الباب. ربما كنت أريد أن يفعل ذلك معي كي تكرهه أمي».

ـ لماذا أخبرتني القصة كأنها حقيقة والآن تشككين بصحتها؟

ـ هذه هي الحقيقة، أردت في البداية أن أضع اللوم على غيري، على سبب خارجي، لكنني أكتشفت الآن حقيقة ذاتي. لا أحب الرجال، لا أحبهم، لا أميل إليهم إطلاقاً. لي صديقة حصل بينها وبين أبيها علاقة فعلية ولم تكره الرجال، بل تزوجت وانتهى الموضوع، وأنا أتساءل لماذا أنا هكذا؟ فلو حصل ذلك فعلاً وكنت إنساناً طبيعياً لاستطعت تجاوز الأمر كما فعلت صديقتي، لكنني منذ صغري أكره الذكور.

ـ ٢٠ ـ

ـ ليال هنا؟ مرحباً.

نظرت ليال إلى الوراء وإذ بأحد أصدقائها يأتي نحوها. صافحته وطلبت منه أن يجلس معهما. فعل وهو يعتذر عن الإزعاج، لكن ليال بدَّدت هواجسه وبدأت معه الحديث مقدمة سهام كطالبة في الجامعة تناقشها بأمور دراستها. ثم أتى غيره وغيره إلى أن امتلأ المكان بالأصدقاء، فما كان من سهام إلا أن اعتذرت وغادرت وهي تقول لليال: «سأكلمك لاحقاً». كانت جد مغتاظة.

ـ شو يا ليال، تجالسين الصبايا الصغيرات، اتركي الأمر لنا، أم أن...؟ قال أحدهم وهو يضحك.

ـ لعنك الله، أجابت ليال، إن جلست مع طالبة، ذهبت شكوككم نحو السحاق وإن جلست مع طالب...

ـ يكون الأمر طبيعياً، إن أغرم طالب بأستاذته فهذا أمر مألوف، أم أن تغرم طالبة بأستاذتها فهذا....

ضحكت ليال، تغير الجو ودار نقاش في مواضيع عديدة. حين أغربت الدنيا اعتذرت ليال وعادت إلى بيتها. ارتاحت قليلاً ثم

فتحت حقيبتها وأخرجت منها أوراق سهام. كانت ترغب في قراءتها لكي تتعرف أكثر إلى شخصية هذه الطالبة التي تلاحقها. تصفحت العناوين أولاً ثم اختارت واحداً منها وهو «غيرة البحر» وأخذت تقرأ:

«سألت البحر، أمخطئة أنا بحقه، إن حاولت إلصاق تهمة العطاء بعينيها، قاتلة أكون، برحيلي لاتجاه معاكس. يئست الماضي وخبز الماضي، كرهت النبيذ الأسود، والجلسات الماضية، وحاولت أن أربط مساماتي نحو الأعلى...».

«إنني وضعتك ضمن مفاهيمي الخطيرة وأقفلت صوتي على أمل أن أرى هذا الصوت، لا بل ألتقط هذا الصوت....».

طوت ليال المجموعة الأولى من الأوراق وتمتمت: «إنها صبية موهوبة، صحيح أنها لا تتكلم كثيراً، لكنها تجيد التعبير عن ذاتها في الكتابة». ثم حاولت أن تبدأ بقراءة المجموعة الثانية، وإذ بجرس الهاتف يرن:

ـ هل تأخرت مع الأصحاب؟

ـ سهام، ما بك يا عزيزتي؟

ـ ماذا قالوا عني؟

ضحكت ليال وقالت: «اتهموني بك، هل يعجبك هذا؟».

ـ بالتأكيد، وماذا قلت لهم؟

ـ لم أنف ولم أؤكد، تركت حشريتهم متيقظة.

ـ جيد. يسرني ذلك. يا ليته صحيح. هل قرأت ما كتبت لك؟

ـ قرأت قسماً.

ـ وما رأيك؟

ـ تابعي، إنك تجيدين الكتابة، أفرغي ما عندك ولا تخافي.

ـ طبعاً، أكتب وأنت تشبعين نرجسيتك. ماذا قرأت؟

ـ غيرة البحر.

ـ أكملي أرجوك، وستقولين لي رأيك لاحقاً، سأتركك الآن، تصبحين على خير.

فتحت ليال المجموعة الثانية وإذ بها تحمل عنوان: «واقعية الخيال»:

«أتخيل ضفائرها الذهب، وأتخيل أنني منذ الفراعنة ولدت، عندما تفوح من عينيها رائحة هوميروس...».

ضحكت ليال وقالت لنفسها: «إنه غزل صريح، ماذا تريد هذه المسكينة؟ هل مساعدتي لها ستوقعها في خيبة ثانية؟» لكنها تابعت القراءة:

«صمتها والبلاغة توأمان، إن ضاع الأول أجاد الثاني الاعتراف. لا أسأل من أنت، إنما أحار في أن أعرف ممّ أنت، مجبولة مثلنا من تراب؟

«غريبة أنت، وكأن العالم يشبهك ولا تشبهين أحداً. عندما ولدتِ آمنت بأن الخلود كان لجسدك قبل أن يكون لروحك. لو عرف العلم أنك ستحبلين به لكان طهر نفسه من الزنى.

«عندما تردين التحية ولو بصمت، تجول في خاطري ملايين القصائد وتحضر إلي كل العفاريت، حاملة فانوس علاء الدين، لكن

لا أتمنى عندما أدغدغه، أن أحمل الصولجان، أو أسقط من حساباتي ألم الزمان. نعم، لا أطلب منه أن أحول كل ما أمسكه إلى ذهب، طالما يضعون التيجان على رأس أي كان، حتى الأسد.

«صديقتي، سوف أطلب منه أن أبقى مكتفية برد التحية، بصمتك، وبضحكة منك، عبر الأسلاك».

طوت ليال المجموعة الثانية وأخذت تفكر في كيفية متابعة العلاقة مع سهام، عليها أن تكون حذرة جداً في هذه العلاقة لأنها، وإن كانت واثقة من نفسها، كانت تخاف من انعكاسات السلوكات، أحياناً، غير الواعية على وضع سهام. «إنها، فعلاً، تقوم بما حذرتها منه، إنها تحقق «النقلة» التي لفتّ انتباهها إليها منذ البداية، سأعيد الكرة وأجعلها ترى جيداً في داخلها. وفي النهاية، إن كانت، فعلاً، سحاقية كما هو ظاهر، فما المشكلة، سأحاول أن أجعلها تقبل نفسها وتتصالح مع ذاتها. لكن إن تصالحت مع ذاتها فهل هذا سيحل مشاكلها؟ مصالحتها مع ذاتها ستضعها في موقع مجابهة مجتمعنا بكل تقاليده وأعرافه وقيمه، هذا المجتمع المنخور حتى العظم بأمراضٍ عديدة لا يرشح منها إلى السطح شيء. كله سراديب معتمة، وما السحاق إلا واحد منها، يمارس ولا يقال. في الغرب أصبح لهذا الواقع وجود علني لأنه تحول إلى قول، أصبح موضوعاً يفكر به ويبحث فيه عن حلول ونتائج، أما عندنا فهو مكتوم لأننا ما زلنا في مرحلة النمط السحري من التفكير. نعتقد أن السكوت عن واقع ما، يلغيه. نعم نلغيه من فكرنا ليعشش في أجسادنا ولاوعينا ولينعكس على كل سلوكاتنا من دون أن ندري. سهام عاشت تجربة الغرب، ولهذا السبب أفهم أنها تفصح عن حالها في الكتابة فقط وتعيش الانفصام الحقيقي بين واقعها الفعلي

وواقعها الاجتماعي «الطبيعي». سأساعدها وإن أغرمت بي، سأعرف كيف أخلصها من هذا الغرام».

بعد هذا الشرود الذي استغرق دقائق عادت ليال إلى أوراق سهام التي لم يبق منها سوى واحدة، فتحتها وقرأت: «أستغفر الله على كفري»، قالت ليال لنفسها، إن سهام كافرة بكل القيم التي تذلها وتحطمها». لكن حين بدأت القراءة رأت أن سهام تتابع الغزل.قرأت النص بسرعة وقالت لنفسها:

«ما هذه المثلنة؟ وهل تعتقد المسكينة بما تقول؟ لكنه بداية العشق، دائماً نمثلن كي نعشق لأن العادي والمكرر لا يشكل موضوعاً للحب.ربما أسعفتني هذه المثلنة، ستساعدني لأن سهام هي الآن جاهزة لتقبل كل ما أقوله لها».

- ٢١ -

وضعت ليال الأوراق جانباً وأوت إلى فراشها باكراً كي ترتاح وتستيقظ نشطة للقيام بأعمالها وللاستفادة من ليلة لا يعكر فضاءها صوت المدافع والانفجارات. نامت جيداً، لكنها استفاقت على صوت رنين الهاتف، فما كان منها إلا أن سحبت «الفيش» وأسكتت الرنين وهي تعلم أن من يطلبها هي سهام. لم ترد مكالمتها: «لست جاهزة بعد، أقطع خط الهاتف طوال النهار، يحق لي أن أعيش يوماً واحداً في عالمي الخاص». شربت قهوتها وبدأت نهارها الذي استمر من دون أي إزعاج وشعرت براحة جعلتها لا تستاء من قرع الباب في بداية السهرة، حين أتت ميمي لتذكرها بالدعوة إلى العشاء.

ـ طبعاً لم أنس، ولن أتأخر، سأرتدي ملابسي وألحق بك.

فتحت ميمي الباب ودخلت ليال. كان البيت شبه معتم فسألت: «هل انقطعت الكهرباء؟»

ـ لا، ادخلي وسأخبرك لاحقاً.

جلست ليال في الصالون واستعجلت ميمي بفتح علبة سجائر، وضعتها على طاولة صغيرة بالقرب من ليال التي جال نظرها في كل أرجاء البيت: النوافذ مقفلة، الستائر مسدلة، وحدها شمعة حمراء على طاولة السفرة، قبالة الصالون تنير هذا البيت الذي بدا وكأنه مدينة أشباح.

ـ لماذا لا تضيئين الكهرباء؟ لماذا هذا الجو؟

ـ سأشرح لك: لا أريد أن يعلم أحد أنك هنا وبخاصة تلك العجوز التي تعرفت إليها، هي «حشورة» وقد قلت لها أني ذاهبة إلى الجبل، لا أريد أن أراها. إن علمت بوجودي في البيت ستأتي من من دون استئذان وتعكر سهرتنا.

ـ ومِمّ تخافين؟ هل زوجك يستاء إن دعوت إحدى الصديقات في غيابه ولذلك لا تريدينه أن يعلم؟

ـ لا، لا، لكنها هي مزعجة.

قبل أن تنهي كلامها رن جرس الهاتف.

ـ إنها هي تتفقدني، لن أجيب.

ـ ربما ليست هي، ربما كان زوجك أو...

ـ لا، أنا متأكدة.

ظل جرس الهاتف يرن لوقت طويل وميمي لا ترد. كانت تتنقل في الغرفة أمام ليال التي، حين نظرت إليها جيداً استغربت ماذا

يحدث: ميمي ترتدي فستاناً شفافاً تحته «شنتان» صغير جداً. سمرت نظرها بميمي، أعجبت باتساق جسدها شبه العاري. هل تنسحب؟ هل تسأل ميمي عن سبب تعريها بهذا الشكل؟ رن جرس الهاتف من جديد، ضحكت ميمي وقالت: «لن تحل عن... هذه العجوز، لكنني لن أجيب، والآن فلننتقل إلى العشاء، لا أريد أن نضيع الوقت، هل تفضلين مشروباً معيناً؟ أنا أحضرت النبيذ الأبيض هل يعجبك؟».

ـ جيد النبيذ الأبيض، أجابت ليال وهي شاردة.

ـ إجلسي هنا وأنا أجلس بالقرب منك لكي أتمكن من سكب الطعام وهو بسيط جداً: سلطة الأفوكا مع القريدس، بعدها سمكة لقس مشوية ما زالت في الفرن ومعها صلصة حرة، هل يعجبك «المنيو»؟

ـ فعلاً اختيار ممتاز، أجابت ليال. هي لا تحب الأسماك، لكنها سايرت جارتها التي تعذبت وأحضرت ما تراه لائقاً.

سكبت ميمي النبيذ في كأس ليال ثم ملأت كأسها. رفعتها وهي تقول: «بصحتك يا جارتي العزيزة».

ـ بصحتك يا أجمل جارة، أجابتها ليال وساد الصمت. تلبكت ليال في إيجاد موضوع تحاور فيه جارتها، لكنها استقربت وباشرت بالسؤال عن الأولاد والزوج والأهل.

ـ أهلي يسكنون في الجبل. أمي امرأة قوية جداً، تقوم بكل الأعمال. والدي، الآن متقاعد ولا ينفع لشيء. لقد أمضى حياته هكذا، أمي كانت كل شيء في حياتنا. لدي أخوان، واحد متزوج

والآخر ما زال عازباً «ينطنط» من فتاة إلى أخرى.. صمتت قليلاً ثم تابعت: كيف تجدين فستاني؟

ـ إنه جميل فعلاً. يظهر كل مفاتن جسدك، لكن...

ـ لا أرتديه عادة هكذا، حين أخرج ألبس تحته قميصاً من الساتان. لكن الليلة لا داعي لذلك، إننا وحدنا، نساء...هل تلاحظين، لست بحاجة إلى «سوتيان» فما زال صدري واقفاً وصلباً.

ـ إنك ما زلت صغيرة. أجابت ليال وهي تنظر بإعجاب إلى ذلك الصدر المنتصب.

ـ لا تنسي أنني حملت مرتين ومع ذلك...انظري، انظري.

ـ حقاً، ألاحظ، قالت ليال وهي تمد يدها لتلمس. لكنها أوقفت حركتها وتراجعت: «ماذا تريد ميمي ولماذا هذا الإصرار على عرض مفاتنها؟».

قرع الباب. وضعت ميمي إصبعها على فمها وقالت بصوت منخفض: «هُس إنها هي، فلنصمت لدقائق علها تيأس وترحل». قرع الباب مرة ثانية وتبعه صوت العجوز: «ميمي هل أنت هنا؟». وبعد دقائق قليلة سمع صوت فتح باب المصعد وصوت حركته، فتنفست ميمي وقالت: «الحمد لله لقد ذهبت».

ـ لماذا هذا الإلحاح من قبلها؟ سألت ليال، إن كانت تريد الاطمئنان عليك فكان من الأفضل أن تفتحي لها الباب.

ـ أفتح لها وأنا بهذا اللباس ومعك أنت؟

لم تجب ليال وأخذت الشكوك تحوم في رأسها: «هل ميمي هي سهام ثانية؟ يا إلهي ما هذه الدهاليز وماذا يجري تحت سطح

الأرض وتحت القشور؟». لكنها قررت متابعة العشاء محاولة تجاهل إيحاءات ميمي الواضحة.

ـ الآن سآتي بالسمكة المشوية ونتعشى على رواق. ثم رفعت كأس النبيذ إلى فمها. أفرغتها وتوجهت إلى ليال: «إشربي إشربي. لماذا تتباطئين؟».

ـ أنا لا أشرب إلا القليل، شكراً.

دخلت ميمي إلى المطبخ وأتت بالسمكة، وضعتها على الطاولة ودنت من ليال حتى التصقت بها تريد أن تسكب لها، ارتعش جسد ليال من الملامسة، لكنها أبعدت عنها ميمي بلطف قائلة: «لا داعي للعذاب فأنا أسكب وحدي، لا تتعبي نفسك».

جلست ميمي في مكانها وقالت: «إنها لا تحبك وتتهمني بأنني أميل إليك أكثر منها».

ـ من هي؟

ـ تلك العجوز.

ـ وماذا تريد منك وما علاقتك بها؟

ـ إنها... إنها «لسبيان» وتحاول جرّي إلى عالمها.

ـ وأنت؟

ـ سايرتها لبعض الوقت. وقد مللتها الآن، وهي لا تفهم. تريدني لها وحدها، حتى إنها تغار من زوجي ومنك أنت بنوع خاص.

ـ ولماذا أنا وما الداعي؟

ـ لأنني معجبة بك وأتكلم أحياناً عنك وعن شخصيتك أمامها، لكن ما لنا ولها، فلنشرب القهوة في الصالون.

وقفت ليال وهي تقول لنفسها: «الله يمضي هذه الليلة على خير. ميمي جميلة جداً». وأتت ميمي بالقهوة. جلست بالقرب من ليال وأخذت تمسد على ركبتها، ثم قالت:«هل تنامين عندي الليلة، فأنا أخاف وحدي والتخت عريض؟».

لا، لا، لا أرتاح إلا في سريري. وإن كنت حقاً تخافين فباستطاعتك أن تنامي عندي. لدي غرفة ثانية وسرير إضافي، لكن إن فعلت، أطلب منك أن تغادري في الصباح باكراً لأنني لا أحب أن أستيقظ وأجد أحداً في البيت. قالت ذلك ووقفت استعداداً للذهاب. كانت تهرب من ذاتها، ميمي مغرية وجذابة.

ـ كما تريدين. سآخذ قميص النوم وأصعد معك.

كانتا في المصعد صامتتين ودخلتا بيت ليال صامتتين.

ـ هذه هي الغرفة، هذا هو السرير وهذا هو الحمام، تصرفي على راحتك. قالت ليال.

ـ شكراً، لكن هل ستنامين الآن؟ ما زال الوقت باكراً.

ـ سأدخل غرفتي وأقوم ببعض القراءات قبل النوم.

ـ ألا تجلسين معي قليلاً، أريد أن أحدثك.

جلست ليال معها لترى ما عندها بعد. لكن ميمي صمتت، دخلت في حالة حزن وشارفت على البكاء، دنت منها ليال وسألتها ما بها، فأجهشت بالبكاء وهي تقول: «من لا أحبه يحبني، ومن أحبه لا يحبني، أنا حقاً معذبة. لا أحد يفهمني». هل

تستدرج ليال إلى ضمها ومواساتها؟ هل بهذه الطريقة تريد الوصول إلى ما لم تستطع الوصول إليه بطريقة أخرى؟

ـ إنك أسرفت في الشراب، قالت ليال، سأحضر لك فنجان قهوة مُرّة بعده ستنامين وينتهي عذابك. قالت ذلك وتوجهت إلى المطبخ بسرعة، وعادت منه مع فنجان القهوة. وضعته أمام ميمي ودخلت غرفتها. أقفلت بابها وأوت إلى فراشها. وما هي إلا دقائق حتى سمعت نقراً على الباب.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريد أن أقول لك تصبحين على خير، افتحي الباب من فضلك.

فتحت ليال الباب فطوقتها ميمي بذراعيها والتصقت بها وهي تقول: «تصبحين على خير».

ـ وأنت بألف خير، قالت ليال وهي تضمها إليها.

بقيتا ملتصقتين لفترة، شعرت ليال بدفء جسد ميمي، استيقظت أحاسيسها وكادت... لكنها انسحبت من بين ذراعي ميمي وقالت: «هيا إلى النوم».

ـ هل تريدين أن أداعب شعرك كي تنامي؟

ـ لا، شكراً لست معتادة على ذلك أبداً وأستطيع النوم من دون مداعبات.

ـ إذاً تمددي بالقرب مني وداعبي شعري كي أنام، أحب ذلك.

أخذتها ليال من يدها ودخلتا الغرفة الثانية. تمددت ميمي على السرير وهي تقول: «تمددي إلى جانبي، فقط خمس دقائق».

ترددت ليال في تنفيذ ما تطلبه ميمي، ثم تمددت بالقرب منها وأخذت تداعب شعرها وتكلمها.

ـ كم أنت ناعمة وكم لمساتك رقيقة... أكره الرجال فعلاً. أرجوك تابعي.

ـ لماذا تكرهين الرجال؟ زوجك رجل طيب، وأظن أنه يحبك.

ـ أعرف، وأنا تعودت على الحياة معه، لكني لا أحبه في السرير. أشعر بنوع من الرعب حين يدخلني. أصبح كقطعة جليد. أفقد كل رغبة. كلما فعل ذلك أتذكر تحذيرات أمي قبل أن أتزوج.

ـ ومِمّ كانت تحذرك؟

ـ كانت تقول لي: «إفعلي ما تشائين مع الشاب، لكن لا تتركيه يمارس الجنس معك، هذا عيب وعواقبه وخيمة».

ـ هذا قبل الزواج، لأنها كانت تخاف عليك من الحمل و...أما الآن فالوضع تغير.

ـ هي أيضاً لم تكن تحب أبي. تزوجت به لأنه ثري ويؤمّن لها كل ما ترغب به. على كل حال هو عديم الشخصية، فهي تديره كما تريد. تصوري أنه كان لها صديقة تزورنا دائماً، وأمي كانت تقضي كل الوقت معها، تخرجان معاً ويفعلان كل شيء معاً.

ـ وزوج هذه الصديقة أين كان؟ هل كان مثل والدك؟

ـ كانت عزباء، لم ترغب يوماً بالزواج، كما كانت تقول لنا حين كنا نسألها. على كل حال الأمر لم يزعجنا يوماً لأنها كانت تهتم بنا كثيراً وتأتينا دائماً بالهدايا الجميلة.

ـ ووالدك كان يقبل بهذا الوضع؟

ـ مسكين والدي، كان أحياناً كثيرة يعطيها مكانه في السرير، فتنام مع أمي وينام هو في غرفة ثانية.

ـ وأنت كيف كنت تنظرين إلى هذه الأمور؟

ـ لم تكن تعني لي شيئاً في البداية، لكن الآن تراودني شكوك حول تلك العلاقة، لكن حتى الآن لم أجسر على طرح السؤال على أمي، فإن كانت تحب ذلك فما المانع؟

ـ لا مانع، ولكني بدأت أشعر بالنعاس. نتابع لاحقاً. والآن تصبحين على خير، سأذهب إلى غرفتي.

تفلتت ليال من ذراعي ميمي نهضت من السرير. قبلت ميمي على جبينها وخرجت.

أما ميمي فأمضت وقتاً طويلاً تندب حظها قبل أن تغفو، لكنها نفّذت ما طلبته ليال إذ أنها استفاقت باكراً وعادت إلى بيتها.

ـ ٢٢ ـ

ما كادت ميمي تغلق باب بيتها حتى رن جرس الهاتف، ومن دون طول تفكير رفعت السماعة.

ـ شو أنت هنا؟ متى عدت؟

ـ الآن، لقد صعدت إلى الجبل البارحة، وعدت اليوم باكراً.

ـ لكن سيارتك كانت في المرآب مساء أمس.

ـ بالفعل، أجابت ميمي من دون أن تتلعثم، لقد ذهبت مع أخي، واليوم أوصلني قبل أن يذهب إلى عمله.

ـ على كل حال أنا آتية إليك.

نظرت ميمي إلى طاولة السفرة ووضع البيت، تلبكت وأجابت: «لا داعي لمجيئك باكراً، أنا مشغولة قليلاً، سأرتب البيت، سأستفيد من فترة غياب الأولاد لأقوم بحفلة تنظيف كبيرة».

ـ سأساعدك، لا تحملي همّاً، إني آتية حالاً.

أقفلت ميمي الخط وركضت تنقل الصحون الموسخة إلى المجلى وتحاول ترتيب الوضع قدر المستطاع قبل أن ينفضح أمرها. لكن العجوز فاجأتها وأتت بسرعة. حين نظرت إلى البيت وإلى المطبخ ابتسمت ابتسامة صفراوية، هزت برأسها كأنها قبضت على ميمي في الجرم المشهود، ثم رفعت يديها وهي تنظر إلى ميمي بتعجب، فما كان من هذه الأخيرة ألا أن أخذت تتأفف: «أوف، الشباب لا يطاقون هذه الأيام، تصوري أن أخي عصام طلب مني البارحة مفتاح البيت لأنه كان يريد دعوة إحداهن إلى العشاء، تأملي هذه الفوضى التي تركها وكركبني بها». قالت ذلك بكل هدوء ومن دون أن يرف لها جفن، فارتاحت العجوز وقالت: «الآن فهمت... عندما رأيت سيارتك في المرآب انشغل بالي عليك فصعدت ورننت جرس الباب وكنت أشعر أن أحداً في الداخل، لكنني لم أسمع صوتاً، فعدت إلى بيتي، آه الآن فهمت».

فرحت ميمي لأن كذبتها انطلت على العجوز، وراحت تشغلها معها في تنظيف البيت، كأن شيئاً لم يكن، وفي وقت الراحة شربتا القهوة وقالت العجوز:

ـ ما رأيك لو دعونا صديقاتنا وقمنا بالحفلة السنوية المعتادة، الآن في فترة غياب زوجك؟ سنقيمها هنا طالما أنت وحدك.

ـ لا مانع عندي، نحدد موعدها بعد غد، أتصل أنا بالصديقات

اللواتي أعرف، وأنت بدورك اتصلي بمن تريدين.

اتفقتا على تحضيرات تلك السهرة وتركت العجوز بيت ميمي وهي مرتاحة ومطمئنة. أما ميمي فقد قبلت بأن تقام الحفلة في بيتها لأنها كانت تود أن تدعو ليال، وهذا ما لا تستطيعه لو أقيمت الحفلة في مكان آخر، لهذا السبب أخذت تخطط لرؤية ليال واستدراجها إلى القبول من دون أن تزعجها. حين قبلت ليال من دون تردد، استغربت ميمي الأمر وتأكدت من أن ليال هي مثلهن وبأن ما تظهره في الخارج ليس إلا قناعاً تخفي تحته شخصيتها الحقيقية. «الآن فهمت لماذا لم تتزوج ولماذا تعيش وحدها، حتماً لديها عشيقة، ولهذا السبب رفضتني. لكن إن كانت فعلاً مثلنا، فسأحصل عليها مهما تمنعت».

ـ وما نوع اللباس في حفلتكن؟ سألت ليال.

ـ كل واحدة ترتدي ما يحلو لها، أما أنت فأتمنى لو ترتدين الجينز وترفعين شعرك، لا تتركيه مسدولاً على كتفيك، ولا تتبرجي كثيراً، أنت جميلة بما فيه الكفاية، سيغرن منك كلهن.

ـ نعم لقد فهمت، وما هو الوقت المناسب للحضور؟

ـ بالنسبة إليك، لا وقت محدد، بوسعك المجيء ساعة تشائين. لكن زمن الحفلة محدد بالساعة الخامسة، تعرفين أن النساء لا يتركن بيوتهن في الليل، لقد تعودنا أن نلتقي باكراً، وكما يقول الإنكليز: إنها حفلة «فايف أوكلوك تي» بالنسبة إلى الأزواج والأهل.

ضحكت ليال وضحكت ميمي من كل قلبها لأنها شعرت أن ليال تفهمها جيداً.

- ٢٣ -

كانت ليال قد نسيت «فيش» الهاتف مسحوباً من مكانه طوال اليوم الثاني. حين انتبهت إلى ذلك عند المساء، أعادت تشغيل الهاتف، وما هي إلا دقائق حتى اشتغل وإذ بسهام:

- أين كنت كل هذا اليوم، أتصل بك ولا أحد يجيب؟

- كنت خارج البيت، ولماذا هذا الإلحاح؟

صمتت سهام للحظات ثم اعتذرت من ليال وسألتها إن كانت قد أكملت قراءة نصوصها.

- قرأتها كلها.

- وما رأيك فيها؟

- إنها جيدة.

- أهذا كل ما عندك؟

- لا، لكنني أريد أن أنبهك إلى ما سبق ونبهتك إليه في البداية؛ إنك تقومين بـ«نقلة» لن تحصدي منها إلا الخيبة، فانتبهي، وإن كنت غير قادرة على ذلك، فأنا سأتصرف.

- ماذا تقصدين؟

- أنت تعرفين جيداً ماذا أقصد.

- أتحرمينني من رؤيتك ومن الكلام معك؟

- ربما.

- أهكذا هي الصداقة؟ أترفضين مساعدتي؟

ـ لا أرفض مساعدة أحد، لكن لا أريد أن تكون مساعدتي له جرحاً جديداً.

ـ لا، لا، اطمئني. هل أراك غداً؟ لدي أشياء كثيرة أود قولها لك.

ـ دائماً تقولين ذلك وعندما نلتقي تصمتين.

ـ لا، هذه المرة لدي الكثير ولن أصمت.

ـ طيب، طيب، نلتقي غداً عصراً في مقهى الحمرا.

ـ تأخذينني دائماً إلى المكان الذي ترين فيه أصحابك.

ـ وما المانع؟

ـ لا شيء، لكن أود أن أراك وحدك.

ـ أفضل مقهى الحمرا، إلى اللقاء. وأقفلت ليال الخط.

بقيت سهام جامدة لا تعرف ماذا تفعل بعد هذا القول الحاسم لليال، لكنها كعادتها أخذت ورقة وبدأت تكتب:

«أحبك ولا شيء يمنعني عنك، إن رفضتني، فلن تصلي لقلبي وتلغيه، هواك مدفون، لن يصعد بالسكين، إن ابتعدت ورفضت أن تستمري، سوف تبقين الظل الذي يلاحقني، السهد الذي ينتظرني، والقمر الذي يضيء أوراقي وكتبي.

«أحاول أن أتدفأ بصمتك، فأحترق، أحاول أن أقطن في صدرك فينغلق، أحاول أن أختبئ في طيفك فأعرق. كيف يكون الهوى؟ أحبك وأحاول أن أجد في اللغة معنً آخر ووصفاً جديداً لما أعانيه.أنا في حالة خوف مصحوب بألم، صرت غريبة عن الإنس والجان.

«أحبك، افهميها كما شئت. أهواك، فسّريها كما يحلو لك. أحبك، لا تفهميها إلا كما أعنيها».

قرأت سهام ما كتبت وأخذت تفكر بردة فعل ليال، لكنها كانت في حالة جرتها من جديد إلى الكتابة، فتابعت كأنها تخاطب ليال بعد أن تخيلتها قد قرأت النص السابق:

«لا تغلقي بوجهي ابتسامتك، اصفعيني إن شئت. لكن لا تقوليها، لن أتحمل. قولي... سأبقى، اضحكي ما شئت من كتاباتي، واسخري. لن أتألم، ما عاد يهمني هذا..».

طوت سهام أوراقها وأخذت تفكر بحالها وهل هي حقاً تقوم بالنقلة التي تحذرها منها ليال. حضرت أمامها صورة نور. تأملتها جيداً: «ما عدتِ تعنين لي شيئاً، تنعمي مع عشيقك الجديد، لقد انتهيت، ارحلي عني لا أريد أن أذكرك ولا أن أتذكرك..». وظلت تفكر والنوم لا يأتي «لقد قالت لي ليال أن أعيش حالي كما أنا، إنها الوحيدة التي تفهمني جيداً، هل أحبها لأنها تقبلت وضعي، هل...:

«لماذا أفكر بك طويلاً؟ إن سكن الليل لماذا أشتاق إليك؟ إن هبطت الشمس في الغيم...شيء ما يدفعني. شعور غريب يجذبني. أهو الحب؟ أنتعش لما أراك، وأتنفس لما ألقاك، وتتلألأ أمامي الدنيا لأنك لؤلؤتها».

ـ ٢٤ ـ

عندما التقتا عصر اليوم الثاني كانت سهام محبطة وتعيسة، لا تنظر إلى ليال كعادتها.

ـ ما بك يا سهام وما يحزنك هكذا؟

ـ لا شيء. ثم سحبت من محفظتها أوراقاً وسلمتها إلى ليال: «اقرئيها الآن قبل أن يأتي الأصدقاء».

أخذت ليال الأوراق وقرأتها وهي تبتسم، وحين انتهت، أرادت أن تردها إلى سهام التي قالت: «إنها لك افعلي بها ما تشائين».

ـ للحقيقة لست أدري إن كانت لي، في مطلق الأحوال إنها مشكلة. إن كانت لي، فأنت تعلمين جيداً موقفي منها، وإن كانت إلى صديقتك القديمة، وهذا هو الاحتمال الأصح، لأنه من غير الممكن أن تتعلقي بي بهذه السرعة، فهذا يعني أنك لم تنتهِ منها بعد كما تصرحين.

ـ أهكذا تفسرين الأمور؟ إنها لك أنت، وأنا مدركة تماماً لوضعي، هي ما عادت تعني لي شيئاً، لقد انتهت وخرجت من حياتي. صمتت وهي تنظر إلى الطاولة أمامها، وأمام صمت ليال تابعت: «أريد السفر إلى الخارج، لا أحد يفهمني هنا، لا أستطيع أن أتابع حياتي هكذا. لا أمي تفهمني، المسكينة تعتقد أنني انتهيت من الموضوع. هي، رفضتني، وأنت الآن لا تقبلينني كما أنا... أسافر أو أنتحر».

لم تعلق ليال على موضوع الانتحار، تجاهلته وقالت: «أنا أقبلك ولا أحاكمك لكنني لا أستطيع أن أستجيب، إني خارج الموضوع، أحاول مساعدتك قدر المستطاع، لكن عليك أنت أن تساعدي نفسك».

ـ وكيف أساعد نفسي إن كان كل المجتمع يرفضني؟

صمتت ليال وهي لا تدري بماذا تجيب سهام. فعلاً المجتمع يرفضها، هي ترفضها، أمها ترفضها وعشيقتها رفضتها وهي

بدورها ترفض الرجال والعلاقات التي يسمونها سوية ومقبولة في مجتمعنا. بماذا تجيبها وهي تعلم أن الأمر شائع في كل المجتمعات وكان شائعاً في كل الحضارات، ومر في ذهنها أسماء كبار الفنانين والكتاب والكاتبات الذين كانوا لواطيين وسحاقيات، واستعادت معارفها حول الموضوع وأقوال أفلاطون في الحب المثلي و...نظرت إليها سهام كأنها تقول لها «أترين أنك عاجزة عن مساعدتي؟» لكنها أجابت:

ـ لا داعي للقلق والإحباط، أنت هكذا فعليك أن تقبلي نفسك هكذا. لا تلومي ذاتك، حاولي فقط أن تري جيداً في أعماقك، فإن كنت لا تستطيعين فعلاً إلا أن تكوني هكذا، فليكن وعيشي كما يحلو لك.

ـ لكن مع من أعيش؟

ـ كثيرات هن مثلك ولا بد من أن تلتقي بمن تستطيع مشاركتك شعورك وميولك وحبك.

ـ وأنت؟

ـ أنا سأساعدك. ترين أنني لا أقف موقفاً سلبياً من وضعك، أتفهمه، وأظن أنها مساعدة كبرى أن تجدي من يفهمك، فهم الآخر والتعاطف معه هو نوع من القبول، ويكفي أن يكون الإنسان مقبولاً من شخص واحد حتى لا يعود يشعر بالغربة في مجتمعه.

ـ أحقاً تقصدين ما تقولين؟ أحقاً تقبلينني كما أنا؟ لقد قيل لي أنك منفتحة الذهن وهذا صحيح، ما هو برجك فأنت واقعية جداً؟

ـ برج الثور.

ـ يعني أيار ـ نيسان؟

ـ الخامس والعشرون من نيسان.

ـ ليس بعيداً، هلاّ دعوتني إلى عيد ميلادك؟

ـ لا أدري، ربما كان الوضع الأمني لا يسمح. سنرى، نحن نعيش كل يوم بيومه، لا نستطيع التخطيط لأبعد من اللحظة الراهنة، لعن الله هذه الحرب. والآن لقد تأخر الوقت وعلينا العودة إلى البيوت.

ـ غداً ماذا تفعلين؟ هل أراك؟

ـ غداً أنا مدعوة إلى حفلة في البناية التي أسكن فيها، دعتني إحدى الجارات، يبدو أنها حفلة «نسوان علحل».

ـ ماذا تقصدين؟

ـ هذا ما فهمته من جارتي.

ـ وهل جارتك جميلة؟

ـ إنها صبية وجميلة، لكنها امرأة عادية، متزوجة ولها ولدان.

ـ وما علاقتك بها إذاً؟

ـ نلتقي أحياناً في الملجأ وتهتم بي كثيراً.

ـ تهتم بك؟ وهل أنت تسايرينها؟ هل هي...؟

ـ لا أدري، ربما، على كل حال ستتكشف لي الأمور غداً، سأخبرك لا تخافي. فلنرحل الآن.

- ٢٥ -

ذهبت سهام وهي من ناحية مرتاحة ومن ناحية أخرى قلقة كأنها تشعر بنوع من الغيرة من جارة ليال. وفي السرفيس الذي نقلها إلى بيتها لم تستطع إيقاف مشاعرها، أخذت ورقة وكتبت:

«ما الذي تملكينه، أهو السحر، حتى إليك أسير أم هو الحب، وفي الحالين إليك أصير وأستمتع بهمسك بصوتك، بتحركاتك وبكبريائك.

«غجريتي الشقراء، عرفت لماذا الطبيعة ملونة، ولماذا الشاطئ ذهبي، ولماذا الأفق مستحيل. عيناك، منها الشجر، وزرقة البحر، جبينك... وشمس القمر شعرك الرحيل والسفر ومبسمك جنة... السمر، كلماتك، أنغام وشعر وكم أنا فقيرة، لا أملك سوى قلم ووتر».

- هيا آنستي لقد وصلنا، قال السائق.

انتبهت سهام إلى نفسها، خرجت من شرودها، تركت السيارة بعد أن دفعت إلى السائق أجرته، وصعدت إلى بيتها. كلمت أمها قليلاً وانزوت في غرفتها تفكر بما قالته ليال لها:

«لماذا أخاف منك، أخشاك برغم أنك الأمن، أحاول دون سؤال أن أحضن نفسي فيك وأن أحضنك في ذاتك. لا أعرف كيف أكون قريبة، ملتصقة.. جزء منك. سامحيني، لم أستطع بعد السكوت، ساعديني لأفهم، ناقشيني كل أموري معك.

«يوقفني هجومك الغير معلن أو خوفك من حضوري المكرر، لن أنتزع منك ثقافة المرأة، ولا عطورها وأشياءها، فلا تعني لي شيئا. ما أحتاج إليه هو اللجوء حيث الأمان».

- ٢٦ -

في اليوم الثاني انتظرت ليال حتى الساعة السادسة وقصدت بيت ميمي حيث الحفلة كانت قد بدأت منذ ساعة. تأخرت عن قصد لكي تترك الأمور تسير طبيعياً قبل وصولها الذي سيفاجئ الجميع. أما ميمي فكانت، في هذا الوقت، متوترة، تنظر إلى ساعتها من وقت لآخر وتتنصت إن كان أحد ينقر على الباب، حتى أن العجوز انزعجت منها وسألتها إن كانت تنتظر أحداً. أما الأخريات فلم ينتبهن إلى حالتها بل كن منشغلات بأمورهن، كل واحدة تساير عشيقتها أو صاحبتها. حين قرعت ليال الباب ساد الصمت، دخلت وارتسم السؤال على كل الأوجه، إلا وجه ميمي الذي كان مبتسماً و قالت: «أقدم لكن أعز جارة عندي إنها ليال، وتود مشاركتنا حفلتنا». ثم توجهت إلى ليال: «أهلاً بك، أقدم لك السيدة... والآنسة...». وحين انتهت من تعداد المدعوات أجابت ليال: «تشرفت، أعتذر عن التأخير لأنني انتظرت صديقتي لكي ترافقني لكنها مريضة جداً ولهذا السبب أتيت وحدي».

ارتاحت العجوز، أما ميمي فراودها الشك: هل لدى ليال صديقة؟ هل هي مثلنا؟ أم أنها تقول ذلك لأسباب أخرى؟ كانت ليال تريد أن يفهم الجميع أنها مثلهن لكي لا يتلبكن ولكي تستطيع أن تتعرف إلى هذه الأجواء الجديدة التي لا يعرف أحد عنها شيئاً.

بسرعة قامت ميمي وأحضرت كأساً من المشروب لليال بعد أن سألتها ماذا تفضل، ثم جلست بالقرب منها وأول سؤال توجهت به إليها كان: «هل صحيح أن لديك صديقة؟».

- لي صديقات عديدات. لكني قلت ذلك لكي يطمئن مدعواتك

ولا يصبّن غضبهن عليك. «فطوقت ميمي ليال بذراعيها وقبلتها وهي تقول: « شكراً، لقد أحسنت التصرف و... «وأتت العجوز»: بم تتحدثان؟

ـ نتحدث عن صديقتها المريضة. أجابت ميمي.

ـ كان عليك ألا تأتي، قالت العجوز، لأنك ستكونين وحدك بيننا.

ـ لا، لن تكون وحدها، أجابت ميمي، فأنا هنا وأنا سيدة البيت.

ـ أنت لي. وجذبت ميمي إليها، أجلستها على ركبتها وأخذت تداعب شعرها وبعض نواحي جسدها و...

تركتهما ليال وأخذت تراقب ما يدور حولها: سيدات جميلات، منهن من يرتدي السروال ومنهن من يرتدي الفستان... شعر طويل وشعر قصير جداً...لا شيء خارجي يميزهن عن النساء العاديات في الحفلات العادية، لكن سلوكهن كان مختلفاً: من الواضح أنهن كن أزواجاً أزواجاً، وكل زوج يمارس نوعاً من المداعبة. كانت مداعبات متبادلة. أما ليال فكانت تحاول أن تراقب كيف يمارس بعضهن دور الرجل وكيف يمارس البعض الآخر دور المرأة بحسب المفهوم الشائع لتلك الممارسات وقياساً لما يحدث بين المرأة والرجل العاديين. بعد المراقبة تبين لها أن التمايز هو فقط في المظهر الخارجي، لأن السلوك هو واحد بمعنى أن من تقوم للحظة بدور الرجل تنقلب في اللحظة التالية إلى لعب دور المرأة. كانت المداعبات بين شبيهين وليس بين مختلفين. أرادت أن تعرف أكثر، فاقتربت من واحدة منهن كانت تداعب صديقتها وقالت: «اشتقت إلى صديقتي، كم هي مطواعة معي، أمارس معها كل ما يحلو لي وهي تستجيب وتجعلني أشعر بذكورتي فعلاً».

انتفضت تلك المرأة وقالت: «أنا لست كذلك، أنا امرأة، ولا أريد أن أكون ذكراً وإن كنت أمارس الآن ما يحلو لي معها، «ودلت على صديقتها، فهذا لا يعني أنني ذكرها، نحن شبيهتان وقد يحلو لها أن تمارس معي ما أمارسه الآن معها، ليس من أدوار في علاقتنا، إننا متحابتان وهذا هو الأهم».

ـ عذراً، لا أقصد ذلك لأنني أعرفه، لكني اشتقت إلى صديقتي وأتمنى لو كانت هنا معي.

ـ كان عليك ألا تأتي من دونها، أنا أفهم وضعك الآن، لا أحد سيهتم بك، ستشعرين بالوحدة، أعرف ذلك.

ـ لن أطيل المكوث، لكني أتيت كي لا أغيظ ميمي، جارتي الجميلة.

أتت ميمي بعد أن تفلتت من العجوز، وفي غفلة من هذه الأخيرة طوقت خصر ليال بإحدى ذراعيها وجرتها إلى مكانها. كانت ليال تلبي من دون تردد، جلست في مكانها وحاولت ميمي أن تجلس في حضنها، تركتها تفعل وأخذت تمسد شعرها وتداعب ركبتها، وبدأت ميمي تهتاج، فظهرت العجوز وأخذت تشتمها: «يا عاهرة أتيت بالست ليال كي تخونيني، وأمام عيني؟ لن أتركك لهذه المتعجرفة». سحبت ميمي من أحضان ليال التي لم تفه بكلمة واحدة، بل أشعلت سيجارة وأخذت تمجها كأن شيئاً لم يكن. فما كان من ميمي إلا أن أعلنت: «والآن إلى الرقص. سأشغل الموسيقى».

هب الجميع إلى الحلبة واستأذنت ميمي من العجوز قائلة: «سأراقص ليال أولاً لأنها ضيفتي ثم أتفرغ لك يا عزيزتي». اقتربت

من ليال، أخذت يدها، التصقت بها وبدأتا بالرقص. استفاق جسد ليال، ضمت ميمي بشدة وقبلتها. كانت ميمي بدأت بالاسترخاء بين ذراعيها حين أتت العجوز لتجرها إليها. عادت ليال إلى مكانها وهي مغتاظة، لكنها جلست وأخذت تراقب المشهد أمامها: كانت قبلات واستعراضات مثيرة، وبعد قليل أخذ العدد يتضاءل في الصالون إذ أن كل اثنتين حاولتا دخول غرفة من الغرف، وأكثر من اثنتين دخلن إلى غرفة واحدة، ومن تبقى افترش أرض الصالون وبدأت الممارسات الفعلية... فما كان من ليال إلا أن انسحبت بصمت وعادت إلى بيتها.

- ٢٧ -

«لا أريد أن أفهم». قالت ليال لنفسها وهي تدخل بيتها. نفضت من رأسها وذاكرتها كل ما رأته من لحظات وحاولت أن تعود إلى كتبها وعالمها. لكنها اشتاقت إلى صديقها الذي كانت على خلاف معه في تلك الفترة. «هل أتصل به؟ إنه خارج البلاد، لن يشبع جسدي المستنفر، لا، لن أتصل بأحد». رمت أيضاً هذه الفكرة بعيداً. أسكتت مشاعرها وعادت إلى الواقع حيث الليل ساكن، لا انفجارات و لا صوت رصاص. «صحيح ما قالته ميمي، كيف يعرف زوجها أن هذه الفترة هي فترة هدنة؟» «ما كان سافر لو أن الوضع سيتدهور»، قالت لي حين غادر زوجها، كيف يعرف ذلك وما هو دوره في الموضوع؟ أيضاً لا أريد أن أفهم، فهذا ليس الموضوع الوحيد الذي لا أفهمه في هذه الحرب، المهم أن الوضع هادئ وعلي الاستفادة منه».

توجهت إلى مكتبتها وأخذت تبحث عن كتب تعالج العلاقات المثلية. سحبت من المكتبة كتباً عديدة وأخذت تتصفحها. كانت

في غالبيتها تبحث في العلاقات المثلية بين الذكور، تبحث في تاريخها، في تطورها، في تغير النظرة إليها، في التوصل أخيراً إلى إعلانها والمطالبة بوضع قانوني لها. أما السحاق، فكانت الكتابات تمر بسرعة عليه وأحياناً كثيرة للقول فقط أنه موجود. أعادت الكتب إلى مكانها وتذكرت صديقتها الدكتورة ريا، «إنها صديقتي فعلاً، اتفاق ضمني يجمع بيننا، تعجبني وأعرف جيداً أنني أعجبها، لم تتخط علاقتنا، يوماً، هذه الحدود، كأنها منذ البداية دخلت آلية التصعيد. إنها تفهمني جيداً، سأتصل بها، هي تدرس مادة علم النفس ولديها عيادة لمعالجة بعض المشاكل النفسية».

ـ لماذا تهتمين بهذا الموضوع؟ سألت ريا.

ـ لأنني ألاحظ أشياء كثيرة لم أكن أنتبه إليها في السابق، وهي موجودة أكثر مما كنت أتوقع.

ـ إنها موجودة فعلاً، أنا أعرف ذلك.

ـ وكيف تعرفين؟

ـ من العيادة، لو تعلمين الحالات التي أعالج، وتسمعين الأقوال التي أسمع والإحباطات التي أحاول معالجتها وبخاصة في هذا الموضوع لكنت دهشت.

ـ حسناً، أود مناقشة الموضوع معك لاحقاً، أريد أن أعرف، سأخبرك لماذا حين نلتقي، هل نلتقي غداً؟ مرّي بي صباحاً ونذهب إلى مقهى الحمرا.

بعد المكالمة تحررت ليال من ملابسها وتمددت على السرير لتقرأ كعادتها قبل النوم. لكنها تذكرت أن لديها كتاباً عن جزيرة «لسبوس» وعن الشاعرة «سافو» فنهضت بسرعة من فراشها

وأخذت تبحث عنه.حين وجدته قالت لنفسها: «حسناً، إن الوقت لا زال باكراً، سأقرأ هذا الكتاب الليلة».

لم تعثر في الكتاب عن وصف لممارسات «سافو» مع النساء، كان يركز أكثر على شعرها، وهذا الشعر الذي فقد منه الكثير هو موجه إلى نساء. يحكي صعوبة الفراق، والكاتب يعلق بأن «سافو» التي كان لها تلميذات، كانت تكتب شعراً غزلياً بكل واحدة من التلميذات تترك المعلمة إما للزواج أو غيره. وينتهي الكتاب بالقول أن «سافو» القبيحة المنظر قد أغرمت، في آخر حياتها بأحدهم من دون أن يستجيب لها، فرمت بنفسها في البحر وانتحرت، هي التي كانت تسمى «سقراط المرأة أو بالمرأة سقراط». في آخر الكتاب ملاحظة أن «مرغوريت يورسنار» هي الآن بصدد ترجمة شعر «سافو» بعد جمع ما أمكن من المخطوطات. أما ما بقي في ذهن الناس فهو فقط كلمة: «لسبيان» نسبة إلى جزيرة «لسبوس».

أقفلت ليال الكتاب وأول من تبادر إلى ذهنها كانت سهام، ربما لأنها تكتب نثراً جميلاً يشبه الشعر، وتساءلت هل أن الشعر هو تعويض عند هؤلاء النساء؟ تذكرت تحليلاً كانت قد قرأته في الموضوع وهو يقول أن أغلب المثليين، كان المقال يدور حول الذكور، لكي يغيبوا وضعهم، يحاولون اختيار عمل يعزلهم عن الناس. يختارون مجال الثقافة والعلم والكتابة، كأن الدراسة تريد القول بأن كبار الشعراء والكتاب والفنانين المثليين هم كبار لأنهم مثليون. يعني أن الفن والشعر والكتابة تتطور عندهم لأنهم يتفرغون لها وذلك هرباً من المجتمع وتحرراً من عاداته وتقاليده التي لا تناسبهم ولا تتماشى مع ميولهم.

«تحليل ممكن، قالت ليال لنفسها، لكن السؤال يبقى: لماذا هم

هكذا؟» لكنها استدركت: «ربما كان السؤال خطأً، فطالما أن الموضوع موجود منذ أن وجدت البشرية وطالما أنه معروف في كل الحضارات، فهذا يعني أنه واقع طبيعي تماماً كالحالة الغيرية، فما المشكلة؟».

- ٢٨ -

لم تستطع سهام النوم تلك الليلة، كانت تتقلبها أفكار عديدة: «هل ليال مغرمة بتلك الجارة، ألهذا السبب ترفضني، أم أنها حقاً كما تدّعي؟ كيف لي أن أعرف وأنا محرّم علي أن أزورها وأتعرف إلى عالمها الحقيقي، فإن طلبت مني أن أقبل بوضعي، فهذا يعني أنها ربما كانت سحاقية ولا تريد أن أعرف. لكنها لو كانت كذلك لكنت لاحظت، أنا لا تخفى علي هذه الأمور. إنها تتهمني بالنقلة، هل هي تريدها فعلاً وتنتظر أن أنتهي من نور كي تصادقني وتعلن لي حبها؟ لقد قالت لي أني شاعرة وشجعتني على الكتابة وكأنها تريد أن تتعرف إلى دواخلي من خلال كتاباتي. سأكتب لها، سأفهمها أنها ليست موضوعاً للنقلة، سأعبر لها عن حبي، ربما كانت تود التأكد قبل أن تفصح عن ذاتها. إنها أستاذة في الجامعة، ربما لا تريد أن تقيم علاقة مع طالبة. يا إلهي، لماذا أغار من كل من تتكلم معهن؟ لماذا يخيل إلي أن كل واحدة منهن هي عشيقتها؟ لن أتركها لغيري إن كانت فعلاً كما أتمنى، لكن إن لم تكن؟ ما المانع؟ إني أحبها وأحب كل كلماتها وسلوكاتها و..». وكالعادة أخذت ورقة وتوجهت بالكلام إلى ليال:

«فيّ تضج خميرة الكتابة، لكن أن أكون سارقة الوجوه، كم أكره هذه الكلمة (النقلة). صديقتي أنا لا أبتدع الخرافة، كانت لك ولك وحدك الحروف، لم أشرك فيها غيرك، لكن وصمة الحب

الماضي ما زالت ترن برأسك. أنا لا أنكر أنني كنت أهواها، وكنت ألعن الساعات التي أقضيها مع سواها، لكن عندما يكبر القلب، يعرف لمن يتسع.

«لا أخبئ عنك ما كانت تعنيه لي، وما كنت أبصر من خلالها. كانت الزاد والماء والزمان، لكن عندما صعدت روحي للأفق، بدأت أعي الأشياء، صرت طليقة، حرة، علمتِني ما كان يجب أن أتعلمه كي أستطيع أن أبدأ بالانفصال.

«لا أقول لك، استغلتني، بقدر ما كان الاستغلال متبادلاً. عرفت أغلاطي وأخطائي، لملمت كل ما بقي لدي منها، أحرقته، دمرته، لكن حاولت قدر المستطاع أن أنقذ الأقلام والأوراق، تطهرت منها، وبواسطتها، وأتيت إليك، لا لأعبر عن هزيمتي، بقدر ما أعبر عن انتصاري العظيم.

«أرجوك لا تتهميني، بأنني أعتبرك صورة مماثلة لها، أنت مختلفة، أنت لست كالآخرين. معك أشعر دائماً بالنصر، وبأنني لست من طين، وحدك أنت أعطيتني من دون أن تأخذي، لذلك كتبت لك، وهل تتهمين مشاعري، وتقتلينها بالسكين» .

قبل أن تنام فكرت سهام بالاتصال بليال، لكن الوقت كان قد تأخر جداً ولو فعلت لكانت سمعت كلاماً قاسياً وانتفى احتمال أن تراها في اليوم التالي، فنامت على أمل الاتصال في الصباح.

ـ هل أزعجك؟

ـ لا، أجابت ليال، لقد استيقظت باكراً.

ـ ألم تكن السهرة طويلة؟

ـ لا أدري، انسحبت منها قبل أن تنتهي.

ـ لم يعجبك الجو إذاً، وجارتك هل اهتمت بك؟

ـ نعم اهتمت لكني فضلت ألا أزعجهن.

ـ وماذا فعلن؟

ـ نتكلم لاحقاً.

ـ اليوم؟ في أي وقت؟

ـ لا، اليوم لدي موعد مع إحدى الصديقات، أراك غداً.

ـ وهل تهمك هذه الصديقة أكثر مني؟

ـ سهام لا أحب التطاول، وأنا أقرر من يهمني أو لا يهمني. نلتقي غداً وانتهى الموضوع.

ـ عذراً، كما تريدين.

استاءت سهام من لهجة ليال وأخذت تتأكد لها فكرة أن لليال صديقة تحاول إخفاءها. ربما كانت تلك الجارة. حاولت أن تنتفض وتقنع نفسها بأن ليال لا تعجبها وبأنها اختارتها لتثأر من نور فقط. لكن هل هذا صحيح؟ «هل ما زلت أحب نور؟ لا، أنا أكرهها، لقد حطمتني، لقد رمتني في أحضان هذه المتكبرة التي لا تلين ولا تعرف معنى التعلق والحب. هل تعيش هكذا وحدها من دون أي علاقة عاطفية؟ هل هي قاسية إلى هذا الحد؟ لكنها رقيقة جداً وحين تنظر إلي أشعر بدفء يغمر كل كياني، لماذا أفكر بها، لماذا صورتها تغزو كل فضائي؟

«أبعدي صورتك عني ولو قليلاً حتى لا أذبح كالقربان، لم أستطع

إلا أن ألفظ حروفك في كل الأسماء، حتى بت أنادي أصحابي كلهُم وأهل الدار باسم ليال.

«مهلا عليّ، لا تصرخي للجلاد

أمهليني الفرصة قبل الحداد.

«كل محكوم بالإعدام يطلب أمنية في الحياة، ما أطلبه منك أن تدعيني، أنا لا شيء، هل نعدم العدم؟

«مجرد أن أحبك، والفكر فيك يجاري المنام

وأنت لا رأفة ولا اهتمام

فهذا أكثر من إعدام».

«كيف سيمر هذا اليوم وماذا سأفعل؟ ليال أغلقت الباب، الست نور في أحضان عشيقها وأنا أتألم وحدي. سأتصل بنور وإن وجدتها سأشتمها وأعكر عليها صفو نهارها. سأهددها لأجعلها تعيش في الرعب من افتضاح أمرها. لكنها لن تخاف مني، فهي تعرف جيداً أنني ولو هددت لن أنفذ، لا خوفاً منها، لكن خوفاً على أمي المسكينة التي تعتقد أن ابنتها أصبحت «طبيعية». هل هي مقتنعة بذلك، أو أنها كالنعامة تخفي رأسها كي لا ترى؟ فلتبق على عماها أو تعاميها، المهم أنها لا تتدخل في أموري».

خرجت سهام من غرفتها، جالست أمها في الصالون وأخذت تكلمها وتناقشها في أمور البيت والجامعة وغيرهما. كانت الأم مسرورة بهذا الحوار الذي من خلاله بثت عدة رسائل إلى سهام، حول ضرورة الزواج والإنجاب وألـ...

ـ ما زال الوقت باكراً، أجابت سهام، سأنهي دراستي أولاً.

ـ طبعاً، طبعاً، لسنا على عجلة، لكني أود أن أرى أبناءك قبل أن أصبح عاجزة عن الاهتمام بهم. الآن أنا قوية، وإن تزوجت وأنجبت طفلاً فأنا سأهتم به وأنت تتابعين دراستك، ما رأيك؟

ـ لكن أين هو العريس؟ أجابت سهام وهي تضحك.

ـ إنهم كثر، يكفي أن تقبلي بأحدهم.

ـ تعرفين أن الأمر ليس «قبول أحدهم»، أنا لا أتزوج من شخص لا أحبه، علي أن أحبه أولاً ثم تأتي الخطوات اللاحقة.

ـ أفهم ذلك، لكنك لا تعاشرين أحداً، فمن أين يأتي الحب؟

ـ لا تخافي، رفاقي في الجامعة كثر، أصاحبهم وأعاشرهم وهناك واحد من بينهم يلفت نظري بشكل خاص.

ـ صحيح؟ دعيه يأتي إلى البيت، وإن كان شاباً جيداً، فهيا، أساعدكما مادياً، تقيمان معنا هنا في البداية، ولاحقاً أشتري لكما مسكناً. لا تحملي همّاً، أنت ابنتي الوحيدة وأود أن تبقي بالقرب مني، أخوتك الصبيان أصبحوا شباباً وهم سيذهبون ويتركونني، سأبقى وحدي و...

أخاف سهام هذا المشروع، وقبل أن تنسحب إلى غرفتها بحجة الدرس، طمأنت أمها بأن الأمور ستجري كما تريد ولكن لا داعي للعجلة. هكذا ارتاحت الأم وعادت سهام إلى غرفتها وعالمها المضطرب. حاولت أن تفتح ملفاتها وأن تعيد قراءة ما دونته في الجامعة من محاضرات، لكن ذهنها كان مشتتاً، لا تفكر إلا بليال. نظرت إلى ساعتها كي تحاول تحديد ما تفعله ليال في مثل هذا الوقت، وانتبهت إلى أن التاريخ المسجل على الساعة هو الأول من

نيسان، فضحكت وقالت لنفسها: «هل كل ما قلته لوالدتي هو كذبة أول نيسان من دون أن أدري؟».

ضحكت من هذه الصدفة، لكن نيسان بدأ يعني لها أشياء كثيرة. «إنه الشهر الذي ولدت فيه ليال، سأكتب لها».

ـ ٢٩ ـ

كتبت مقطعاً جميلاً ثم رمت القلم من يدها وقالت: «أعرف أين تتواعد مع صديقاتها، سأمر أمام المقهى وسأرى مع من تكون. لكن إن رأتني فماذا أقول لها؟ الشارع للجميع ولا مانع من أن أكون من بين المارة، لكنها ستعرف أنني أراقبها. ربما كانت مع تلك الجارة، لكن من أين لي أن أعرف إن كانت هي أم لا، سأذهب في مطلق الأحوال، أريد أن أعرف لماذا ليال ترفضني».

رأتها من بعيد تجلس مع إحدى الزميلات في الجامعة على رصيف المقهى. هل تكمل طريقها أو تدخل إحدى الطرقات الفرعية وتغيب عن الأنظار؟ من دون أن تدري وقبل أن تقرر رأت نفسها تمر أمام المقهى، وسمعت: «سهام هيّا تفضلي». لم تصدق أذنيها، التفتت إلى حيث ليال، رأتها تبتسم وترفع يدها وتدعوها للدخول. لم تتردد، دخلت وصافحت ليال وزميلتها التي كانت تعرفها جيداً من أجواء الجامعة.

ـ لا أريد إزعاجكما، ربما كنتما تناقشان أمراً أو...

ـ إجلسي، فلو كان الأمر كذلك لما دعوتك، أجابت ليال. لقد ناقشنا ما نريد مناقشته وقد أفادتني الدكتورة ريا بمعلومات مهمة، هل تعرفين الدكتورة ريا؟

ـ أراها في الجامعة، لكني لا أعرفها، تشرفنا، دكتورة ريا، أنت في قسم علم النفس أليس كذلك؟ طلابك، وبخاصة الفتيات يحبونك جداً.

ـ شكراً، وأنت ماذا تدرسين في الجامعة؟

ـ أنا في قسم اللغة...

ـ لست طالبة عند الدكتورة ليال؟

ـ لا، أجابت ليال، إنها صديقتي من دون أن تكون طالبة عندي.

فرحت سهام بهذا التقديم لكنها سرعان ما تجمدت وأخذت تسأل نفسها هل إن ليال تكلمت عنها مع ريا، هل ناقشتا في أمرها، صمتت وأخذت تراقب الحديث لكي تلتقط أي إشارة تعزز شكوكها، لكنها لم تعثر على شيء.

ـ إنها، مع ذلك، شاعرة رقيقة، قالت ليال، وأنا أشجعها على كتابة الشعر أو على الكتابة بوجه عام.

شردت سهام في إمكانية أن تكون ليال وريا عشيقتين. لقد أظهر الحديث بينهما أنهما متقاربتان جداً في التفكير. هل ليال تفضل مستوى الأستاذ ولا تريد التورط مع طالبة؟

ـ عذراً، عليّ العودة إلى البيت، فالأولاد ينتظرونني.

ذهبت ريا وبقيت ليال مع سهام التي سارعت إلى السؤال: «الدكتورة ريا متزوجة؟».

ـ نعم وعندها ولدان.

ـ هل هي صديقتك؟

ـ إنها صديقة منذ زمن بعيد، أرتاح معها لأنني أشعر معها أننا نتكلم على موجة واحدة، وهذا ما لا أجده مع غيرها.

ـ وأنت لماذا لا تفكرين بالزواج؟

ـ لقد جربت هذه المؤسسة وانتهى الموضوع، الحمد لله الذي أخرجني من تلك التجربة. الزواج هو فقط للإنجاب وأنا أرفض أن أنجب أولاداً لا ينتمون إلي، لا يحملون اسمي.

ـ كيف ذلك؟

ـ الأولاد في مجتمعنا، كما في كل المجتمعات تحمل اسم الأب، وكأن الأم شاهد زور، كأنها وعاء لحضن الطفل فقط، أنا أرفض هذا الواقع المذل وغير العادل.

ـ ولماذا هو مذل؟

ـ ربما كانت الكلمة غير مطابقة، لكن هذا الواقع هو غير حقيقي وغير صادق، يعني أن الذكر يبني تأكيده وإثبات ذاته، على شك، وللخروج من الشك يحوله إلى يقين بإضفائه اسماً على واقع غير واضح وغير يقيني.

ـ لا أفهم شيئاً.

ـ كيف لا تفهمين؟ هل من شك في أمومة الأم لأولادها؟

ـ لا.

ـ وهل من يقين في أبوة الأب لولده؟

ـ لا.

ـ إذاً، كيف لا تفهمين. الأم هي الأم، لا مجال للبس والشك، أما

الأب، فهناك مئة احتمال واحتمال ألاّ يكون هو الأب الفعلي. فلماذا نرفع الاحتمال إلى موقع اليقين، ونلغي اليقين؟

ـ تريدين قلب المجتمع رأساً على عقب بهذا الطرح.

لا ينقلب شيء، يأخذ الولد اسم الأم فقط. يعني أنه ينتسب إلى اليقين. هكذا تلغى كل المؤتمرات حول المرأة التي لا زالت حتى الآن موضوعاً للقول، ولن تصبح صاحبة القول إلا بهذه النقلة النوعية. إن كانت النساء واعيات لوضعهن، لحصرن كل مطالبهن ونضالهن بهذا المطلب الوحيد، هو سهل التحقيق إن عرفت النساء التعاطي معه بذكاء. على كل حال إنه موضوع كبير ولا مجال للخوض فيه الآن. أخبريني هل كتبت شيئاً جديداً؟

ـ لا، لم أستطع، كنت أفكر بأمور الدراسة.

ـ جيد.

ـ وأفكر بك وبجارتك الجديدة.

ضحكت ليال كأنها فرحت بهذه الغيرة التي تبديها سهام حيالها، وقالت: «هل تغارين؟ هل تريدين أن أتخلى عن كل معارفي وأصدقائي؟».

ـ لا، لكن أريد أن تعرفي أن لا أحداً يحبك مثل ما أنا أحبك.

ـ الصداقة أنواع ودرجات ولكل نوع موقع معين، وأنت موقعك مهم عندي كما تعلمين.

ـ هل صحيح أن موقعي مهم عندك؟ لا تجعلينني أشعر بذلك، حتى الآن لم تسمحي لي بزيارتك، وها هي جارتك تطرق بابك ساعة

تشاء، تزورك وتدعوك إلى حفلاتها وتهتم بك وأنت لا تمانعين، كأن الأمر يعجبك.

ـ إنها مسكينة وشبه جاهلة، لا تدري ماذا تفعل، تنفعل وتسير وراء انفعالها. لكنها جميلة وأنثى بكل معنى الكلمة. على كل حال إنها تمثل شريحة واسعة من نساء هذا البلد.

ـ متى أزورك؟

ـ قريباً نحدد الوقت لذلك، لا تستعجلي الأمور.

ـ يا إلهي، لماذا هذا التسويف؟ أتحرق للتعرف إلى عالمك الخاص.

ـ سيأتي الوقت.

ـ ٣٠ ـ

افترقتا، كل واحدة إلى بيتها. ليال تفكر بما ناقشته مع ريا وتخطط لسلسلة قراءات حول الموضوع وسهام تفكر بما قالته لها ليال وهل أنها تتدلل عليها وتسوف في موضوع زيارة بيتها كي تزيد من شوقها إليها. «هل هو نوع من المداعبة الأنثوية العادية؟ هل ليال تلجأ إلى هذا النوع من السلوك؟ لكنني سأزورها، وآخر حد سيكون الخامس وعشرين من نيسان، فإن لم تدعني إلى بيتها، سأقتحمه في ذلك التاريخ. من هم الذين يزورونها؟».

«أضيع بين الأموات والأشكال، أرى الشوارع تضغط على المارة، وشيء ما في صدري، بين الخطوة والخطوة يكون بيتك، كل السيارات تشبه خاصتك، لكنها ليست بيضاء، أحاول الزيارة، أفكر، من لديك من زوار، ماذا يكون الحوار، هل هم نساء أم رجال؟ كبار أم صغار، سمر البشرة أم عرقهم أبيض؟ هل تشتاقين

إليهم أم لا؟ أود أن أعرف كل من تحبين، حتى أكون قريبة منك، أود أن أتعلم طريقة كلامهم وكيف هم، كيف يضحكون ويضحكونك، ماذا يريدون وبماذا يفكرون، كيف يطرقون على بابك، وهل يدخلون برجلهم اليمنى، هل يقرأون ما في عينيك وكيف، يا ليتني مثلهم حتى أكون أقرب».

كانت ليال تقرأ نقاشاً بين فرويد وفليس حول العلاقات المثلية والغيرية، حين أتتها ميمي تتفقد أحوالها بعد تلك الحفلة.

ـ لماذا تركت باكراً في الأمس؟

ـ ماذا تريدينني أن أفعل وكل واحدة منكن كانت مع صديقتها وأنا كنت وحدي؟ فضلت الانسحاب، لا تعتقدي أنني ألومكن لكن لم أجد لنفسي مكاناً بينكن.

ـ لو بقيت لكنت استطعت أن أبعد العجوز عني ولأصبحت لك وحدك.

ـ ميمي، ماذا تقولين؟ ألم تلاحظي كم كانت مستنفرة وتحيط بك كأنك ملكها؟ لكن الأمر لا يهم، قبلت دعوتك، أعتبر أنك جارتي وأنت لطيفة، لهذا السبب لم أرد أن أسفهك لكن الموضوع ينتهي هنا. أرجو أن تفهمي ذلك.

ـ تعجبني شخصيتك، لا بل أحب شخصيتك، والأمر ليس بيدي إنه أقوى مني وقد بدأت أتعلق بك وأريد رؤيتك كل يوم، وأغار من كل واحد يزورك. صرحت بذلك لصديقتي وهي الآن تموت غيظاً من مشاعري الجديدة. إنها ليست جديدة تماماً، منذ زمن غير قصير وأنا أتحضر للقائك و...

ـ شكراً على هذه المشاعر تجاهي، لكن، ميمي أنت لا تعملين في

الخارج وأصبحت حياتك تدور في روتين بدأ يزعجك. لدي نصيحة: املئي الفراغ بالقراءة فهكذا لا تشعرين بالملل وتستفيدين من الكتب.

ـ وماذا أقرأ؟

ـ أساعدك في اختيار الكتب.

ـ لكني لا أحب القراءة التي ينصحني بها زوجي أيضاً، ولا أحب زوجي ولا كل جنس الرجال. أشعر بوجودي أكثر بين النساء، هن يفهمن على بعضهن، ولكي أكون صريحة معك أكثر، حتى العلاقة الجنسية مع المرأة هي أمتع مما هي مع الرجل لأن المرأة تعرف المرأة، وأكثر من ذلك ليس من أدوار في مثل هذه العلاقة، كل واحدة تبحث عن متعتها مع الأخرى، فلا علاقة فوقية ولا إفراغ مقرف، كأن المرأة وعاء لتلقي قذاراتهم فقط.

ـ ولماذا تزوجت إذاً؟

ـ كان الأمر محتماً، ماذا كنت سأفعل؟ أبقى عالة على أهلي؟ أنا الآن حرة أكثر. أنام مع زوجي لأرضيه وأعيش حياتي كما أريد. الرجل غبي، لا يشك في علاقة امرأة بامرأة، هو مطمئن إذا لم يدخل ذكر ثانٍ على الخط، والحمد لله أني لا أحب الرجال، لهذا السبب أنا مرتاحة، لا مجال لتحريك غيرة زوجي واتهامي بالخيانة وكل المشاكل الأخرى.

ابتسمت ليال من دون أن تعلق.

ـ يا ألله ما أجمل ابتسامتك، وكم تحرك مشاعري كأنني أمام شيء أريد التهامه. قالت ذلك وأحاطت ليال بذراعيها وقبلتها وهي تضمها إليها.

قبلتها ليال بدورها وقالت: «ست ميمي استمعت إليك وليس لدي أي تعليق، أنت حرة في مشاعرك وحياتك وسلوكك لكن أرجوك لا تدخليني في مشاكلك، لا علاقة لي بها. أنت سيدة جميلة، صبية ولك عالمك الذي اخترته لنفسك...

ـ هل ترينني جميلة حقاً؟ وهل أعجبك؟

ـ أنت امرأة جميلة لا أنكر ذلك. لكن أن تعجبيني فهذا أمر لم أفكر به.

ـ هل تفضلين الرجال؟

ـ بكل بساطة، نعم.

ـ لكنهم أنانيون، لا يحبون إلا أنفسهم.

ـ ونحن أيضاً نحب أنفسنا من خلالهم.

ـ إنهم يستغلوننا لإشباع رغباتهم فقط.

ـ هذا يتوقف على نوعية العلاقة بين الرجل والمرأة. فأحياناً هناك استغلال وأحياناً أخرى هناك حب متبادل بحيث لا يشعر أحد بالاستغلال.

ـ سبق لي وسألتك إن كان لديك صديق و«بخعتني».

ـ نعم لي صديق أحبه، هل ارتاحت حشريتك؟

ـ لا، كنت أفضل ألا يكون لديك صديق لأنني أحبك. حظي قليل، لكني لن أيأس ولن أطلب منك الكثير، أريد أن نبقى صديقتين، لأنني أرتاح معك.

ـ نبقى صديقتين طبعاً، لا مانع عندي إطلاقاً.

ـ هل تعلمين أني أفكر بك دائماً؟ لست أدري ما يشدني إليك، أنتظر عودتك كل يوم وأراقب تحركاتك. أحلم أحياناً أنني معك في مكان بعيد حيث لا يرانا أحد وأنت تضمينني إليك و...

ـ متى يعود زوجك؟

ـ بعد غد.

ـ يعني سيعود القصف بعد غد.

ضحكت ميمي وقالت: «لا، إن شاء الله لا، لقد تعبنا، هل تمضين يوم غد معي؟».

ـ معك؟ لا، لدي أشغال كثيرة.

ـ طيب، أدعوك إلى الغداء، فأنت لا تهتمين بهذه الأمور.

ـ لا، شكراً، أصبح علي أن أدعوك بعد كل دعواتك واهتمامك بي.

ـ ممتاز، أعرف مطعماً جيداً، هلاّ دعوتني إليه؟

أحست ليال بالحرج، ولكي تنهي الموضوع قالت: «نعم أدعوك. والآن إلى اللقاء، سأتابع عملي، نلتقي غداً». وقبل أن تغادر ميمي رن جرس الهاتف:

ـ أهلاً سهام، ما بك؟

ـ هل كنتما تتحدثان عني قبل أن أصل؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت وزميلتك الدكتورة ريا.

ـ سهام، أتكلم معك لاحقاً، الآن لدي ضيوف.

ـ هل هي جارتك النعنوعة؟

ـ نعم.

ـ وهل ستمكث طويلاً؟

ـ لا.

ـ طيب، طيب، فهمت كل شيء، لن أزعجك بعد الآن.

ـ ٣١ ـ

أقفلت ليال سماعة الهاتف ورافقت ميمي إلى الباب. ما أن أغلقته وراءها حتى صاحت: «يا إلهي ما بهن هؤلاء النساء؟ ماذا يردن مني؟ سأضع حداً لكل ذلك وأرتاح منهما معاً. لكني أريد أن أعرف ماذا يدور في عالمهن، سأتركهن وأتحملهن كي أكتشف المزيد عنهن».

وسهام، بعد أن قطعت الخط مع ليال قالت لنفسها: «لن أتصل بها بعد الآن، من المؤكد أنها عشيقة تلك الجارة، لن أتركها قبل أن أكتشف أمرها». وبقيت كل الليل تقاوم رغبتها في الاتصال بليال، وتلك المقاومة تفجرت، كالعادة، في الكتابة:

«حلمت كثيراً، غرقت في أوهام كبيرة، وعشت عمري صريعة، رميت نفسي، حتى أصبحت والواقع أسيرة. غدر بي الحلم، وشقيت، حسبتك أميرة مملكتي ومؤنسة وحدتي وكاهنة محرابي. ما كنت... ولن تكوني.

«كل ما توقعته انتهى قبل الولادة، كل ما فكرته هلوسات. أنت كطائر النورس، إن وقع لن يملكه أحد، هو للسماء وليس للبشر.

أنت كالنور كلما اقتربنا منه أحرقنا ولا نستطيع العيش من دونه.

«لن تكوني مع أحد ولن تكوني بدون أحد».

«لن أتركها، سأطاردها، إني أحبها وأريدها لي، أريدها عشيقة وحبيبة». ومن جديد توجهت إلى ليال:

«حبيبتي لو لم أكن أهواك، من أهوى؟

لو كنت مرحلة مؤقتة، فكيف أعاني؟

«لو لم تكوني من وجودي حقيقة فكيف أبصر الروائع؟ أتخافين، أم تراك لا تدرين؟ أو أنا شيء؟ ومن السهل أن نترك الأشياء؟

«حبيبتي، بماذا تفسرين لهفتي؟ واشتياقي؟ ومعارضتك؟ ورفضك؟ وإلحاحي؟

«حبيبتي، اطرديني إن شئت، لا يهم، فلن تسحقي صورتك من داخلي. عذبيني كيفما أردت، فلن أنسى لحظات المتعة معك. قطعيني لأجزاء وأجزاء، فلن أنسى أنك لملمتني وجمعت أعضائي، حتى صرت أعرف الحب المفقود».

- ٣٢ -

في الصباح كانت سهام لا زالت مشحونة: «يستيقظ النهار عندي وإذ بك لا تزالين في رأسي منذ الأمس ومنذ الليلة السابقة. أسهر معك، أكتب إلى طيفك رسائل غرام لا تنتهي، كلمات لا تخلص وخيالات أفرشها معي في سريري وعلى وسادتي. لكن، هيهات تحصل المعجزة ونكون للأبد في مكان واحد، بعيد عن كل البشر، وحدنا قرب شاطئ مهجور، لا كوخ لدينا، نلتحف النسيم، ونغط

في نوم عميق، نوم أبدي، لا أستيقظ بعده، وهكذا نبقى سوياً وأضمن أن لا شيء سيفرقنا ولا أحد سيقترب منك ولن يغازلك سوى موتي ورمادي». تركت القلم وقالت:

«سأراك اليوم لا محال، أنت لن تتصلي بي، لم تتنازلي وتطلبي رقم هاتفي، وأنا لن أتصل بك، لكن سأقتحم بيتك. ما زلت تتهمينني بالنقلة؟ أنا أحبك وكفى، لا أعوض بك عن أحد، لقد انتهت نور من حياتي، لقد انتهت منذ تأكدت أنها ألغتني من حياتها على الرغم من أنها ستندم، تلك العاهرة، ستندم حين سيتركها ذلك «الخنزير» بعد أن يشبع رغباته منها، ستكون وحدها عما قريب، وسترجوني العودة إليها، لكن سترى موقفي منها، سأرميها كالكلبة. لكن علي أن أفوز بليال، لماذا تتهرب مني؟ تلاطفني، وتتفهمني، فأعتقد أنها لانت واقتربت، ثم تبعدني لتكون مع غيري. سأظل ألاحقها، لن تكون لغيري».

- ٣٣ -

عند الظهر كانت ميمي بكامل أناقتها عند ليال. لقد تحايلت على العجوز وأقنعتها بأنها ستزور الطبيب. عرضت عليها العجوز أن ترافقها، لكنها رفضت بشكل قاطع مما جعل العجوز تشك بصحة قولها. وتأكد شكها حين رأت ميمي وليال في سيارة هذه الأخيرة. «أين تذهبان معاً؟ هل الست ليال تقلها إلى الطبيب، أم أنهما ذاهبتان إلى مكان آخر؟ هذه القردة، أنا أعرف كيف أربيها حين تعود». قضمت غيظها وظلت في حالة استنفار، تراقب عودتهما من شرفة بيتها.

أما ميمي فقد جلست إلى جانب ليال في السيارة وأخذت تدلها

على الطريق المؤدية إلى المطعم وكان في قلب العاصمة. لم تهدأ عن الثرثرة طوال الطريق وليال غارقة في ذاتها تتساءل عما تقوم به ولماذا قبلت أن تدعو هذه المرأة، ومن ثم لماذا تساير سهام وتتابع أخبارها، هل هي حشريتها التي تجرها إلى هذا السلوك كي تكتشف ما يدور في عالم تلك السحاقيات كما تقول لنفسها وهي بكامل وعيها، أم أن هناك ميلاً «دنوجوانياً» لديها يدفعها إلى القيام بما تقوم به؟. لم تكمل تفكيرها هذا لأنهما وصلتا إلى المطعم، وقالت ميمي: «الآن عليك أن تجدي موقفاً للسيارة». خرجت ليال من شرودها وأخذت تبحث عن مرآب.

ترجلتا من السيارة وأخذتا تسيران في الشارع: ميمي تتأبط ذراع ليال كما تفعل مع زوجها، وتتأمل في كل واجهات المحال وتتوقف أحياناً لتدل ليال على فستان أو حذاء أنيق «ما رأيك لو قمنا بجولة صغيرة على المحال قبل الغداء، أم تفضلين ذلك بعد الغداء؟» سألت ميمي.

ـ لا، أجابت ليال أنا بعد الغداء أعود مباشرة إلى البيت، لأنني أريد أن أرتاح.

ـ إذاً، قبل الغداء، على كل حال ما زال الوقت باكراً.

واصلتا سيرهما وميمي تجر ليال إلى دخول بعض المحال حيث تجرب فستاناً أو حذاءً وتطلب رأي ليال، وهذه الأخيرة تعطيها رأيها وتختار لها ما يناسب جمال جسدها وأناقته. لكنها كانت تسأل نفسها من حين لآخر ما الذي يدفعها إلى تحمل هذه المرأة ونزواتها. وحين مرتا أمام مكتبة، حدثت المفاجأة بالنسبة إلى ليال: سهام تخرج من تلك المكتبة، وتواجهتا وجهاً لوجه. تلبكت سهام،

نظرت إلى ليال وقالت وهي تهز برأسها كأنها قبضت عليها في الجرم المشهود: «مرحباً دكتورة ليال». فما كان من ليال إلا أن ردت التحية، اقتربت من سهام وقالت: «إنها جارتي ميمي». ثم توجهت إلى ميمي وقالت: «إنها صديقتي سهام».

«لست أدري بأي حس يعرفن بعضهن البعض:سهام وميمي توترتا، كأن كل واحدة منهما شعرت بأن الأخرى تأخذ ليال منها». قالت ليال في نفسها.

ـ نتناول الغداء في مطعم. أدعوك إلى مرافقتنا. قالت ليال وهي تربت كتف سهام.

ـ لا، شكراً. إنني مشغولة.

أما ميمي فلم تقل أي كلمة، وفرحت حين رفضت سهام الدعوة.

ـ لا، شكراً. رددت سهام أمام إلحاح ليال. وانسحبت، فتابعتا طريقهما إلى المطعم حيث دخلتاه صامتتين، وحين جلستا إلى الطاولة قالت ميمي:

ـ هل حقاً كنت ترغبين بأن تأتي صديقتك معنا؟

ـ طبعاً، إنها طالبة ممتازة، وهي صديقتي.

ـ أما أنا فقد سررت لرفضها لأنني أريد أن أكون وحدي معك. هل هي صديقتك فعلاً؟

ـ نعم.

ـ هل هي الصديقة التي كانت مريضة يوم الحفلة؟

ـ نعم.

ـ هل تعجبك؟ لا أظن لأن شكلها... لا أظن أنك تحبين هذا النوع. إنها من النوع الذي يثير... أنا مثلاً أحب هذا الشكل الرجولي في المرأة، لهذا السبب لا أتخيلك إلا وأنت ترتدين الجينز وشعرك مرفوع. يا الله كم تثيرني هذه الصورة، حين أراك بالفستان وشعرك مسدول و«ممكيجة»، لا أعود أعرفك.

ـ ماذا تريدين أن تأكلي؟

ـ أطلبي ما تريدين، فأنا مسرورة لأنني معك، الطعام لا يهم.

طلبت ليال ما رأته مناسباً. «أما أنا فأريد كأساً من الويسكي». قالت ميمي. وطلبت ليال لنفسها كأساً من البيرة.

ـ هل أنت مشغولة بعد الغداء؟ سألت ميمي.

ـ لا، لقد قلت لك بأنني أنام بعد الغداء، إنها عادة أتمتع بها جداً ولا أفوتها أبداً.

فكرت ميمي أنها لا تستطيع البقاء مع ليال بعد الظهر وبالتالي لن تستطيع تحقيق ما كانت قد خططت له: «لدي الوقت، فالليل طويل».

أما ليال فكانت تساير ميمي في كل طلباتها وتتمنى أن يمر الوقت بسرعة لكي تنتهي من هذا الواجب الذي زجت نفسها فيه. «بعد هذا الغداء سأنهي علاقتي بها، سأجعلها تفهم أنني مشغولة وأن لا وقت لدي للاستقبالات والثرثرة، سأضع حداً لها، إنها تتمادى وتتصرف كأنها عشيقتي، هل هي ممثلة بارعة أم أنها حقاً هكذا؟ فلتذهب إلى «عجوزتها» وإلى الشيطان، الأمر لا يعنيني... لكنها طيبة وناعمة، لا أستطيع أن أكون قاسية معها..».

بعد أن شربتا القهوة، ربتت ليال على كتف ميمي وقالت: «هيا فلنذهب الآن لقد بدأت أنعس».

ـ كم لمساتك مثيرة.

ابتسمت ليال ورددت: «هيا هيا ما عدت قادرة حتى على قيادة السيارة».

وصلتا إلى البيت وإذ بالعجوز أمام البناية.

ـ انشغل بالي عليك، ماذا قال لك الطبيب؟

حين سمعت ليال ذلك تركتهما وصعدت إلى بيتها.

ـ قال لي إنني بحاجة إلى الراحة.

ـ ولماذا ذهبت مع الست ليال؟

ـ لأنني لا أريد أن أقود سيارتي، طلبت منها أن ترافقني، ففعلت.

ـ أمضيتما كل هذا الوقت عند الطبيب؟

ـ كان لديه مرضى كثر واضطررنا إلى الانتظار طويلاً.

ـ لا بأس سأرافقك إلى البيت.

ـ لا داعي لذلك لأنني أريد أن أنام قليلاً، لقد تعبت، أراك لاحقاً.

ـ أراك بعد النوم. «بدأت تتهرب مني، لن أتركها تفعل».

ـ ٣٤ ـ

كانت ليال تحضر قهوتها بعد أن استفاقت من النوم، حين طرق بابها «لا أنتظر أحداً... ربما كان الناطور...» فتحت الباب وإذ بميمي تحمل صينية عليها ركوة وفنجانان.

ـ أظن أنك لم تشربي القهوة بعد. ودخلت. كانت ترتدي قميص النوم وفوقه ملاية خفيفة. وتابعت: «تفضلينها من دون سكر، أليس كذلك؟». سكبت فنجاناً وقدمته إلى ليال التي أخذته من يدها وهي مذهولة من هذه الوقاحة التي تعتبر، في الوقت نفسه، لياقة لا تستطيع رفضها.

قبل أن تجلس ميمي رفعت عنها الملاية وظلت بقميصها الشفاف قبالة ليال التي نظرت إلى جمال جسدها وحارت في أمرها وبما عليها أن تفعل كي تفهم هذه المرأة أن تتركها وشأنها.

ـ أنتظر الآن زائراً ومن غير اللائق أن يراك بهذا اللباس المثير.

ـ حين يطرق الباب أرتدي روبي وأنسحب. لا تخافي، وإن كان الزائر صديقتك سهام، فلا حرج، أبقى كما أنا.

رن جرس الهاتف:

ـ أريد أن أراك.قالت سهام.

ـ كلميني بعد نصف ساعة، لدي الآن ضيوف.

ـ هل ما زالت عندك؟

ـ نتكلم لاحقاً.

«إنها معها وتقول أنها ليست منهن»، أنا الآن سأكشف كذبها.

ـ سيدة ميمي، لقد شربنا القهوة، شكراً لك، واعذريني إن طلبت منك الانصراف لأنني أريد أن أحضر نفسي قبل أن يأتي الأصحاب.

اغتاظت ميمي، لكنها حملت الصينية وعادت إلى بيتها وإلى

أحضان العجوز التي ما أن دخلت ميمي بيتها حتى وافتها وأخذت تدللها لأنه، وكما قال الطبيب عليها أن ترتاح وترفه عن نفسها.

وسهام التي تأكدت من كذب ليال و«خيانتها» قررت أن تثأر، لكن ثأرها أتى على الورق أولاً:

«قررت ألا أكتب، قررت أن أقتل شعري، وأقص شرايين جسدي. لا الحروف تجبرك على حبي ولا بنزف الكلمات يصهل جوادي. ترصفين كتاباتي بالتدريج، تقرئينها وتضحكين وأتلوى كأفعى لسعت جسدها. تضحكين، تهزئين؟

«قتلتِ بي الأفق، سحبت مني كل ما خبأت، سرقتِ مني كل ما ادخرت، صار السراب همي الوحيد. أضيء القنديل فلا يشعل، أكتب فتأتي كلماتك وتحرق ما أكتب، أسمع القلب ونبضاته فتشلين حركته

«قررت ألا أحبك،

لا أحبك،

لا أحبك،

«قررت البحث عمن لا يضحك، أن أبحث عمن يقرأ شعري، ويعرف أنه يُبكي».

انتهت من الكتابة وعادت إلى الهاتف:«ألو هل ما زالت عندك؟».

ـ لا، إنني وحدي، ما بك؟ بماذا تفكرين؟

ـ أريد أن أراك، ما عدت أتحمل تهربك مني.

ـ إفهميني سهام، لا أتهرب منك، لكن لدي أموري، والأصدقاء لا يتعاملون هكذا، إنهم يتبادلون الاحترام، فإن أردت أن تكوني صديقتي فعليك احترام أوقاتي وإلا...

ـ وإلا ماذا؟ تهددينني دائماً. أنا الآن سأتصرف.

ـ كما تشائين، فأنا أعرف ما يدور في رأسك، إنك على خطأ، لن أطيل الحديث، افعلي ما ترينه مناسباً لك أولاً، فمن جهتي، أنا مرتاحة.

ـ هل أراك اليوم إذاً؟ نذهب إلى شاطئ البحر ونجلس على الرمل (كانت تفعل ذلك مع نور) نحكي، نستمع إلى صوت الموج ونتأمل غروب الشمس.

ـ وأي شاطئ تقصدين؟

ـ أنا أعرف أماكن عديدة، ألا تثقين بي؟ أو أنك تخافين مني؟

هذا السؤال الأخير استفز ليال وأجابت من دون أن تفكر: «أخاف؟ لماذا؟ وممن؟ سأراك عند الساعة الخامسة على كورنيش الروشة، بالقرب من المسبح العسكري».

«لقد نجحت». قالت سهام لنفسها. وأمام قبول ليال لدعوتها نسيت غضبها وانقلب مزاجها:

«أحبك للمرة المليون

وفي كل مرة يتلون حبي بلون

تارة لأنك الحياة، فأحيا

وتارة لأنك العذاب

فأجد لذتي الأبدية

وأحياناً أحبك لأنك ما فوق الحب

تنظرين من أعلى

لأنك الأعلى

أحبك لأنني لا أستطيع إلا أن أفعل

أحبك لأنك وجود الحب

لأنك لوحة الحب

وكلماته وبصماته

ومضمونه

وظاهره وباطنه

أحبك لأنك الجمال

والعشق والدلال

لأنك الماء والهواء

والواقع والذكريات

في كل مرة أحبك لأجل حقيقة

فكيف تريدين أن أتوقف

وحبك سلسلة الحياة

إن غابت إحداها

فقدت الحياة».

- ٣٥ -

أعادت سهام قراءة ما كتبت وتساءلت «هل أحبها إلى هذا الحد؟ من المؤكد، وإلا لما كتبت لها وعنها بهذه السرعة، إنها صارت في كل قصائدي، ورائحتها تملأ محور أشعاري، صارت هيكل الكلمة، معناها المعلن والخفي، أقول حبيبتي هي، أقول غجريتي الشقراء هي، كيفما أدور أجدها تتدخل عنوة في إفراغ أفكاري ومكنونات أسراري، ودقات قلبي التي نظمتها هي... لكن كيف الوصول للمحار وهي لا تنوي الغطس؟ أنا نويته وهي أوكسجيني، هي لا تنوي شيئاً وأنا نويت كل شيء، هل لي بشيء؟ لا أعرف. إلى متى...؟».

حان الوقت وسهام تدور في أفكارها، لكنها رمت أوراقها في محفظتها وأسرعت لملاقاة ليال. حين رأتها تنتظر في السيارة اقشعر بدنها وأصيبت بنوع من الجمود هي التي كانت مليئة بالحيوية و... فتحت باب السيارة وجلست.

ـ إلى أين؟ سألت ليال.

ـ إلى الرملة البيضاء، هناك شاطئ جميل ورمل ناعم و...

توجهت نحو المكان وحين أوقفت السيارة نظرت إلى الشاطئ ورأته مقفراً فانتابها الخوف.

ـ سهام، ما هذا المكان؟ انظري، لا أحد على الشاطئ. أنا لا أجسر...

ـ وممّ تخافين؟ أنا آتي أحياناً وحدي وأسير على الرمل.

ـ وإن اعتدى أحد علينا، ماذا نفعل، يقتلنا ولا أحد يعرف بنا. لا،

لست مطمئنة، الدنيا حرب وفوضى. لا، لا، ما هذا الاختيار؟ نذهب إلى شاطئ مأهول.

أدارت محرك سيارتها من دون أن تنتظر جواب سهام ومن دون أن تعرف إلى أين ستذهب.أما سهام فاستغربت تصرف ليال وسألتها بنوع من الخبث:

ـ هل تخافين إلى هذه الدرجة؟ أم أنك ترفضين أن يرانا أحد هنا على الشاطئ فيلبسك التهمة.

ـ لا، لا تعنيني التهم والأقاويل، لكنني لا أريد أن أموت بطريقة مجانية، وفقط استجابة لرغبة الست سهام في ممارسة رومنسيتها.

ـ نذهب إذاً إلى مسبح مخصص للنساء.

ـ لا مانع عندي، لكن الوقت تأخر الآن وسنجده مقفلاً.

ـ إذاً نذهب إلى بيتك؟

ـ لا بأس، نذهب.

صمتت سهام قليلاً كأن قبول ليال السريع فاجأها، شعرت بانقباض لم تفهم معناه. ومن دون طول تفكير، قالت:

ـ لا، أرجوك فأنا غير جاهزة بعد، ما زلت أخاف من نفسي، يكفيني أنك قبلت أن أزورك في بيتك. لا، لا، نذهب إلى مكان آخر.

لم تمانع ليال وأخذت سهام إلى المقهى المعتاد، ثم انصرفتا كل منهما في طريق؛ سهام إلى أوراقها وليال إلى كتبها ومزاجية جارتها ميمي.

- ٣٦ -

ـ هل تذهبين؟ سألت ميمي، إنه «نايت كلاب» على شاطئ البحر في منطقة «المعاملتين» إنه في الظاهر مختلط لكنه في الواقع مكان للـ «gay»، يدخله النساء والرجال معاً وفي الداخل يفترقان ويصبح لكل جنس أجواؤه وممارساته.

ـ هل يوجد مثل هذه الأمكنة في لبنان؟

ـ أين تعيشين إذاً؟

ـ مع من تذهبين؟

ـ طبعاً معها، فهذه آخر ليلة قبل عودة زوجي وتريد أن نسهر معاً.

ـ وأنا لماذا تريدين أن أذهب معكما؟ ما هو دوري؟ ألا تلاحظين أنك تخطيت الحدود؟ أتعتقدين أنك قادرة على فرض نفسك علي؟ لا تهمني أموركن ولا يعنيني الموضوع.

فكرت ميمي أن ليال بدأت تغار من العجوز وفرحت من ردة فعلها وقالت كي تصلح الأمور:

ـ لا تستائي، أنا أفهم مشاعرك، وإن أردت أذهب معك أنت وأبعدها، أنا أعرف كيف أتصرف.

ـ لم تفهمي إطلاقاً، أنا غير مستعدة لأي مشروع من هذا النوع. أتمنى لك ولصديقتك سهرة ممتعة، أرجوك اتركيني فلدي هموم أخرى.

خرجت ميمي وهي لا تفهم سلوك ليال، وهذه الأخيرة كانت تفكر بأن الناس أشكال وألوان وبأن البعض منهم لا يطاق ولا يفهم معنى اللياقة والتهذيب والحدود، فيفسرها بحسب ميوله وشطحات

خياله. «ربما كنت أنا المذنبة، ما كان علي أن أساير هذه الجارة ولا أن أسمح لها بدخول عالمي وبيتي. لكنها مسكينة لا تقصد الإزعاج، تريد تلبية رغباتها فقط وتعتقد أنني مثلها لمجرد أنني لم أرفضها، لكنني الآن سأعرف كيف أتصرف معها». وبعد وقت قصير فكرت بأن تذهب إلى هذا الـ «نايت كلاب»، لكن كيف لها أن تذهب وحدها؟ وسرعان ما أتتها فكرة دعوة صديقتها ريا، فاتصلت بها واتفقتا على الذهاب معاً.

دخلتا المكان باكراً، وبعد أن تفحصتا الأجواء جلستا إلى طاولة في الجهة التي وجدتا فيها نساءً، ثم طلبتا المشروب وتظاهرتا أنهما من رواد المكان. وما هي إلا دقائق حتى دخلت ميمي بصحبة رجل وتبعتها العجوز مع رجل آخر.

كانت القاعة شبه منقسمة إلى قسمين لا حدود بارزة بينهما. توجهت ميمي والعجوز إلى الجهة التي تجلس فيها ليال وريا وتوجه الرجلان إلى الجهة الأخرى. كانتا معروفتين من صاحب المحل الذي رحب بهما ورافقهما إلى طاولة حيث جلستا، ومن دون أن يطلبا شيئاً أتى النادل ووضع أمامهما كأسين من الـ... شربت ميمي من كأسها ثم جالت بنظرها في أرجاء القاعة، نصف المعتمة، وحين رأت ليال مع صديقتها اغتاظت وقالت للعجوز: «انظري إنها هنا».

ـ من؟

ـ ليال.

ـ وحدها؟

ـ معها امرأة أخرى.

ضحكت العجوز وقالت: «الخبيثة، تريد إيهامنا بأنها مختلفة عنا

وتتعاطى معنا، وبخاصة معك بنوع من التعالي. لقد انفضح أمرها الآن». كانت تقول ذلك وهي تنظر باتجاه طاولة ليال التي حين لاحظت أنهما تنظران إليها تصرفت كأنها لا تراهما بل حاولت أن تتحدث إلى ريا التي، هي أيضاً، أجادت تمثيل الدور المطلوب.

تواصل دخول السيدات والرجال إلى أن امتلأ المكان وعلت أصوات الموسيقى وبدأت السهرة. العجوز التي تأكدت أن ليال «منهن» أخذت تتفنن بمداعبة جسد ميمي وهذه الأخيرة تنظر إلى ليال وكأنها تطلب منها أن تكون هي محل العجوز.

ـ أكنت تعلمين بمثل هذه الأمكنة؟ سألت ليال.

ـ أعلم طبعاً، فاللواتي يأتين للعلاج في عيادتي يخبرنني عنها، لكن هذه هي المرة الأولى التي أتعرف إليها وعلى حقيقتها، وما شجعني على المجيء هو أنك معي.

ـ وما رأيك؟ وإلى أي مرحلة ستصل مداعباتهن؟

ـ تصل إلى مرحلة الإثارة القصوى حيث يتركن القاعة ويذهبن إلى مكان آخر يمارسن فيه الجنس للحصول على النشوة.

ـ إذاً لن يحصل شيء من ذلك هنا؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ ألا يزعجهن وجودنا هنا من دون أن نشاركهن سلوكهن؟

ـ لا أحد يهتم بنا، فكل واحدة مشغولة بعشيقتها حتى أن لا أحد منهن يرانا.

ـ لماذا لا نشارك، هيا فلنرقص مع الجميع.

ـ لا مانع عندي، هيا.

كانت ميمي تراهما لأن عينها كانت دائماً على ليال تراقب ماذا ستفعل مع صديقتها. حين رأتهما تتوجهان إلى حلبة الرقص، اشتعلت غيرة، لكنها قررت أن تفوز بها. أخذت تراقبهما ولاحظت أن ليال لا تعانق ريا ولا تقبلها كما كانت تفعل النساء الأخريات. أفرحها هذا الأمر لأنها فسرته على هواها، وهو أن ليال تريدها هي ولهذا السبب تهمل صديقتها، وهذا ما شجعها على التفلت للحظة من العجوز والإسراع نحو ليال محاولة أخذها من ريا، وأمام رفضها أخذت تشتمها وتقول: «ماذا تفعلين هنا ولماذا أتيت؟» كانت ثملة ومهتاجة جداً. أتت العجوز، جذبتها إليها وهي تؤنبها وتقبلها على ثغرها كي تسكتها. وحين ابتعدتا عادت ليال وريا إلى طاولتهما وبعد قليل انصرفتا.

في السيارة قالت ليال: «عالم غريب ما كنت أعلم به».

ـ ومن هي هذه الصبية التي حاولت شدك؟

ـ إنها جارتي في البناية حيث أسكن. أعرف أنها سحاقية وهي التي دلتني إلى هذا المكان.

ـ إنها مغرمة بك، الأمر واضح.

ـ وماذا أفعل؟

ـ وسهام، أيضاً، مغرمة بك على ما أظن.

ـ لكن الفرق بين الاثنتين كبير جداً؛ ميمي امرأة غبية وعادية بينما سهام رقيقة، ذكية ومثقفة ولهذا السبب أهتم بها وأريد مساعدتها.

ـ وهذا ما سيزيد في تعلقها بك.

ـ كيف تفسرين هذا: ميمي وسهام مختلفتان كلياً والاثنتان وجدتا موضوعاً واحداً لتعلقهما.

ـ لا غرابة في الأمر. وموضوع تعلقهما ليس واحداً، فكل واحدة منهما مغرمة بوجه من وجهيك، واحدة تشدها أنوثتك والأخرى تشدها ذكورتك.

ـ ربما، لكن الأمر مختلف بينهما، أعتقد أن هذا الميل عند ميمي هو نوع من الترف، لا يشكل عندها مشكلة، فهي لا تعاني فعلاً، أما سهام فمشكلتها أصعب، القضية عندها ليست ترفاً أو ميلاً عابراً، إنها تعاني وتتألم من وضعها ولا تستطيع تغييره.

ـ يبدو أن ميمي هي من النوع «الجنس المزدوج» BISEXUEL، هي متزوجة وفي الوقت نفسه تمارس ميولها الأخرى من دون أن يطرح ذلك عندها سؤالاً، بينما سهام، هي، على ما يبدو، فعلاً سحاقية وهذا ما يجعلها تشعر بغربتها في المجتمع.

ـ لكن كيف تتم عملية الانجذاب بين شخصين؟ ما هو المحدد؟ هل هو التناقض؟ هل هو التشابه؟ هل هو التكامل؟

ـ ربما كان التكامل.

ـ وأي نوع من التكامل؟

ـ تكامل الكائن البشري، لهذا السبب نرى أن القاعدة هي في انجذاب المرأة إلى الرجل والعكس بالعكس.

ـ لكن حتى في هذا التجاذب القاعدي، ما هو المحدد، هل التضاد أو التشابه؟

ـ هو طبعاً التضاد على ما أعتقد.

ـ لا أظن ذلك، فأنا مؤمنة أن الشبيه لا يدرك إلا الشبيه، يعني أن المرأة تبحث في علاقتها مع الرجل عن اكتمال أنوثتها، كما أن الرجل يبحث في علاقته بالمرأة عن اكتمال ذكورته و...

ـ مهلاً، مهلاً، ماذا تقصدين؟

ـ أظن أن كل كائن بشري هو مزيج من العنصرين، الأنثوي والذكوري، وهذا المزيج يختلف بين شخص وآخر، ولهذا السبب فإن الرجل مثلاً الذي يتشكل كيانه من كمية معينة من الذكورة ومن كمية أخرى من الأنوثة، يبحث في الآخر عما ينقص ذكورته كي تصبح هذه الأخيرة وحدة مكتملة، وهذا يعني أن ما يجذبه في المرأة ليس ما عندها من أنوثة بقدر ما عندها من متمم لذكورته، وهكذا الأمر عند المرأة أيضاً. إذا كان هذا التحليل صحيحاً فهو يفسر العلاقات المثلية إذ أن جنس الآخر ليس مهماً بقدر ما هو مهم اكتمال الشبيه. قد يكون التكامل هذا داخل الجنس الواحد كما عند السحاقيات واللواطيين، وقد يكون بين الجنسين كما هو الشائع والمعروف.

ـ ربما كان ذلك تفسيراً لكنه، حتماً، ليس التفسير الوحيد. خذي وضعك أنت، ما نوع الرجل الذي يجذبك؟

ـ أنا يجذبني الرجل الأنثوي، يعني الذي تكون أنوثته ظاهرة. إن الرجال الذكوريين يبحثون عن المرأة الكثيرة الأنوثة، لماذا؟ لأنها تمتلك الجزء القليل من الذكورة وهذا الجزء القليل هو ما يكمل ذكورتهم. إذاً ما يجذب الرجل في هذه المرأة ليس أنوثتها، بل قلة ذكورتها، وهكذا فبالتقاء هذا الرجل مع تلك المرأة نكون أمام اكتمالٍ للذكورة وللأنوثة، يعني هو وهي يشكلان أنثى شبه كاملة

وذكراً شبه كامل ـ وأقول «شبه» لأن الخطأ وارد دائماً ـ وذلك ضمن عملية تمازج بين الشخصين وهذا ما يسمى الحب. ولهذا السبب الحب هو دائماً أناني لأن كل طرف فيه يبحث عن اكتماله ولأنه بالنهاية لا يدرك الشبيه إلا الشبيه، كما تقول الفلسفة اليونانية.

ـ بدأت تفلسفين الأمور، لقد تأخر الوقت، رديني إلى بيتي ونتابع الموضوع لاحقاً، على كل حال إنها وجهة نظر للنقاش.

ـ ٣٧ ـ

كانت سهام في تلك الليلة قد تفقدت ليال مرات عديدة من دون جواب. وحين يئست عادت إلى أوراقها وإلى قلمها، صديق وحدتها ومفرج كربها.

«تأكدي يا صديقتي أننا حينما نحب لا نكون بوارد انتظار المكافأة أو تبادل العواطف. وإن أعظم الحب هو ما كان بلا نتيجة وتكون فيه المشاعر أصدق وأقوى. وما الفائدة لو كان الحب بلا عذاب؟. كلما نازعت في حبي كلما ولد من نزاعي حياة جديدة. إن هذا القلق الذي أعيشه يجعلني أشعر بنبضي وحياتي. وسعادتي لا تكتمل إلا في السعي نحو تلك الأشياء، وليس في تحقيقها، فكم هي درب الغابة جميلة، وأحلى من الغابة نفسها. فما يصدر عنك يا صديقتي في أكثر الأحيان يسعدني أكثر مما يسعدني كيانك. فما وراء السماء هو ما يجعلنا نؤمن، وما خلف البحار هو ما يجعلنا نبحر، وما خلف الكلمة هو ما يجعلنا نكتب الشعر والقصائد. وما خلف الوطن والمدينة هو ما يجعلنا ننذر أنفسنا للتضحية وليس الوطن هو ما يدفعنا للثورة.

«لا تعتقدي بأن تقربي منك يعني أنني أعيش الوحدة، نعم أعيشها في داخلي وليس على صعيد العلاقات وقد صارت كثيرة، ولذا أرفضها كلها وأنقطع عنها، فما عدت أرغب بالاستغلال لا من طرف ولا من الطرفين، لا وجود للحب وللاستغلال في مكان واحد. إما أن تحب الآخر، إما أن تستغله، وإما أن تحب الآخر، إما أن تقتله. ففي أكثر علاقاتي إن لم أكن مستغلة أكون قتيلة. لم أعرف الحب ألا من خلال نشوتهن وصمتي، حتى تعودت أن يكون دوري إسعادهن فقط، حتى أني أدمنت، فقط، سماع تأوهاتهن، كأنني كنت أوزع الخدمات مجاناً حتى من دون أن أفكر أن لجسدي علي حقاً. كان كل همي محصوراً في أنه متى حصلن على النشوة سوف يكون بمقدورهن احتضاني، وهذا ما كنت أبحث عنه، كنت أبحث عن جسد يحميني، لا عن جسد يشبعني، عن ثدي يفيض بالحنان لا عن ثدي ينتظر المداعبات والقبلات. لكني ما وجدت إلا أجساداً ملتهبة، لا يعني لها الحب شيئاً، إنما الجنس هو ما كان يعنيها. تصوري أنني قضيت طوال سبع أو ثماني ساعات في الفراش مع امرأة مجنونة، لا يشبعها أسطول من الرجال، ممنوع علي أن أستريح، أن آكل.. لكن سمح لي بالمسكرات. وحينما قررت أن أنام في حضنها، كطفلة، أختبئ في صدرها.. اتهمتني بأنني لا أصلح للاحتضان. واكتفت هي بنشوتها التي استغلتني لأجل تكرارها أكثر من مرة في الليلة الواحدة وحرمتني من لحظات الشوق إليها لكي أشعر بالطمأنينة، وكأنه محرم على الإنسان أن يقابل وجه الآخر وجسده إلا في حال الـ«fuck». ومثلها مثل غيرها. وهكذا علاقاتي لا تستمر طويلاً أنا لا ألوم الرجال في حال تركوا زوجاتهم بعد حدوث الفعل الجنسي لأن النساء سباقات في هذا المجال».

حين قرأت ليال هذا النص سألت سهام:

ـ هل لديك علاقات كثيرة؟

ـ إنها علاقات عابرة تنتهي عادة بعد لقاء واحد.

ـ كيف يحدث ذلك؟ كيف تعرفين أن الأخرى هي سحاقية؟

ـ لم يخطئ حدسي مرة واحدة، أعرف مباشرة.

ـ وهل تجدين لذة في هذه العلاقات العابرة؟ لكن ما أغباني، لماذا هذا السؤال؟

ـ سأجيبك عن سؤالك: عندما تمتلك المرأة جسد المرأة الأخرى، تكون كأنها امتلكت جسدها، وعبأته طاقة ولذة، عكس ما يحصل عندما يمتلك الرجل جسد المرأة، فهو يفرغها من أنوثتها ويحاول استلابها حتى في الفراش. إنه يسلبها حبها لذاتها، فيأخذها راضية أم مرغمة لأجل إفراغ ما فيها من طاقة. أما مع المرأة فالموضوع يختلف، فبقدر ما تعطي المرأة للمرأة بقدر ما تعطي لنفسها، تعطي وتعطي بغض النظر عن المواقف التي خارج العلاقات الجنسية. لكن تبرز محبة المرأة لذاتها ولجسدها خلال تلك العلاقة الحميمة التي تجمع الذات على الذات ولا يفصل بينهما حاجز الاستلاب والاغتصاب. فلا اغتصاب في تلك الأنواع من العلاقات، تعطي هنا المرأة بكامل رضاها وبكامل وعيها، ولا تتلقى فقط كما الحال في العلاقات الثنائية المختلفة. فتفكر حينها المرأة في الصورة المقابلة لها، تحاول أن ترضيها ولا أن تقف موقف العاجز في حال اكتفاء أحدهما. أما في العلاقة التي يسمونها عادية، فلا فرق عند الأكثرية إن اكتفت المرأة أم لا. هكذا مجتمعنا، لا ألوم هنا أحداً، لأنه هكذا تعودنا. ولأنني أحببت

نفسي وأنوثتي حتى النرجسية، أشبعت الآخر دون سواه لأنني أعلم بأنني، عاجلاً أم آجلاً سأمتلك ما هو ممكن، لكن من الصعب أن أمتلك نفسي عن طريق الآخر. لذلك تكون العلاقة أعمق وأشمل لأنها تكون مع الذات عن طريق الآخر الذي من الجنس نفسه. ولأنني أحببت نفسي، أحببت أن أعرفها. ولا تتم المعرفة إلا عن طريق خوض علاقة مع الجنس ذاته. ولأنني أعرف الآخر المختلف لأنه يمثل النقيض، أحببت أن أعرف نقيض هذا النقيض أي أنا. وأنا لست مجبرة على معرفة النقيض، لكنني مرغمة على معرفة نفسي ومعرفة المرأة التي أقف أمامها، أرى التشويهات وأرى التناقضات وأرى الإيجابيات وأرى ما أحب وما أكره من دون إكراه، وأتصرف كما أتصرف مع ذاتي، أفعل ما أشتهي وأشتهي ما أفعل وأمارس كافة حريتي التي حرمت من ممارستها مع النقيض الذي تعود أن يكون صاحب القرار. الصعوبة أن تتحدي نفسك لا أن تقهري الآخر، والصعوبة أن نعرف ماذا نريد ومتى نريد وأين. وليست الصعوبة أن نعرف ما لا نريد، خارج نطاق الزمان والمكان. فلسفتي في الحب أن تحبي نفسك في الآخر الشبيه، وأن تحبي الشبيه على أساس أنه منك وإليك وإنه صورتك، في الواقع الآخر. حيث لا مخاوف ولا إسقاطات ولا حروب لإعلان الفريق المنتصر وحيث في هذا الواقع، يكون الربح مشتركاً والعطاء كاملاً من دون تحديات الأقوى للضعيف والذكر للأنثى.

كانت ليال تستمع إلى قول سهام وهي تفكر بما دار بينها وبين ريا حول إدراك الشبيه للشبيه. وبعد أن أفرغت سهام ما عندها ساد الصمت بينهما لبرهة تململت بعدها سهام وسألت: «هل أزعجك ما قلت وأطلت في قوله؟».

ـ لا، أبداً لكن ما هو نوع النساء الذي يعجبك؟

ـ المرأة الأنثى. المرأة التي لا شيء فيها يذكر بالرجل.

ـ ترفضين أنوثتك، ولهذا السبب تبحثين عنها في الآخر، فلو قبلت أنوثتك لكان تغير الوضع.

ـ أشعر أن أنوثتي ناقصة. ما أجده في الآخر لا أجده في نفسي. حين تجذبني إحداهن أشعر كأن أنوثتي اكتملت.

صمتت ليال من جديد وأخذت تفكر بكلام سهام الذي ينسجم تماماً مع مفهومها للحب إذ إنها، وكما شرحت ذلك لريا، تؤمن بأن الشبيه لا يدرك إلا الشبيه، وها هو كلام سهام يثبت ذلك. لكنها حاولت أن تتجاهل الموضوع.

ـ كل واحدة منا، أنوثتها ناقصة، وكل رجل ذكورته ناقصة، وإن صدق قولك لكانت كل النساء سحاقيات ولكان كل الرجال لواطيين.

ـ ربما كانوا في العمق كلهم هكذا.

ـ ربما، لكن هناك اختلاف، إذ أن الشبيه يدرك أحياناً الشبيه في المماثل، وأحياناً أخرى يدركه في النقيض. ففي الحالة الأولى تكون العلاقة مثلية وفي الحالة الثانية تكون غيرية، ويبدو أن القاعدة هي في العلاقات الغيرية، ولذلك، برأيي سبب مهم وهو أن الإثارة تأتي من إيجاد الشبيه في التناقض، يعني أن تجدي متمم أنوثتك في رجل وليس في امرأة، تماماً كما أن الرجل يثار حين يجد متمم ذكورته في المرأة. يعني أن عنصر الإثارة هو هنا وإلا لما كانت العلاقات الغيرية هي القاعدة وهي السائدة.

ـ هذا ممكن، فأنا لا أستلطف إلا الرجال الذين يملكون أنوثة قوية. لكن يبقى الجسد، لا يثيرني إلا الشكل الأنثوي، فلجمال جسد المرأة تأثير كبير علي، وهو الذي يوقظ الرغبة عندي. ما ذنبي إن كنت لا أشعر بلذة الحب إلا مع امرأة، وهل الحب يتغير إن تغير موضوعه؟ إنه الحب، وهدف ممارسة الحب هو الوصول إلى اللذة والنشوة. ما الفرق إن كان ذلك مع رجل أو مع امرأة، أنا أؤكد لك أنه مع المرأة هو أفضل وأنقى وأعمق.

ـ لا أستطيع المتابعة في التحليل لأن الموضوع هو خارج نطاق المنطق والبرهان. إنه يدخل في حقل المشاعر والأحاسيس والرغبة التي لها منطقها الخاص وهو منطق زئبقي لا يوضع في معادلات خاضعة للبرهان العقلي.

ـ تماماً، نحن نسأل دائماً كيف نحب وكيف هو الحب ولكننا لا نسأل يوماً لماذا نحب؟ نحب لأننا نحب صورتنا في الآخر، الحب مطلق الأنانية، ولا يقع في الغرام إلا من هو أناني حتى النرجسية. أنا أحب الآخر حتى أجعله يحبني، لكي أحصل على الرضا الذاتي والقبول الاجتماعي، لذا تكثر حالات الانتحار في حالات الانفصال عن الحبيب، لأن من ينتحر لا يتخيل الحياة من دون مصدر لتعزيز نرجسيته. يشعر بالوحدة والغربة والنفي فقط لأنه فشل في إقامة العلاقة العاطفية مع الحبيب، لذا فهو لا يستأهل الحب. نحن نادراً ما نحب الشخص لأجله ولأنه يستأهل الحب، نحبه لأننا نريد منه أن يبادلنا الحب لكي نشعر بوجودنا ولكي نشعر بقيمة أنفسنا. هذا ما يحصل في حالات الـ gay، كما في الحالات الأخرى. في الأصل يكون الحب ومن ثم يأخذ هذا الحب صفة الـ«gay»، لكنه في البداية حب ولن أسميه نوعاً من الحب، فالحب

واحد، ليس فيه أنواع، هو في النهاية وضع تدخل فيه المشاعر المتنوعة التي تكون نابعة من صور قديمة ورغبات كالقنابل الموقوتة، تنفجر عند رؤية الصورة المطلوبة التي تحمل رموزاً معينة في خيالنا وفي طفولتنا وفي مراهقتنا. أليس هذا صحيحاً؟ أجيبيني، لماذا أنت صامتة؟

ـ أستمع إليك بانتباه شديد، تابعي إن كان لديك المزيد.

ـ نعم لدي المزيد وهنا صلب الموضوع: لماذا مطلوب أن تنفجر الصور والرموز دائماً في اتجاه واحد؟ يعني نحو الطرف المعاكس؟ لماذا يسمح بالمشاعر ولو على مضض ويمنع التنفيذ؟ لماذا مسموح التعلق بالموضوع ذاته في سن المراهقة، كما كانت تقول لي أمي، ويمنع التعلق بالموضوع ذاته في مرحلة النضج؟ لماذا يدخل هنا العار والعيب والله بكافة أوجهه؟ نحن ننمط على هذه الأشياء ولا نختارها: الفتاة تريد أن تصبح أمها والصبي يريد أن يصبح مثل والده. فقضيتا التعلق والتماهي يصنعهما الأهل ولا يصنعهما الأطفال لأنه لا يُترك لهم مجال للاختيار، ولو تركوا لما علمنا أين كنا اليوم. الطفلة حين تتماهى بأمها تكون في حالة حب أيضاً مع أمها كما مع الأب، ولا تتماهى بالأم فقط لكي تحصل على الأب. بالأساس التعلق يكون بالأم، وخرافة أن أصدق بأن التعلق يتحول إلى تماهٍ لكسب حب الأب، فالحب لا يتحول إلى تماهٍ، لكن التماهي ينقلب إلى تعلق، فالتعلق يشعر الطفل بأن الموضوع ملكه وحده فيصبح في علاقة أحادية ويتعلق بتلك الصورة التي يحصل عليها، وتصبح هناك علاقة جدلية ما بين النرجسية والتماهي و...

ـ لكن الطفل ذكراً كان أو أنثى يتعلق بأمه، وبحسب تحليلك

تكون النتيجة أنه من المحتم أن يكون، لاحقاً، حب الذكر غيرياً، بينما حب الأنثى مثلي، أهذا ما تريدين قوله؟

ـ لا تهمني النتائج، أنا أحاول أن أرى الواقع بكل موضوعية. لهذا فإن التغاضي عن موضوع الـgay يستدعي التفكير بخطر هذا الموضوع وذلك بسبب الجهل والخوف. يحكون حوله ومن ورائه ومن وراء الأصابع لكن لم يوجد حتى الآن امرأة بحثت في هذا الموضوع بشكل مباشر وبخاصة بالنسبة إلى الأنثى. هل الموضوع مخيف إلى هذه الدرجة؟ إنه واقع موجود ولو بنسب متفاوتة فيما بين النساء. أحياناً يعالجون الموضوع بالنسبة إلى الذكر، لكن بالنسبة للأنثى فهو محظور، لأن المرأة كلها محرمات وطوطم وكلها عورات، فكيف نزيد على عوراتها عورة؟ لكن الموضوع يشكل خطراً كبيراً بالنسبة إلى مجتمعنا الذكوري، فهو يشرح النقص الذي يعانيه الذكر في إسعاد المرأة، لذا يعتم على الموضوع بالنسبة إلى الأنثى ويحكى عن علاقات الذكر بشيء من الخجل، لكنهم يطرحون الموضوع. العلاقات المثلية عند النساء موجودة، فلنعترف بوجودها لأنها أمر واقع، لا مجال للاختباء.

ـ إنها موجودة. الكل يعرف ذلك.

ـ الكل يعرف ذلك بالنسبة إلى الذكر لأن الموضوع طرح منذ العصور القديمة في كل الأدبيات، لكن بالنسبة إلى الأنثى فلا يزال التعتيم قائماً، وهنا علينا أن نفهم الواقع، ولا يتم ذلك إلا بالكلام عنه وليس في إخفائه. فليكن معلوماً أن المرأة لا تحب المرأة لأنها gay بل تحبها لأنها تحب ذاتها أولاً ولأن المرأة تكون أهلاً للحب بغض النظر عن جنسها، بل لأنها إنسان. فأنا لأنني أحببت موضوعي العاطفي الثاني، بعد الأم أصبحت gay وليس لأنني gay

أحببت امرأة، وأركز هنا على عبارة «موضوع عاطفي»، يعني أن الإنسان لا يولد gay أو طبيعياً، إن جازت كلمة «طبيعي» بل يصبح gay أو لا يصبح بحسب اتجاه عاطفته وبحسب من يؤمن له الحماية والحنان والقبول والحب، فلا وجود لامرأة gay وامرأة عادية، وأكثر اللواتي أقمت معهن علاقة كن لا ينتمين إلى عالم الـ gay لكنهن أصبحن هكذا بسبب علاقتي معهن لأنه حصل حب ما أوجد فيهن شعوراً لم يعرفنه سابقاً.

ـ وهذا يعني أن حالة الـ gay ليست دائمة ومن الممكن، إذاً، وبحسب تحليلك أن يتم التغيير في موضوع الحب وبالتالي تتغير الحالة من مثلية إلى غيرية والعكس بالعكس.

ـ لا! تتغير العلاقة من غيرية إلى مثلية أحياناً كثيرة، لكن العكس غير وارد. وذلك بسبب العلاقة الجسدية وهذا ما تكلمنا عنه سابقاً في تملك المرأة لجسد المرأة. حين تتذوق المرأة هذا النوع من العلاقات لا تعود تقبل بعلاقة مع الرجل حتى ولو حاولت.

ـ يعني إن جربت المرأة مرة العلاقة المثلية فهي لا تعود تقبل بالعلاقة الغيرية، أهذا ما تريدين قوله؟

ـ بالتأكيد.

ـ وكيف تفسرين إذاً حالات الازدواج الجنسي La bisexualité؟ فهناك أشخاص يمارسون الحب مع الجنسين، أنا أعرف نساءً متزوجات ويمارسن السحاق وأعرف رجالاً متزوجين ويمارسون اللواط.

ـ من المؤكد أن العلاقات الغيرية عند هؤلاء الناس هي نوع من الترف وليس حقيقياً، كل هؤلاء الذين تتكلمين عنهم هم في

الحقيقة gay، يسايرون القواعد الاجتماعية ويدخلون في لعبة الزواج، ويمارسون حقيقتهم في عتمة الليل، زواجهم هو القناع الذي يرتدونه لإخفاء واقعهم وميولهم.

- ٣٨ -

تابعت سهام كلامها وأخذت ليال تفكر بميمي، فهي بالفعل تزوجت لأن الزواج كان مفروضاً عليها، ولو تركت لميولها لما فعلت. حين فكرت بميمي انتبهت إلى أن الوقت قد تأخر جداً فنبهت سهام إلى ذلك. أوصلتها إلى بيتها وعادت بسرعة لأن أصوات الانفجارات كانت قد بدأت تسمع في أطراف العاصمة وهو إيعاز بأن المعارك آتية. أتت فعلاً وكانت ليال لا زالت في الطريق مما دفعها إلى الإسراع وتجاوز بعض الحواجز التي نبتت فجأة في الطرقات، من دون أن تنتبه إلى صوت الرصاص الذي كان أحياناً يتابعها، إلى أن وصلت مرهقة إلى البناية حيث تسكن. حين أوقفت السيارة في الملجأ ـ الموقف، ظلت لبضع دقائق ترتجف قبل أن تلاحظ أن الملجأ يعج بالناس. وسرعان ما أتت إليها ميمي، أخرجتها من السيارة وأخذت تلاطفها وتقول لها: «الحمد لله على سلامتك، أين كنت إلى مثل هذا الوقت؟ لقد ذهبت عدة مرات إلى شقتك ولم أجدك، لكن اطمئني الآن، تعالي إلى زاويتنا، لقد عاد زوجي وهو الآن مع الأولاد». صمتت قليلاً ثم تابعت وهي تضحك: «ألم يكن من الأفضل لو بقي خارج البلد؟ ففي فترة غيابه لم تسمع طلقة رصاص واحدة، ألم تلاحظي؟ كنا نتجول كما نشاء ونخرج من بيوتنا في الليل ولا شيء يمنعنا من السهر حتى الصباح، والآن عاد وعاد معه القصف وعادت الرقابة والالتزامات...

كانت ليال مشغولة بحالها وبخوفها ولم يخطر ببالها أي تعليق على كلام ميمي، بل سارت معها إلى أن وصلتا إلى الزاوية المألوفة حيث جلست على الأرض، بعد أن حيت زوج ميمي، وظلت صامتة. العجوز التي كانت هي أيضاً في المكان استقبلتها بحرارة، على غير عادتها. إنها الآن مطمئنة إلى أن لليال صديقة وأنها «منهن». شعرت كأن بينهن الثلاث حواراً صامتاً لا يفهمه أحد سواهن. اقتربت من ليال وحاولت فتح حديث معها، لكن ليال، وبسبب تواصل المعارك ظلت صامتة وغارقة في ذاتها مما دفع بالعجوز إلى الابتعاد عنها والاهتمام بميمي وأولادها ومراقبة الزوج الذي كان يروي كم اشتاق إلى أولاده وزوجته خلال رحلته الأخيرة. وبغبائه كان يفسر ابتسامات ميمي على أنها مبادلة لأشواقه وهي في الحقيقة كانت ابتسامات خبيثة لا يفهم معناها إلا العجوز.

ـ إنهم «مزوقون» ، لقد أعطونا ليلة البارحة من دون قصف وهكذا استطعت أن أشبع شوقي إلى زوجتي الحبيبة، لكن المسكينة كانت متعبة وكنت أعد نفسي بالتعويض هذه الليلة، لكن ما في حظ، إلا إذا رحمونا وأوقفوا القصف باكراً.

خرجت ليال عن صمتها لتقول: «ليتهم يفعلون، لقد أرهقونا».

ـ لكننا هنا بخير، قالت العجوز التي لم يعجبها قول الزوج وتابعت: إن استمرت المعارك، ويبدو أنها ستستمر، ننام هنا، ما المشكلة؟

ـ ننام نحن النساء في جهة وأنت والأولاد في الجهة الأخرى، كلها ليلة وتمر، قالت ميمي.

ـ أنا لا تحسبوا حسابي، لن أنام هنا، إن أردت النوم سأذهب إلى سيارتي، لن أزعجكم.

وعنف القصف بشكل أسكت الجميع وزرع الرعب في كل الوجوه.

ـ هل يحتاج رفع العلم أو عدم رفعه إلى كل هذا العنف؟ قال الزوج.

ـ ماذا تقصد؟ سألت ليال.

ـ أقول الحقيقة، كل هذه المعارك هي بين... و... لأن أحد الفريقين أراد أن يرفع العلم اللبناني فوق... والفريق الآخر لا يريد.

ـ ترهات. حتماً الأسباب أعمق من ذلك وما رفع العلم إلا حجة. لكن يا إلهي من أين كل هذا السلاح وكل هذه القذائف؟ من يغذي الفرقاء بأدوات الدمار ولمصلحة من إنهاء البلد وتدميره؟

لم يجبها أحد، صوت القذائف كان الجواب الوحيد على تساؤلاتها. واستمر القصف عنيفاً طوال الليل وحتى ساعات الفجر، سالباً النعاس من كل العيون حتى عيون الأطفال. وحين أعلن أن المعارك انتهت كان الجميع مصاباً بشبه دوار من الإرهاق والخوف. صعدوا إلى بيوتهم بالتتالي ليتفقدوا مدى الخراب الذي خلفته القذائف العشوائية التي لم توفر حياً من العاصمة. لم تسلم من تلك الحمم إلا البيوت المحمية جيداً والمحاطة بأبنية عالية، وبيت ليال كان قد سلم إلا من بعض الزجاج المحطم والذي، حين رأته، قالت: «الحمد لله إن كانت هذه هي كل الخسائر»، وسارعت إلى سريرها. قبل أن ترتمي عليه، سحبت خط الهاتف، أخذت حبة منوم ومهدئ للأعصاب وخلدت إلى النوم.

في تلك الليلة، كانت سهام كالمجنونة، تشعر بذنب كبير، لقد أوصلتها ليال إلى بيتها وبدأت المعارك وهي لا تعلم إن وصلت إلى بيتها أم لا. حين اتصلت بها في الصباح ولم يرد عليها أحد، تأكد خوفها وقررت أن تقتحم بيتها ولو صدتها.

كانت زيارة سريعة، ذهبت بعدها سهام وهي مرتاحة ومطمئنة. عادت إلى بيتها وإلى ذاتها تتساءل عما دفعها إلى هذه الزيارة: «سارت عيوني قبل قدميّ، عندما قالوا لي إنك هناك، في عنوان لم أحفظه، لشدة جنوني، طفت المنطقة كأنني ما كنت أريد الاستدلال. مررت ببابك مليون مرة، وأخطأتني عيوني، حتى تجرأت، حملت أسلحتي، وصليت قبل أن أعلن قدومي، حملت قذارة الطريق، وخفت على هيكلك من الاتساخ، كأن أخطائي وخطاياي، كانت عالقة بي من رأسي لأخمص قدميّ، حاولت أن أتوضأ قبل، لذلك بادرتني... ولا بأس قلت، وكدت أسألك هل ألهيك عن صلاتك، فرائحة البخور كانت ممتزجة بك، كدت أعود من حيث أتيت، لكن شيئاً ما شدني لأن لا أصافحك، وأدخل من دون أن تقوليها. ألم أقل لك بأني فضولية سابقاً. بقدر ما كنت تائهة في الطريق بقدر ما وجدت نفسي مختبئة عندك، بادرتني بالسؤال: تشربين القهوة؟ وقلت في نفسي، مؤكد أن قهوتك ستكون من المسكرات، طالما صنعتها ملائكة، نعم أشرب وقليل من السكر يدركني. بمرارة أيامي وسعادتي بلقياك، حدثتك وحاورتك، ولوحاتك ترمقني، لا بل أحاطتني بنسيجها، بخطوطها وخيوطها، تلك كانت أنت، والأخرى كانت أنت، وهذه حياتك، كدت أن أبكي، لما سألتك عن حزنك المدفون والذي تخبئينه بالضحكة، رفضتِ هذا، لكن اعترفت، وهربت من حشريتي، وأحضرت

أوراقي ووضعتها، بعصبية، حتى أسمع صوتها، وأعرف أنه حان وقت الرحيل. كنت سأرحل صورياً لكن، كان شيء مني سيبقى، ستبقى ذاكرتي. حملت ما تبقى مني، واستأذنت الرحيل. دون أن تقولي كلمة، أنزلت رأسك، كأنك تفكرين بشيء ما، وفي نهاية المعبد كنت معي، ترشدينني إلى الطريق، كنت أعرفها، لكن أردت أن أسمع صوتك، حتى آخر الرؤيا، سرت وأنا في حلم. كنت عندها وشربت قهوتها، صليت في كنيستها، سبحت الخالق في مسجدها، رأيت أشياءها الخاصة، وعرفت أنها على رغم قساوة مشاعرها، حنونة طيبة، وعلى رغم عذاباتها، هي أنثى تبحث عن السماح، دموعك لم أرها في السحر، بل أحسست بها، لأنني أشعر بك، عذراً إن أخطأت التعبير، فعندما يحب المرء منا، لا يعود يعرف فن النطق، عذراً...».

ـ ٣٩ ـ

بعد الظهر حين شعرت ليال بأنها استعادت قواها أخذت تلملم الزجاج المحطم، وما أن انتهت حتى أتتها ميمي شاحبة اللون، صامتة على غير عادتها. ولما سألتها عن حالها، لم تنظر إليها بل ظلت عيناها موجهتين نحو الأسفل، لكنها قالت: «من هي التي كانت معك تلك الليلة؟ هل هي عشيقتك؟ ألهذا السبب لم تلبي دعوتي وفضلت الذهاب معها؟». أمام صمت ليال تابعت: «هذا يعني أن لا حظ لي فيك، لكنني أحبك». قالت ذلك وهي ترفع نظرها نحو ليال التي ظلت، جامدة، لا تنطق بكلمة. فدنت منها ميمي ووضعت كفيها على خديها وتابعت: «ألا تصدقين؟ أنا أحبك وأحلم بك دائماً. هل يعقل أن تعشقي امرأة مثل التي كانت معك؟ إنها لا تملك أنوثة ووجهها قاسٍ ولا أخالها تعشقك، لأن تصرفاتها معك لا تدل على ذلك و..».

ـ ليست عشيقتي وليس لدي عشيقات. قلت لك سابقاً إن لي صديقاً، وهو يكفيني.

ـ لكن ألا تدرين أنني أحبك وأغار من كل الذين حولك، أريدك لي وحدي.

ـ وأنا أحبك على طريقتي. وإن أردت أن نظل أصدقاء ونلتقي من وقت لآخر إفهميني جيداً: أحبك كجارة لطيفة. هذا كل شيء. وإن كانت لديك ميول أخرى فأرجوك وجهيها نحو غيري، وإلا لما عدت سمحت لك بزيارتي. أود مساعدتك إن احتجت إلى ذلك، لكن ضمن الحدود التي رسمتها.

ـ لا أريد أي مساعدة، أريد أن تبادليني الحب، تطلبين مني أن أوجه حبي باتجاه آخر، وهل الحب يوجه؟

ـ لا أدري، أنت حرة، إن أردت ثابري على حبك لي، لكن كوني مدركة تماماً أن لا تجاوب من جهتي.

ـ هكذا إذاً، قالت ميمي وأجهشت بالبكاء، وتابعت: ما هذه الحياة القذرة، إنها دائماً تعاكسنا، تزوجت ولا أحب زوجي وهو يحبني، تعرفت إلى جارتي فأحبتني وما عدت أحبها، والآن لأنني فعلاً أحب، لا أجد تجاوباً.

ـ هل ترين؟ إن العجوز تحبك وأنت لا تحبينها، كما تدعين...

ـ لكنني أحببتها لفترة، وإلا لما تجاوبت معها، أنا لا أفعل الأشياء غصباً عني، حتى زوجي أحببته في البداية، لكنه خيب أملي وما عدت أحبه.

ـ وأنا أيضاً، بعد فترة لا تعودي تحبينني، فوفري على حالك خيبة أخرى.

ـ لكنك تضعين الخيبة قبل التجربة، جربي أولاً، وإن خابت آمالك وآمالي، يكون الموضوع قد انتهى.

ـ ميمي، أظن أنك لا تفهمينني، لا ميل لدي تجاه النساء. إفهميني مرة واحدة، أميل إلى الرجل ولدي صديق، وأعيش حياتي بأمان، أقفلي هذا الموضوع نهائياً.

ـ لديك صديق! أين هو؟ لم أره مرة واحدة. هل تقولين ذلك لإبعادي؟

ـ لست بحاجة إلى اختلاق الأكاذيب كي أبعدك، ولا أريد أن أقسو عليك، أنت شابة والمستقبل أمامك، لا أريدك أن تحبطي.

ـ لقد تم الموضوع، أنا محبطة حتى العظام. ثم وضعت رأسها على كتف ليال وأخذت تبكي: لا أريد العودة إلى البيت ولا أريد جارتي، أريد أن أبقى عندك، معك أشعر بالأمان وبالقوة. معك...

ـ ميمي، قالت ليال وهي تضمها إليها، اجلسي وروقي أعصابك، سآتيك بالقهوة.

تركتها ودخلت المطبخ وهي تفكر بطريقة تتخلص بها من هذه القصة. إنها تشفق على ميمي وتريد فعلاً مساعدتها، لكن كيف؟ إن طردتها، ربما أساءت إليها وإن سايرتها، ربما أخطأت الهدف في إبعادها، بماذا ستنصحها؟

ـ إشربي القهوة الآن وعودي إلى بيتك، أظن أن الاعتناء بالأولاد هو أهم مني بكثير، فكري بهم أولاً.

ـ أعتني بهم كما ينبغي وأحبهم ولا أنقص شيئاً عليهم، لكن أنا؟ أين حياتي أنا؟

ـ لا تحل الأمور هكذا، بعصبية، فإن كنت تحترمين رأيي، أطلب منك أن تعودي إلى بيتك وأن تفكري بالموضوع جيداً، وبروية، لا تسمحي لانفعالاتك بأن تقودك، فكري جيداً، خلال أسبوع، نلتقي بعدها ونستطيع الكلام في الموضوع بكل هدوء ومن دون دموع وتشنجات.

ـ طيب، سأرحل ولن تري وجهي بعد الآن.

ـ كما تريدين.

الفصل الثالث

- ٤٠ -

انتهت عطلة الربيع. فتحت الجامعة أبوابها وعادت ليال إلى عملها. كانت سهام أول من استقبلها في الجامعة حيث كانت تنتظرها قبل موعد المحاضرات، دنت منها وقبلتها بشوق قائلة: «لقد انتهت العطلة، الآن سأراك أكثر. كانت فرحة وتحمل بيدها أوراقاً، قدمتها إلى ليال.

ـ ما جديدك يا سهام؟ اشتقت إليك.

ـ هل صحيح اشتقت إلي؟ يفرحني ذلك. أما جديدي فستعرفين لاحقاً بعد القراءة.

أخذت ليال الأوراق، وضعتها في محفظتها ودخلت قاعة الدروس بعد أن استودعت سهام واتفقت معها على لقاء آخر. في المساء، قبل النوم أخرجت ليال الأوراق من المحفظة وقرأت: «ـ ولادة ملاك -

.... «تحركت العيون،

بكت...

فصرخت... سنابل القمح، ونيسان ينتظر الاختلاسة الأخيرة، قبل خمسة أيام من الرحيل

لكنه... يرحل وتبقى، وكل عام يأتيها نيسان، فلا يستطيع. فقد توجت في عرش الزمان».

(كل عام وأنت بخير)

سهام.

«إن اتصلت غداً، وستتصل حتماً، لأن لا دروس عندي في الجامعة، وهي تعرف ذلك، سأدعوها إلى بيتي. إنها رقيقة حقاً، لكن كيف علي أن أتعامل معها؟ أظن أنها فهمتني جيداً، ولا مجال للخوف عليها، من الممكن أن تقبل بوضع الصديقة، إنها ليست كميمي الغبية التي لا تريد أن تفهم ولهذا السبب التعامل معها صعب. سهام ذكية، تعرف حدودها، فلا مجال للخوف عليها». رددت ليال لنفسها قبل أن تخلد إلى النوم.

في اليوم الثاني انتظرت ليال طويلاً قبل أن يرن جرس الهاتف في بيتها، كان الوقت ظهراً حين حصل ذلك.

ـ سهام أشكرك على هديتك الجميلة في عيد ميلادي، وأدعوك الليلة إلى العشاء.

ـ أنا أدعوك إن قبلت.

ـ لا، سنتناول العشاء عندي في البيت.

ـ هل تقصدين حقاً ما أسمعه؟

ـ طبعاً، ألسنا صديقتين؟

ـ وفي أي وقت أستطيع المجيء؟

ـ بعد الجامعة، يعني حوالي الساعة السادسة، لا أريدك أن تتأخري كثيراً في العودة ليلاً إلى بيتك.

ـ حسناً، حسناً سأكون عندك في تمام السادسة.

ـ ٤١ ـ

لم تذهب سهام إلى الجامعة في ذلك اليوم. مكثت في البيت تحضر نفسها لزيارة ليال، كانت حالتها مزيجاً من الفرح والحزن. بالإضافة إلى ذلك كان عليها إيجاد عذرٍ لإقناع أمها بضرورة تأخرها في العودة إلى البيت مساءً.

ـ أمي، سأتأخر الليلة قليلاً، لقد دعونا الأساتذة إلى تناول العشاء في المطعم، إنها حفلة تعارف ولقاء بين الطلاب وبينهم، فلا ينشغل بالك، على كل حال لن نتأخر كثيراً.

ـ ولماذا هذه الحفلة الآن، فلا هي بداية السنة ولا هي آخرها.

ـ لأننا في نهاية السنة نكون منشغلين بالامتحانات وبعدها كل واحد يذهب في اتجاه ولا نعود نستطيع جمع بعضنا، لهذا السبب رأينا أن الآن هو الوقت المناسب.

لم تجادلها أمها طويلاً لكنها قالت: «تحتاجين إلى بعض المال حتماً؟» ثم سحبت من محفظتها مبلغاً، أعطته إلى ابنتها وهي تقول: «أرجوك لا تتأخري، لست مطمئنة للوضع الأمني». أخذت سهام المال وقالت: «شكراً. والآن سأقوم بدرس بعض المواد قبل أن يحين الوقت».

دخلت سهام غرفتها وهي لا تزال تحت وطأة الشعورين المتناقضين، الحزن والفرح، ولهذا السبب لم تستطع قراءة المحاضرات، بل كانت مشدودة أكثر إلى الكتابة:

«في كل مرة آتيك جائعة، وكم تكرهين جوعي...، دعينا نتصارح، ليس من عادة الحب أن يخنق أي علاقة فتصوري معي، أنا للآن لا أعرف مكانتي ولا وضعي الحقيقي، أصديقة أكون أم شبه الصديقة، أم فكرة تستلهمين منها خطابك الذكوري والأنثوي، أأكون فأرة تجاربك، ونخسر في النهاية مشروعاً جميلاً. لم نتصارح إلا بالنسبة إلى الآخرين، لكن بالنسبة إلى وضعنا لا مصارحة، بل كلما أفتح الباب تغلقينه، ألا تعتقدين بأن وعيي صار ملزماً بما سأشعر وبما ستشعرين، أتخافين أن أطمع بأكثر، والأكثر ليس من حقي أو من حقك. حدودنا تنتهي عند مقعدين لا يلتقيان، لكن ماذا يحصل لو كنا في التقاء دائم كما هي أفكارنا، هل تخافين أن يقفز جنوني فجأة وأتخيلك إحداهن؟ لا يا صديقتي، لا تتم الرغبات على هذا الشكل، قد أفرض وجودي أحياناً لكني لا أفرض مشاعري، وإن قلتها يوماً فلا يعني هذا أنني أنوي تحقيقها في علاقة سلبية من طرف واحد، فما قد يصيبني، ليس بالضرورة أن يصيب سواي، إنها أولاً وأخيراً مشكلتي، ولا داعي لأن أشرك الآخرين في هلوساتي إلا إذا كانت الهلوسات مشتركة. وكثيرة هي المرات التي ننجذب فيها لشخص ما، لا نكون على باله بتاتاً، ولا يكون السبب في أننا أقل من الآخرين أو أكثر، ولا يتعلق الانجذاب هذا بالجمال أو بالسحر الجسدي، إنما الموضوع يتعلق بأمور تختلف. ما يجذبنا للآخر هو تلك الإسقاطات التي نحمّلها أكثر مما هي عليه، من صور قديمة عشناها

أو من صور نبحث عنها، وتصدف أن تتمحور في شخص معين». توقفت عن الكتابة وأخذت تحدث نفسها:

«هل تكون هي الصورة التي أبحث عنها أو هي الصورة الإيجابية لكل الصور السلبية التي عشتها في السابق من خلال علاقاتي؟ لا أعلم. لا أختبئ خلف أصابعي، فلا أجد أي حرج من الاعتراف بأنها الصورة التي أحلم بأن أكونها أو أملكها، لكن أنا من أكون؟ هل أنا صورة تذكرها بشيء ما، بقصة، بمغامرة تريد إنجازها واختبار إيجابياتها وسلبياتها؟ لا أعلم.

«أنا لا أفهم سبب رفضها لي في السابق، بحجة أنها صورة عنها أو بحجة أنني أمارس ذات الطقوس معها. لكن، وقتها، كنت في وضع لا أحسد عليه، كنت في حالة موت، لكنها رفضت إنقاذي بدافع الأنانية، ورفضت لعب أي دور معي لأنها ما كنت مهيأة للعبه، أو لأنها ترفض لعبه، كما أنها ترفض لعب دور الأمومة، وما كان رفضها للدور إلا رفضاً لتحقيق أنوثتها أو بسبب نرجسيتها، أو بسبب الخوف من الفشل، بحال سلمت جدلاً بأنها الوجه الإيجابي لها، فما الضرر من ذلك؟ حتى المدمنون على المخدرات يعالجونهم بالعقار البديل الذي هو أيضاً من المخدر. ويا ليتها تقدر صراحتي ولا تتهمني بقضية التعويض التي أراها تتحدث بها من خلال نظرة عينيها.

«كلنا نعيش حياتنا ونحن نبحث عن البديل الذي فقدناه. كل حياتنا تعويضات. والاعتراف أفضل بكثير من الكذب، المشكلة أصبحت منتهية عندي، لكن هل ستنتهي عندها؟

«لقد عشت مع نور دور الابنة المدللة. والتي كانت أمها مستعدة

لإحضار لبن العصفور لها. عشت معها دلالاً لم أعرفه مع أمي الحقيقية. عرفت السلطة معها، لا بل سمحت لي بالتسلط. امتلكتها كما امتلكتني. وتنتظرين مني أن أواجه أماً غيرها أو أحلم بأم غيرها؟».

خرجت من شرودها، ارتدت ملابسها، استودعت أمها ورحلت.

فتحت ليال لها الباب، كانت سهام تحمل الورود وبعض زجاجات من البيرة.

ـ كل عام وأنت بخير، وقدمت الورود إلى ليال التي أخذتها وهي تشكرها على ذوقها وتتابع ببعض عبارات المجاملة بينما توجهت سهام نحو الصالون وجلست في حين أخذت ليال تصفف الورد في مزهرية. بين الورود وجدت مغلفاً، فتحته وقرأت بصوت عالٍ:

«كل الهدايا، في مثل هذا اليوم، بحالة صفر، كل العناوين، تختفي في القعر، وكل القصائد تتوقف عن المعاني، ترتجف الأيدي، وتسقط الأصابع.

«صديقتي، عاجزة أنا، كسيحة الشعر أنا، وكأنني ما عرفت يوماً اللغة، ولا طرق يوماً بابي ملاك. في مثل تلك اللحظات، أتقاتل مع نفسي، فأرتطم مع جسدي، أحمل وسادتي ومسبحتي، وأصعد هناك حيث الوحي والخلاص، فأرى آدم يبحث عن حواء، والشجرة تسخر منهما، وبابين كبيرين، واحد من الصدف، والآخر من بركان، وتمر في ذهني كل الديانات، كل القصائد والصلوات، كل المدن والبلدان، وأحفظ كل أسماء البشر، أقرأ كل الشعر الحديث، أستحضر أرواح الشعراء، وأسألهم ممّ تصنع الهدايا للأحباء، وما كانوا يهدون من يحبون. استهزأوا بي مراراً، ومشيت

دون ظلي، كنت أستحي وأخجل منه، أغمضت عيني، وقلت لا تحتاج هي إلى عطور، فكل عطور العالم تأخذ الخلاصة منها، ولا تحتاج الكتب، فلطالما يأتيها الفلاسفة يسترقون السمع، أما الألوان، فتسرق من عندها أقواس قزح، ويفترش الشعر على بابها، جسده كالمتسول، والقصائد المعلقة تخافها. أأهدي لها البحار، وأنا لا أملكها، أأرسل لها كروية الأرض وأنا أشك بكرويتها.

«ها هي عيوني، لكن لا تقتلعيها، ها هو القلب، على ألّا تمزقيه، والفكر، وعبقر، على ألا تسحقيهما، وإلا كيف سأرى من أحب، ويخفق القلب عندما أحب، ويضج عبقر وهلوساته في الفكر، فيولد الشعر، لمخلوق واحد، يعرف ما هو الشعر».

(سهام).

دنت ليال من سهام، قبلتها وقالت: «ما هذا القول الجميل! لا أستأهل كل ذلك. والآن سنجلس على الشرفة، كل شيء جاهز».

على الشرفة كانت طاولة صغيرة، عليها عشاء بسيط.

ـ ما كان عليك تحضير كل ذلك، قالت سهام، نشرب كأساً من البيرة وينتهي الموضوع، أنا لا يهمني الأكل كثيراً.

ـ نشرب البيرة ونأكل قليلاً، ما المانع؟ تفضلي اجلسي.

لم تدم جلستهما طويلاً إذ بدأت أصوات الانفجارات تسمع من بعيد، خافت سهام وتساءلت بصوت عالٍ: «كيف أعود إلى البيت إن تأزم الوضع؟».

ـ سنرى، إن تصاعدت وتيرة القصف، تتصلين بأمك وتبقين هنا، لدينا ملجأ آمن في البناية.

ـ لكني لا أستطيع، لقد قلت لأمي إننا في مطعم مع الأساتذة، علي أن أعود بسرعة.

فعلاً عنف القصف وأصبح من غير المعقول التجول في الطرقات، فما كان من ليال إلا أن سألت سهام عن رقم هاتفها وطلبته.

ـ سيدة... سهام هي عندي، أنا الدكتورة ليال. لقد أتينا إلى بيتي لأنه قريب من المطعم، لا تخافي، ستبقى سهام عندي إلى أن ينتهي القصف واطمئني فملجأ بنايتنا آمن.

ـ أرجوك لا تسمحي لها أن تترك، أنا أعرف عنادها إن صممت على شيء. أتسمحين بأن أكلمها؟

ـ حتماً، أجابت ليال، وأعطت السماعة إلى سهام.

ـ هل كانت ضرورية سهرتكم في مثل هذه الظروف؟ على كل حال تبقين حيث أنت ولن تتركي قبل أن تكلميني، مفهوم؟ وما هو رقم الدكتورة ليال؟

ـ ....هذا هو الرقم، اطمئني سأبقى هنا.

أقفلت الهاتف وبدأ القصف يشتد.

ـ هيا سهام، سننزل إلى الملجأ.

ـ وإن اتصلت والدتي؟

ـ نأخذ سماعة الهاتف الـ«هاندي» معنا، لكن إن انقطع التيار الكهربائي فلا يعود لدينا حيلة.

ـ ألا تبقين هنا، بيتك آمن ومحاط بأبنية عالية.

ـ لا، ليس آمناً، على كل حال لن أبقى دقيقة واحدة هنا، هيا، هيا.

في الملجأ توجهتا إلى سيارة ليال وجلستا في داخلها. كانت ميمي وعائلتها في الزاوية المعتادة. رأتها تمر مع سهام، استيقظت فيها غيرة كبيرة. حين جلستا في السيارة أصبحت غير قادرة على المكوث مكانها. هي تعرف سهام ولهذا السبب أخذت تتساءل ما هو سبب وجودها مع ليال. تناست ما كانت قد قالته لليال في آخر زيارة وتوجهت نحوهما.

ـ مساء الخير، لماذا تجلسين هنا، سألت ليال، متجاهلة سهام.

ـ إني مع صديقتي، كما ترين ونحن هنا بخير.

نظرت ميمي إلى سهام وهي تهز برأسها وكأنها تريد أن تقول إنها تعرف كل شيء، ثم قالت: «تعالي معها نجلس في الزاوية، لا تبقيا وحدكما هنا».

ـ لا شكراً اهتمي بأولادك وزوجك، نحن هنا مرتاحتان.

تركتهما ميمي وهي متوترة: «أهي أيضاً صديقتها، هل لديها عشيقات عدة؟ وإن كان الوضع هكذا فلماذا ترفضني؟ هل تحتقرني؟ لكن أنا أيضاً لا أقبل لي شريكة، فإما أن تكون لي وحدي أو فلتذهب إلى الجحيم».

ـ هذه هي جارتك التي كانت معك مرة في شارع الحمرا، حدسي لم يخطئ يوماً، إنها مغرمة بك، الأمر واضح، هل صديتها لأنني معك؟ هل تحبينها؟

ضحكت ليال وأجابت: «إنها مسكينة، أحبها كجارة، وأشفق عليها في الوقت نفسه».

ـ إن أردت أن تذهبي إليها، سنذهب معاً، إنها شابة جميلة ومثيرة.

ـ لكنها متزوجة وزوجها هنا معها.

ـ وما المانع؟

ـ لا، من الأفضل أن نبقى هنا في السيارة.

«كما تريدين». قالت سهام وقد أعجبها موقف ليال لأنها حاولت أن تفسره على هواها؛ فعدم استجابة ليال لدعوة ميمي يعني أنها تفضلها هي على جارتها: «ربما شعرت ليال بالغيرة حين قلت أن ميمي مثيرة».

لم يدم القصف طويلاً كالعادة. لكن، مع ذلك كان الوقت قد تأخر جداً، فحين أعلن عن وقف إطلاق النار كانت الساعة حوالي منتصف الليل.

ـ ماذا سأفعل الآن؟ سألت سهام.

ـ تنامين هنا، عندي، اتصلي بأمك وأعلميها، ستوافق حتماً، ثم لن أتركك تذهبين في مثل هذا الوقت، إنها مسؤوليتي.

صعدتا إلى البيت، ارتدت سهام لباساً للنوم من عند ليال ودخلت الغرفة التي دلتها عليها.

ـ هل أستطيع أن أحصل على أوراق؟

أتتها ليال برزمة من الأوراق، قبلتها وقالت: «تصبحين على خير». ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها.

«يا إلهي هذا الثوب لامس جسد ليال». تحسسته جيداً وغاصت في نوع من الكآبة: «لماذا مدينتها الزعفران ومدينتي النعناع؟ إنها حقاً مدينة الزعفران حيث يغدو كل شيء مفعماً بالحنين لشيء ما غير محدد، حنيني للصدفة التي يخلفها العطر، حنيني للصوت

الذي يغفو في صمت مائدتك، فأشبع من لا شيء، أشرب من كأسي وأنهيه، لا أريد أي مشاركة، كله لي، فأنا أملك سكرتي، وأنسى مدينة النعناع التي أملك مرارتها، جسر ما يربط بين المدينتين. أريد أن أنهيه ولا أستطيع، أريد أن أنتهي فيه، لا أجرؤ، وعلى طريق البيت ستخنقني الذكريات بتشويهاتها، لا، ليس كما تعتقدين، وإلا لكنت انتهيت منذ زمن.

«يا صديقتي أجد الحب في فكري وحشاً بشرياً. ففي داخل كل حب أغنية أو ترنيمة تدعو للقتل. والمشكلة، يا ملكة مدينة الزعفران، تكمن في التعاطي مع مملكتي، وحدودي وجنوني.

«كلما أرى بيتك، صديقتي أجده يتسع حتى أضيع في مقعدي وتقترب الأشجار المحيطة بنا من أفق الشرفة، تلتصق بنا، نأكل تحت أغصانها وتحمينا ظلالها حتى من أنفسنا. شربنا نخبنا، سعيدة كنت وسعادتي أنمتني أن أشرب النخب مباشرة. توقفت قليلاً كي أستمتع بيقظتي قبل الغيبوبة ولكي أتأكد أنني فقدت الحلم حين دخولي لمنزلك، وأن نفقد الحلم ليس معناه رحيل الرغبات، إنما يعني مدى اتساع الحقيقة في عيني، وما السعادة إلا كلمة ننتظرها ولمسة نفتقدها ووجه نستطيع نسيانه، يظهر فجأة ليذكرنا بوجودنا.

«فاعلمي، يا صديقتي، لا يكون الحب لو كان موضوعه الجسد، فالحب خارج إطار الماديات، هو عالم بحد ذاته.

«عندي في مدينة النعناع النساء متسلطات محرومات يحكين الحزن بعضاً لبعض ويتشاورن حول الفرائس، يخرجن في الليل يبحثن عن جسر الوعد الذي يربط بين المدينتين، لكنهن يجعن في الطريق فيأكلن بعضهن بعضاً، فأرى العالم صغيراً وأصلي كي يكبر

عالمي حتى يصبح طوفاناً يمحي المدينتين، يكبر الأطفال تحت الماء ثم يخرجون إلى الشاطئ يبحثون عن جسر جديد، عن ثياب النسوة المتآكلة وعن أحضانهن، فلا يجدون سوى السنابل الرطبة ويدركون أن الموت، كما في كل مرة، له قرار الاختيار، فيبدأون من جديد. لماذا لا يكون هناك مدينة واحدة، فيتغلبون على الماء والنار. هكذا اكتشف الإنسان صورة وجود النساء في كل مرة تبنى مدينة جديدة حتى ولو كانت مدينة النعناع.

«أما عندك، يا مدينة الزعفران، كل الخلق أطفال مقدسون، يسرحون مع الصباح ليلتقطوا الفراشات وليبنوا بيوت الطين، ثم لا تلبث ضفة النهر أن تأكل تلك البيوت، فيعيدون البناء، ثم لا تلبث النار أن تستعر في البيوت وتمحوها، فيعيدون البناء من الصوان ويزرعون حول البيوت وفي النفوس الزعفران وتنمو المدينة، بالبركة والطيب.

«فيا صديقتي، لا غنى لنا عن المدينتين، واحدة تذيقنا طعم المرارة ونحن نتنشق الحياة وأخرى تذيقنا الحياة ونحن نتنشق طعم المرارة.

«... حنونة أجدك من الداخل وتفرضين وجودك معي لغة اللامبالاة عمداً أو قصداً وكأنه الخوف، وكأنه لحماية مشاعر الذنب، فدعينا منه يا صديقتي، لا خوف عليك مني.

«وحدي أبقى مع معاناتي وفي ملاحقتي لموضوعك، يجوز لأنني الأضعف والأصغر ويجب أن ينبع كل شيء مني، الاهتمام والسؤال والطلب واللقاء، يجوز لأنني لا أناسب طموحاتك ولا دخل لي بأحلامك، يجوز لأنني أفتقر إلى ما لديك من كاريسما

ويجوز لأن مدينتك أفضل وأطفالك أحلى، لكن لا يضرني لو لعبت معي دور الملكة، فسأكون من الرعايا».

في الصباح كان سؤال سهام: «إن كان لديك صديق فهل يعقل أن لا يكون معك يوم عيد ميلادك؟».

ـ إنه في باريس، لقد اتصل بعد طول غياب و«عايدني»، سنلتقي قريباً.

ـ ولماذا لا تتزوجان إذاً؟

ـ ربما فعلنا ذلك في الصيف.

وقع جواب ليال كالصاعقة على سهام التي قالت: «حقاً؟ أظن أن أمي تنتظرني. إلى اللقاء».

لم تذهب سهام إلى بيتها، بل اتصلت بأمها من هاتف في أحد المحال حيث اشترت دفتراً وقلماً وتوجهت إلى مقهى على شاطئ البحر، جلست وحدها تتأمل البحر وتكتب.

«.... صديقتي، إنك تعرفينني أكثر من نفسي وها أنت اليوم تسقطين مني حلول الماضي وذكريات المستقبل، ما توضحت لك العلاقة وما فهمت اقترابي وابتعادي وثورتي، ولا غربتي ووحدتي، كان كل همك يدور في فلك واحد لا غير: هل أشتهيك أم لا؟ لكي تعرفي بأي سلاح تقاومين وأي جانب تحصنين، مع أنني أتيت إليك ضعيفة، فارغة من كل المشاعر إلا الألم. جئت للكشف عن مشكلة، ولم آتِ للوقوع في مشكلة، أتيت إليك في آخر مراحل عمري لا أنوي حتى أن أحمل تابوتي، فلا أقوى على السير وأنا أحمل جثتي، فكيف علي أن أحمل أجساد الأحياء؟ جئت إليك، محبطة، أكره الرجال والنساء. لست منهن ولن تكوني، فلا أحب

خسارة آلامي، فأنا لو فعلت لكنت خسرت عذاباتي وهي سعادتي وعزائي في وحدتي، ولكنتِ انتهيت كما انتهين بعد كل واقعة. إن تحقق الشيء أعلن خسارته.

«نستطيع أن نكذب قليلاً على بعض الناس، ولا نستطيع أن نكذب كثيراً على كل الناس، وما ينطبق على جزء لا ينطبق على الكل، وهذا ما يعذبني.

«فبعد إطلاعك على خصوصياتي، تسلّمت من يدي شهادات تديّني بالنسبة إليك، كتبت شطحاتي العاطفية وقذاراتي الجنسية، على أوراق بيضاء لكي أزيدها قذارة، واختلفت بعدها الرؤية، واتجه الرصاص نحوي، وبدل أن أستعرض أوسمتي الجنسية، صرت أستعرض جرحاً تلو الآخر.

«وسقطت على وجهي الآخر، وأمامك فقط، سقطت ملوثة برائحة النساء، ما اعترضت طريقك يوماً وما فلفشت في أحضانك أي ثوب وما تنهدت أمامك ولا مرة ولا اقتربت منك لأشم عطرك وأقبل جيدك بحرارة، مع أنني أفعل عادة لكي أعزي المرأة. ولم أتصورك عارية، يوماً، ولا أعرف حتى مقاس قدمك، ولا أنوي معرفة لون جسدك وإن كان برونزياً أم دافئاً، مع أنني كنت أفعل، عادة مع المرأة.

«... من هم في سني لا يدهشون عقلي ومن هم أصغر سناً مني، هم آخر اهتماماتي، والذين يكبرونني، المشكلة معهم أصعب، لا أعطش معهم لكن لا أرتوي، يفهمون الجزء الذي يصعب على من هم أصغر لكنهم لا يفقهون الجزء الذي يسهل على من هم أصغر.

«أحبك فقط، ونقطة على السطر، لا تأويل ولا لقاء ولا أجساد معلقة على الصلبان.

«ولذلك ستجدين لغيرتي من صديقك مبرراً غير الذي تقصدين، وليس لأنني أريد الاحتفاظ بجسد مصيره مجهول، لكن غيرتي لأنني «بوجود الآخر» سأخسر الفرصة في استعادة أحلامي، وستضيع علي الفرصة في الجلوس أمامك وحدك أستمع للاوعيك، ولاوعيي تسمعين، سأخسر بوجوده الشيء الكثير؛ لمن سأقرأ ولمن سأكتب ولمن سأفشي أسراري. لقد فات الأوان صديقتي، وما يعزيني في وحدتي أنني ما أدمنت دفن رأسي في حضنك وما جربت، وما يعزيني أنك اخترت الحب الذي يناسبك، وما اخترت».

- ٤٢ -

مضت أيام عديدة من دون أن ترى ليال سهام في الجامعة ومن دون أن تطرق بابها ميمي. لم ينشغل بالها على ميمي لأنه لو أصاب هذه الأخيرة مكروه، لكانت علمت به، أما سهام، فما هو سبب غيابها؟ هل تتصل بها في البيت؟ هل تسأل عنها في الجامعة؟ «هل فهمت أخيراً موقفي؟ ربما، لكن إن تفهمت وضعي، فما هو وضعها الآن؟».

لكن تساؤلات ليال لم تبق من دون جواب، إذ أن تدهور الوضع الأمني بعد أيام قليلة والذي اضطرها إلى النزول إلى الملجأ، فتح الباب أمام مد الجسور من جديد بينها وبين ميمي. وما فاجأ ليال هو أن ميمي كانت وحدها في الملجأ، وحين سألتها عن السبب أجابتها: «لقد ذهبوا إلى الجبل، اشتاق أهل زوجي إلى الأولاد فأخذهم إليهم».

ـ ولماذا لم تذهبي معهم؟ ألم يكن يعلم زوجك بأن الوضع سيسوء؟ هل أخطأ الـ«أحدهم» التقدير هذه المرة؟

ـ إنه ليس تقديراً، لكن صديقه الذي كان يتصل به هو الآن خارج البلد. هو ألح علي وطلب مني أن أذهب معهم، لكنني لا أحب أهله، لم أقل له ذلك، طبعاً، لكنني تحججت بضرورة القيام ببعض الأعمال في البيت وأنه من الأفضل أن أستفيد من غياب الأولاد للقيام بها. لكن أين صديقتك الجميلة؟

ـ من هي صديقتي؟

ـ تتجاهلين والأمر واضح؟ تلك التي كانت معك في المرة الماضية، الآنسة سهام.

ـ إنها في بيتها، لماذا تريدينها أن تكون معي هنا؟

ابتسمت ميمي وقالت: «من الواضح أنها..».

ـ أرجوك لا تغوصي في تخيلاتك.

ـ ألم تنم عندك تلك الليلة؟

ـ نعم فعلت، ولكن ليس كما فعلت أنت سابقاً، دخلت غرفتها ونامت حتى الصباح.

ـ إنها، حقاً، جميلة ومثيرة، إنها تعجبني.

وعاد إلى ذهن ليال صوت سهام وهي تقول عن ميمي: «إنها جميلة ومثيرة». لكنها أبعدت هذا الصوت عنها وسألت ميمي: «أين صديقتك أنت؟»

ـ من تقصدين، جارتي؟ لقد كسرت رجلها وهي الآن ممدّدة في

السرير، تهتم بها ابنة أختها، أجابت ميمي وهي تضحك، لقد ارتحت منها ولو لوقت قصير، وكما ترين أنا وحدي الآن ومتحررة من كل قيد، لا زوج ولا أولاد ولا...ذيل. صمتت قليلاً ثم تابعت: «ألم تزرك بعد تلك الليلة؟».

ـ لا أذكر، ربما فعلت. أجابت ليال بنوع من الجدية فهمت منها ميمي أن ليال تتألم لعدم رؤية سهام.

ـ سهام، اسم جميل، وماذا تفعل صديقتك؟

ـ إنها طالبة في الجامعة.

ـ كم كنت أود متابعة دراستي، لكنت التقيت بمن أريد ولكن سهام محظوظة فعلاً، تتابع دراستها وتصادق الدكتورات و...

لم تكمل ميمي جملتها وليال لم تعلق. ظلتا صامتتين إلى أن سقطت راجمة صواريخ قريبة جداً من البناية وعلا الصراخ من كل الجهات وبدأ الأطفال يبكون وتراكض الجميع إلى الزاوية التي فيها ميمي وليال. كانوا في حالة رعب يرددون: «الله يستر، الله يستر، ما هذه الليلة العنيفة. الله يقصف أعمارهم. الله لا يوفقهم. ماذا يجنون من هذا العنف». وسقطت راجمة ثانية أخرست الجميع لبرهة تبعتها أصوات الابتهالات إلى الرب والأولياء والقديسين لينقذوهم من هذا الجحيم.

رن جرس الهاتف الـ «هاندي» الذي كان مع ميمي.

ـ ميمي أين أنت؟ لقد سمعت بـ «فلاشات» الإذاعات بأن القصف قريب من حينا.

ـ أنا في الملجأ، القصف قريب جداً منا، لا ينشغل بالك فأنا بخير.

ـ طلبت منك أن ترافقينا ولكنك عنيدة. تحملي، لن أقول لك أكثر، لكن أرجوك ظلي في الملجأ، هل الجيران معك؟

ـ وأين تريدهم أن يكونوا، إنهم كلهم هنا والسيدة ليال أيضاً هنا وتعرف المسكينة كم هي «خوّيفة».

ـ إذاً إبقي معها، فهي حتماً لن تترك الملجأ، حتى ولو تركه الجميع.

ـ طيب، طيب، إلى اللقاء.

بالفعل كانت ليلة من أعنف ليالي الحرب في بيروت، لكنها هدأت بعد منتصف الليل بقليل وساد السكون المرعب، وأخذ الناس يصعدون إلى بيوتهم ليتفقدوا ما تحطم من أثر القصف.

ـ هل نصعد؟ سألت ميمي

ـ ننتظر قليلاً لنرى.

ـ على كل حال سنبقى معاً أو عندي أو عندك.

ـ لا بأس، أجابت ليال، كان الخوف يشل كل تفكيرها، ولكن من الأفضل أن نصعد إلى بيتي.

ـ كما تريدين، لا فرق عندي.

وأخيراً تركتا الملجأ وصعدتا إلى بيت ليال بعد أن تفقدتا بيت ميمي واطمأنتا إلى سلامته. كان بيت ليال أيضاً سالماً لأن تحطيم الزجاج في تلك المعارك ما كان يحسب من الخسائر. لملمتا الزجاج بسرعة ودخلتا، كل واحدة إلى غرفة حيث نامتا حتى الصباح، واستفاقتا على صوت رنين الهاتف:

ـ لم أنم الليلة، هل أنت بخير؟

ـ سهام، أنا بخير، وأنت؟

ـ الحمد لله.

ـ أين كنت كل هذه الفترة، ولماذا لم أعد أسمع صوتك ولا أجدك في الجامعة؟

ـ كنت متوعكة قليلاً، لكن لدي أخبار كثيرة، هل أراك اليوم؟

ـ بكل تأكيد.

ـ إني آتية، أراك قبل أن يحين وقت الجامعة.

ـ ٤٣ ـ

سمعت ميمي كلام ليال، فنهضت بسرعة، استودعتها وعادت إلى بيتها، جهّزت نفسها وخرجت إلى الشرفة تنتظر وصول سهام. عندما رأتها، دخلت المطبخ، أحضرت القهوة وصعدت إلى بيت ليال.

ـ أحضرت لك القهوة، هل أدخل؟

ـ شكراً، ولكن...

ـ خذي القهوة إذاً، اشربيها مع صديقتك سهام، وأنا أراك لاحقاً.

تلبكت ليال قليلاً ثم قالت: «لا، لا، تفضلي، ادخلي».

كانت ميمي تنتظر هذه الكلمة. دخلت، وضعت الصينية على الطاولة، سلّمت على سهام، ثم سكبت القهوة في الفناجين التي أحضرتها ليال وجلسن يتذوقن المناقيش بالصعتر التي أتت بها سهام ويشربن قهوة ميمي، وانتهت الجلسة حيث لم يتبادلن إلا الحديث حول هول ليلة البارحة، بطرق على الباب إذ أتى زوج ميمي.

ـ الحمد لله على سلامتكم، هيا حبيبتي، لقد تركت الأولاد في بيت جدهم وجئت آخذك معي، ربما تجددت المعارك. ست ليال، تستطيعين الذهاب معنا إن أردت.

ـ لا، شكراً سأبقى هنا.

ـ كم تذكرني بـ«كلير»، قالت سهام، حين ذهبت ميمي مع زوجها. إنها تشبهها جداً، حتى حركاتها وتصرفاتها وابتساماتها... لست أدري ما حل بكلير ومع من تعيش الآن.

ـ أدركت ليال ماذا يعني كلام سهام، لكنها تجاهلت الموضوع وسألت: «هل صحيح كنت مريضة؟».

ـ لا، لكني عشت فترة صاخبة، قمت بعلاقات عديدة. كنت أريد أن أخرجك مني، كانت علاقات عابرة، انتهت بسرعة.

ـ سهام، أفهمتك منذ البداية عن حدود علاقتنا، وأردت مساعدتك فقط، لكن إن كان ذلك يؤذيك فمن الأفضل أن...

ـ لا تكملي، فأسابيع قليلة وننفصل تلقائياً وتكون رحلة لك ولي، وتجدين فيها ما تريدين، وأفقد بها ما أريد. ومع رحيلك، سأكتشف أن التفهم لمشاعر الآخرين أفضل من مشاعر الحب تجاه الآخرين. وحيدة سأبقى كما كنت قبل أن نلتقي في أول كلام بعد الصمت الطويل. غيرت بي أشياء كثيرة، ذكرتني بمشاعر كنت أتناساها، وبألم كنت أختبئ بداخله، ما كنت أتكلم مع الآخرين عن معاناتي، لأنها جد خاصة، تكلمتها معك، وعانيت معك ورأيت وجهي البائس، حتى أنا نفسي ما كنت أجرؤ على رؤية جوانيتي، جعلتني أراها، فكم أنا حزينة، وقدري أن أتحمل ليس لأجل شيء إلا للبقاء ما بين الوهم والحقيقة.

ـ ما هذا الكلام؟ أنت شابة جميلة وذكية ولديك كل الإمكانات لكي تكوني سعيدة، كثيرون هم الذين يتمنون مشاركتك في حياتك، فلا داعي لكل هذا الحزن، ولكل هذه المرارة.

ـ أعلم أن كلامي يرحل برحيلك من أرض المطار، لكن حزني يبدأ بالوقت ذاته الذي به تنسين. لست طفلة، لكن أحزاني هي أشد من جرح الأطفال. ما عدت أعرف ماذا أريد. لكن، أدرك بأنني الميت الحي. والأيام تتشابه والمناسبات بطيئة مقرفة، أرى النساء متشابهات، يملكن الأيادي ذاتها، والعطور ذاتها، والأجساد ذاتها، وأنا مختلفة. أحياناً أراهنّ كما فعلت هذه الفترة، لكنهن وحوشاً مفترسة يصبحن حين ينتهين من فريستهن، حتى أنهن يوزعن أشلاءها على النسور والكواسر. فالمرأة أشد فتكاً من السرطان، على أساس أن هذا المرض، سيكتشف له علاج، يوماً ما، لكن من سيجرؤ على اكتشاف علاج للخلاص من جرثومة المرأة؟

ما عادت ليال تدرك بم تجيب سهام وشطحاتها، ولكن أمام وضعها المنهار، حاولت أن تنشطها وأن تقدم لها الأمور ببساطة:

ـ ليال، لا تضخمي الأشياء، اقبلي نصيحتي، فالحياة لا تستأهل كل هذه الجدية، خذيها كما تأتي، ولا تعاني. فإن كنت هكذا فاقبلي نفسك هكذا وليس كالحب دواءً لمثل هذا الوضع، فابحثي عنه أينما كان، مع امرأة أو مع رجل، لا تبالي، المهم أن تعيشي حياتك من دون ندم ولا أسف.

ـ لست آسفة على ماضيّ، لكني آسفة على روح أضعتها بين أحضان رخيصة، وهبتها الحلم والأمل، فخرجت مع كوابيس بلا رجاء.

ـ لا أريد سماع المزيد، أنت أقوى من كلامك عن ذاتك.

صمتت سهام قليلاً ثم قالت: «هل تدرين أن ميمي تذكّرني بمرحلة عشتها من دون تمزق كبير، كنت في محيط يتقبلني، كنت مع كلير التي كانت تشجعني ولا تشعرني بالذنب كلما مارست معها ميولي ورغباتي. من أين ظهرت هذه الـ «ميمي»، أعرف أنها تحبك، الأمر لا يحتمل الجدل».

كانت ليال تعلم أن سهام حظيت أيضاً بإعجاب ميمي فهل تسهل لهما اللقاء؟ «إنها أنانية لن أفعل ذلك، أن أرمي سهام في علاقة ثانية لأبعدها عن التعلق بي. لا، لن أفعل ولتأت الأمور على هواها، أنا لن أحاول شيئاً». كانت ليال أيضاً ممزقة بين ما تفكر به فعلاً وبين ما يقوم عليه المجتمع وما هو سائد في الواقع الظاهر.

ـ عدت، قالت ميمي، حين فتحت ليال الباب، لقد ذهب زوجي ليبتاع بعض الأغراض وعندما ينتهي سيتصل بي لكي أكون جاهزة للذهاب إلى الضيعة، هل سهام ما زالت هنا؟ ودخلت من دون أن تنتظر دعوة ليال.

كانت ميمي بكامل أناقتها وجمالها، ترتدي ثياباً ملاصقة لجسدها النحيل وشعرها مسدول على كتفيها تزينه فراشة مزركشة تناسب ألوان فستانها. كانت تبدو كالدمية الجميلة. نظرت إليها سهام وابتسمت ولم تستطع إخفاء إعجابها: «كم أنت جميلة، سيدة ميمي».

ـ هل حقاً تجدينني هكذا؟ وأنت أيضاً جميلة، ومن دون تبرج، أحب ذلك، المرأة المتبرجة لا تشدني ولا تعجبني، أفضلها هكذا

مثلك، حين تتأنق المرأة وتتزين، فإنها تثير غيرتي لا إعجابي، لا أعرف لماذا.

ـ هذا لأنك في الداخل صافية ولا تحبين الأقنعة. أجابت سهام.

ـ لست أدري ما أنا في الداخل ولا أحاول أن أعرف، أعيش الأشياء كما تأتي، ولهذا السبب لا أندم على شيء أقوم به، ولا أحاسب نفسي، أجد أن الآخر هو دائماً على خطأ وليس أنا.

ـ أحسدك على وضعك، ليتني كنت مثلك...

فجأة دوى انفجار هز العاصمة بكاملها وسمع صوت تحطم الزجاج وتساقطه على الأرض، وركضت ليال إلى الراديو تبحث عن محطة تذيع الخبر: «انفجار سيارة في شارع... الذي يكتظ بالناس... وعدد الجرحى والقتلى يزيد على المئة..».

ـ يا إلهي إنه قريب جداً، أين ذهب زوجك؟ سألت ليال.

ـ لست أدري، من المؤكد أنه في الحي.

ورن جرس الهاتف مع ميمي، وسألت: «أين أنت؟».

ـ ....

ـ لا تتحرك، أنا بخير وسأتصرف. أقفلت الخط وقالت: «إنه زوجي، يقول إن الجو غير نظيف ولربما حصل شيء لأن المسلحين يملأون الشوارع».

ـ أين هو؟ سألت ليال.

ـ إنه عند أحد أصحابه، ليس بعيداً من هنا، سيبقى عنده إلى أن

يرتاح الوضع، وقد أوصاني بالنزول إلى الملجأ عند سماع أول طلقة نار. ورن جرس هاتف ميمي من جديد.

ـ أنا بخير، وأنت، كيف صارت رجلك؟

ـ ...

ـ لا، أنا وحدي، زوجي عند صديقه...

ـ ...

ـ لا تخافي، انتبهي لنفسك أنت... إلى اللقاء.

نظرت ميمي إلى ليال التي كانت تبتسم وقالت: «لقد عرفتِ من هي، لن تفهم، وستظل تلاحقني حتى وهي «ملقوحة» في الفراش ورجلها مكسورة». ثم نظرت إلى سهام وقدمت لها سماعة الهاتف: «اتصلي بأمك».

ـ أنا عند صديقة لي، لا تخافي ولن أترك قبل...

ـ ...

ـ لماذا الصراخ؟ لقد خرجت وانتهى الموضوع، لن أتأخر، سأعود حالما يمكن ذلك.

ـ ...

ـ رقم الهاتف؟ وعددت أعداد رقم ليال، من دون أن تفكر.

ـ ...

ـ جئت مع صديقتي لزيارتها لأنها مريضة. خذي تكلمي مع صديقتي ميمي، لماذا أنت هكذا؟

أخذت ميمي السماعة من يد سهام، وبعفوية ذكية قالت: «ألو مدام... أنا ميمي. لا تخافي على سهام إنها معنا هنا بأمان، قمنا بزيارة الدكتورة ليال، وسنعود إلى بيوتنا بأسرع وقت، لكن الانفجار لم يكن بعيداً من هنا وعلينا الانتظار قليلاً قبل أن نتمكن من الخروج». حين أقفلت السماعة قالت: أمك قاسية مثل أمي، لماذا هي متوترة هكذا، كل الناس خرجوا من بيوتهم، من منا كان يدري كيف ستتطور الأمور في هذه المدينة وفي هذه الحرب.

- توترت عندما علمت أنني عند الدكتورة ليال.

- ولماذا؟ سألت ميمي، وهي تبتسم وتنظر إلى ليال.

- ربما تعتبر ذلك إزعاجاً لي، فأنا أعرف كيف تفكر الأمهات.

وقبل أن تنهي ليال جملتها انفجرت ميمي بالضحك، دنت من سهام، طوقتها بذراعيها وقبلتها وهي تقول: «هذه المرة أنت عندي وليس عند الدكتورة ليال».

أصوات رشقات نارية وزعيق صفارات سيارات الإسعاف بدأ يملأ الفضاء، والراديو يذيع: «القتلى والجرحى بالعشرات...» وهذا ما جعل ملاحظة ميمي تمر من دون تعليق، لكن سهام التي فوجئت بسلوك ميمي ظلت جامدة، تحلل في داخلها ما يدور في ذهن ميمي، هل هي تحاول إثارة غيرة ليال؟ هل حقاً أعجبها كما هي تعجبني؟ هكذا كانت كلير تتصرف، لكن ميمي تملك أنوثة مختلفة، إنها تعيش أنوثتها بكل ارتياح، بعكس ليال التي تخفي هذه الأنوثة وراء قناع قاسٍ، لكنها بالتأكيد تملكها، أنا أتحسسها جيداً على الرغم من إخفائها لها.

بعد وقت قصير هدأ صوت الرصاص، توقفت صفارات سيارات

الإسعاف وأعلنت الإذاعات أن المدينة لملمت جراحها وساد الهدوء.أتى زوج ميمي وطمأن سهام إلى إمكانية المغادرة.

ـ نوصلها إلى بيتها. قالت ميمي. ولم يجب زوجها.

ـ لا شكراً، أذهب وحدي.

ـ اتصلي بنا عند وصولك، أو سأتصل أنا، ما رقم هاتفكم؟

ـ لا داعي لذلك.

ـ سيرتاح بال أمك لو اتصلت بك، أنا أعرف ذلك.

أعطت سهام رقم هاتفها إلى ميمي، استودعتها، وانصرفت.

ـ أنا لا تعجبني هذه الزيارات للدكتورة ليال، هل هي فعلاً أستاذتك في الجامعة أو هي صديقة كالتي كانت في باريس؟

ـ أمي! أين ذهبت أفكارك، لقد انتهى الموضوع منذ زمن بعيد.

ورن جرس الهاتف، كانت ميمي.

ـ هل وصلت سهام؟

ـ إنها هنا، لقد وصلت بخير، شكراً حبيبتي.

ـ لقد خرجنا معاً من عند الدكتورة ليال، وأردت أن أطمئن إلى وصولها وأطمئنها إلى وصولي، هل أستطيع أن أكلمها؟

ـ لقد وصلتُ بخير. قالت سهام.

ـ سأتصل بك الأسبوع القادم ونلتقي.

ما كان باستطاعة سهام أن ترفض أو توافق لأن أمها كانت إلى جانبها، فقالت: «إلى الأسبوع القادم، نلتقي في الجامعة.

في بداية الأسبوع التالي كانت ميمي في الجامعة تبحث عن سهام، وجدتها وجلستا في المقهى وتحدثتا طويلاً عن حالهما وعن ليال. كانت كل واحدة منهما تجد في الأخرى شيئاً من ليال؛ ميمي معجبة بقوة شخصية سهام وبذكورتها الظاهرة، وسهام معجبة بنعومة ميمي وأنوثتها الظاهرة.

وهكذا أصبحتا تلتقيان باستمرار وقد رأتهما ليال مرة في فترة امتحانات آخر السنة، لكنها غضّت الطرف وتابعت سيرها، كأنها لم ترهما، وفي المساء حين كلمتها سهام لم تقل لها شيئاً، لكن سهام اعترفت: «إننا الآن صديقتان».

ـ حسناً، المهم أن يمارس الإنسان حقيقة ذاته أينما كان.

ـ شارفت السنة على الانتهاء، متى تسافرين؟

ـ في أول يوم من العطلة.

ـ أتمنى لك التوفيق.

ـ ٤٤ ـ

انتهت السنة الجامعية، بدأت العطلة الصيفية، وهيأت ليال نفسها للسفر، وليلة الرحيل نزلت إلى بيت ميمي تستودعها: غداً أسافر إلى فرنسا، هل أستطيع أن أطلب منك خدمة؟

ـ بكل تأكيد. ماذا تريدين؟

ـ سأعطيك مفتاح بيتي، لا أريد منك شيئاً محدداً، ولكن ربما شب حريق أو جد أي طارئ... هكذا يكون المفتاح معك ولا تضطرون إلى خلع الباب، هل من إزعاج في ذلك؟

ـ لا، لا، قالت ميمي وهي تأخذ المفتاح من يد ليال.

ـ والآن أستودعك. ثم دنت منها وقبلتها، فما كان من ميمي إلا أن قالت: «حظاً سعيداً، أحسد صديقك عليك، «نيالو».

لم تعلق ليال بل انسحبت وعادت إلى بيتها. وأمام الباب وجدت سهام وهي تحمل بيدها هدية. دخلتا إلى البيت واستلمت ليال الهدية. حين فتحت الغلاف وجدت صحن سجائر وظرفاً مغلقاً: «ما هذا الذوق الرفيع وما الداعي لهذه الهدية الآن؟» قالت ليال وهي تتأمل المنفضة.

ـ أرجو أن تأخذيها معك في السفر، هكذا كلما نفّخت سيجارة تتذكرينني، وأنا أعرف كم تدخنين، أما الرسالة فاقرئيها في الطائرة.

ضحكت ليال ووعدت سهام بأن تأخذ المنفضة معها وبأن لا تفتح الرسالة إلا بعد الإقلاع، ثم تابعت: «كيف الحال مع ميمي؟».

ـ إنها لطيفة جداً وتتفهم ميولي جيداً لكنني لو حاولت معها أن أكون صريحة كما معك، أتخيل بأنها لن تستطيع فهم مشاعري التي لا علاقة لها بحبها. أتخيل لو أنها تتفهم الفراغ الداخلي الذي يمتلكني، لكن أنا من اختار، وعلي أن أسير حتى آخر المطاف، أتخيل نفسي أقول لها: «لا أريد رؤيتك ولا رؤية أي مخلوق اليوم». «لكنها تفهم الشق الأول ولا تنتبه للشق الثاني إنها طيبة وتتحمل مشقة الوصول إلى الجامعة، فمن الواجب أن أكون بالانتظار، وما أقسى الانتظار. هل ستبقين كل العطلة في باريس؟

ـ ربما، لا أدري الآن، وعلى كل حال أتصل بك عند مجيئي.

ـ وما هو رقم الهاتف في باريس؟

أعطتها ليال رقم الهاتف، فقبلتها وانصرفت بصمت كلي.

وضبت ليال أغراضها، بعد أن وضعت صحن السجائر على المكتب في غرفة نومها، ورحلت في اليوم التالي تاركة سهام وميمي يكملان القصة وحدهما. في الطائرة فتحت رسالة سهام الأخيرة: «أوَ ترحلين هكذا... كما كل الراحلين، وأبقى مع ذاتي ألاحق الصور القديمة، أسير في سراديب مغلقة، لا ضوء ولا دليل. أبحث في طريقي عن مفتاح أضعته، وخاتم فقدته. جنون؟.. لا، أبحث عن نفسي ولا أجدها... أعيش الفصام بكامل أشكاله. يضيع مني رأسي، وعندما أجده تضيع يداي، فأجدها على الرصيف تلملم حبات المطر، أستنسخ من أصابعي دفاتر وأحشوها كلاماً فارغاً، أمسك بها... كأس مر المذاق يعدل ذاكرتي وتعيدني إلى عالم اليقين وكأنني سأبقى لكي أرى مشهد لقائي بذاتي...

«إلى متى سأنتظر، بعد رحيلك أحكي مع الجدران ومع الصور وأقرأ ما أكتب إليك مئة مرة حتى يمر الوقت سريعاً من دون محطات. سأحاكيك كل يوم بكلمات كنت أقولها لك وبكلمات ما قلتها لك يوماً، وسأناديك على طريقتي، وبالسر سوف تأتين بلا طائرة، نجلس في مقهى مهجور، نشرب كأسي نسيم منعش، نسمع صوت الليل، نحكي ونحكي إلى أن تخرج الشمس من مخدعها، تتثاءب، فأسمح لك بالانصراف بعد أن تعديني بزيارة أخرى. وأحياناً سوف أتصل بك على هاتف منزلك في بيروت وأترك الجرس يرن في السماعة، لكنه لا يرن في أذني لأنني سأسمع صوتك وضحكتك التي ترن، وأتحدث مع سماعة الهاتف طويلاً، أحكي كما جرت العادة ولا تجيبين إلا باختصار لأنه معك، وسأفهم عندها بأنني شخص مهم وخاص، والحديث معه مفروض

أن يبقى خاصاً وغير معلن. ارحلي، صديقتي، لعلني برحيلك أفهم بأن الوحدة والانعزال هما أقرب طريق لمعرفة الذات».

طوت ليال الأوراق وقالت لنفسها: «يجب أن أبتعد عنها، كان لا بد من هذه الرحلة، ربما أخرجت سهام من أوهامها بخصوصي».

في اليوم ذاته اتصلت ميمي بسهام لتقول لها: «متل ما ودعتي تلاقي».

ـ وأنت أيضاً.

ـ أين سنلتقي الآن، لقد أقفلت الجامعة، هل تأتين إلى منزلي؟ ما النفع، الأولاد في البيت. لكن مهلاً، أنا سأتدبر الأمر، إلى اللقاء.

في المساء حين أتى زوج ميمي إلى البيت استقبلته هذه الأخيرة بكل ترحاب، وبعد العشاء أخذت تتحدث معه حول عطلة الأولاد وضرورة ذهابهم إلى الضيعة لكي يكتسبوا الصحة والنشاط. حين اقتنع بوجهة نظرها، قالت: أوصلهم أنت غداً، وأنا سأوافيهم في آخر الأسبوع بعد أن أكون قد هيأت كل اللازم لهم من ثياب وغيره لتمضية الصيف.

ـ وأنا أبقى وحدي؟ أم تريدين مني أن أصعد كل يوم إلى الجبل ومن الجبل إلى بيروت، هذا مرهق جداً.

ـ لا، سأكون معك هنا خلال الأسبوع ونصعد معاً في الـ «ويك اند» إلى الجبل.

ـ هكذا جيد، غداً أوصل الأولاد إلى بيت جدهم، سيفرحون بهم كثيراً.

ـ طبعاً، لكن سيمضون فترة عند أهلك وفترة عند أهلي.

ـ كما تريدين.

في اليوم التالي حين عاد زوج ميمي من عمله، وجد كل شيء جاهزاً لكي يغادر مع الأولاد، تناول الغداء مع زوجته، استودعها وذهب وهي تقول له: «لا داعي للعودة الليلة، الضيعة بعيدة، ولا أريدك أن تأتي في الليل، ثم إنه من الأفضل أن تبقى مع الأولاد، إلى الغد، أنا سأنام عند جارتك العجوز، لا تخف».

ـ ٤٥ ـ

ذهبوا وتوجهت ميمي إلى الخزانة حيث وضعت مفتاح بيت ليال، أخذته واتصلت بسهام.

ـ أنتظرك اليوم.

ـ أين؟

ـ حيثما كنت تأتين، في بيت ليال.

ـ كيف؟ ألم تسافر؟

ـ- بلى، لكنها أعطتني مفتاح بيتها قبل السفر.

ـ هذا لا يجوز، لا، لا.

ـ سأكون في بيتها الساعة الخامسة أنتظرك.

«في بيت ليال؟ ما هذا الجنون؟ لن أذهب ولتنتظر ما شاءت...». «وميمي التي حدست بتردد سهام ورفضها، اتصلت بها في تمام الخامسة من بيت ليال: «أنا أنتظرك، لا داعي للتردد، أنا الآن في بيت ليال، لا تتصرفي كالأطفال هيا.هل أمك في البيت؟»».

ـ لا، ليست هي السبب في ترددي.

ـ إذاً تعالي. أنا أنتظرك.

كانت سهام، وعلى الرغم من ترددها تتشوق لمداعبة جسد ميمي الذي تشتهيه. ومن دون تفكير مطول، رأت نفسها ترتدي ثيابها بسرعة وتخرج. قبل وصولها اشترت باقة من الورد وحملتها كما حملت مثلها إلى ليال في عيد ميلادها. طرقت الباب وحين انفتح، كانت ليال أمامها فطوقتها بذراعيها وقبلتها بشوق كبير: «لقد أحضرت بعض المشروب، سنجلس على الشرفة». طوقت ميمي خصر سهام بذراعها وخرجتا إلى الشرفة وبدأتا بالشرب. حين أغربت الدنيا سمع صوت بعض الانفجارات البعيدة فدخلتا إلى الصالون، كان المشروب قد بدأ تأثيره عليهما، تعانقتا وبدأت الشهوة تأكل جسديهما.

ـ هيا إلى السرير، قالت ميمي وهي تتوجه نحو غرفة ليال، دخلتاها وأول شيء وقع عليه نظر سهام كان صحن السجائر على المكتب، جن جنونها: «لم تأخذه معها كما وعدتني، سأنتقم منها». وارتمتا على السرير الذي كان لا زال يعبق بعطر ليال، تعرتا وتحول السرير إلى جسد عارٍ بينهما، تحول إلى جسد ليال التي في يوم عيد ميلادها، حيث اضطرت سهام إلى النوم في بيتها، أخذتها من يدها وقالت لها: «تنامين إلى جانبي في السرير». وكانت مضاجعة، شعرت بعدها ليال بنشوة لم تذقها من قبل.

ـ ما هذه الروعة؟ قالت ميمي، من أين لك كل هذه الخبرة؟

ـ اصمتي، لا أريد أن أسمع صوتك، فقط اتركيني أنتشي بنشوتك.

شربت النبيذ الأبيض معها وهي ترتدي فستانها الشفاف وصعدتا

معاً إلى بيت ليال، التي دعتها إلى النوم عندها لأن زوجها كان غائباً: «لن أتركك تنامين وحدك، قالت ليال، سأجعلك تسعدين بعد هذا العشاء الشهي، وأنت بهذه الإثارة، أنا من يعرف ماذا يسعدك». وأخذت تداعب جسد ميمي من تحت فستانها بطريقة مثيرة للغاية وهي كانت تتجاوب وتداعب جسد ليال بالطريقة ذاتها إلى أن انتشتا وأشبعتا جسديهما الملتهبين.

تمددتا على السرير، أخذت سهام يد ميمي وقالت: «كانت رائعة، أليس كذلك؟».

ـ من، من تقصدين؟

ـ ليال.

ـ وكيف عرفتِ؟

١٩٩٩/١١/١

مؤلفاتها

إلى هبى، سيرة أولى، (رواية)، دار الفارابي، ١٩٩١.

هبى في رحلة الجسد، سيرة ثانية، (رواية)، دار مختارات، ١٩٩٤.

صوت الناي، أو سيرة مكان، (رواية)، دار مختارات، ١٩٩٥.

نحو تحرير المرأة في لبنان، (نظرة شاملة ورؤية مستقبلية) دراسة، دار مختارات، ١٩٩٦.

(IHSA) EL ULUM

Enumération des Sciences ou Classification des Sciences, Traduction Fransaise avec Introduction et notes, Centre de Developement National, 1991.